

اعداد مكتبة الروضة الحيدرية المكتبة الرقمية

الرسائل
الجماعية

أساليب المجابهة بين العرب والبيزنطيين في العصر الأموي

أطروحة تقدم بها الطالب

محمدي سالم محمد الله حمد الجبوري

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات
نيل درجة الدكتوراه في فلسفة في التاريخ الإسلامي

بإشرافه

الأستاذ الدكتور نافع توفيق محمود التكريتي

أذار ٢٠٠٣ م

محرم ١٤٢٤ هـ

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة : نطاق البحث وتحليل المصادر	أ - ر
الفصل الأول : جغرافية ميدان المجابهة	
١ - تمهيد	
٢ - الحدود الجغرافية لميدان المجابهة	
٣ - المظاهر الطبيعية والبيئة المناخية في ميدان المجابهة	
الفصل الثاني : دوافع المجابهة بين العرب والبيزنطيين	
١ - الجهاد في سبيل الله تعالى	
٢ - تحرير الأرض العربية	
٣ - الرد على التحديات البيزنطية	
الفصل الثالث : الخطة التعبوية والاستحضارات الدفاعية في الثغور	
١ - مفهوم الثغر في اللغة والاصطلاح	
٢ - أهمية الثغور عند المسلمين في صدر الإسلام والعصر الأموي	
٣ - جغرافية الثغور وأثرها في رسم الخطة التعبوية واقامة الاستحضارات الدفاعية	
٤ - مضامين الخطة التعبوية والاستحضارات الدفاعية في الثغور	
٥ - أساليب التحصين ووسائله في الثغور	
٦ - تجهيزات مجاهدي الثغور في العصر الأموي	
الفصل الرابع : الصوائف والشواتي	
١ - مفهوم الصوائف والشواتي في اللغة والاصطلاح	
٢ - البدايات التاريخية للصوائف والشواتي	
٣ - دواعي اعتماد أسلوب الصوائف والشواتي	
٤ - تنظيمات مقاتلة الصوائف والشواتي وسجايهم	
٥ - إعداد مقاتلة الصوائف والشواتي وتجهيزهم	
٦ - علاقة مقاتلة الصوائف والشواتي فيما بينهم	
٧ - التعبئة القتالية في الصوائف والشواتي	
٨ - أهداف حملات الصوائف والشواتي	

الفصل الخامس : المجابهة الحربية البحرية

الفصل السادس : الحملات الحربية المباشرة صوب القسطنطينية

الفصل السابع : أساليب المجابهة السياسية والفكرية والاقتصادية

١ - أساليب المجابهة السياسية

٢ - أساليب المجابهة الفكرية

٣ - أساليب المجابهة الاقتصادية

الخاتمة

ثبت المصادر والمراجع

الملاحق

الملخص باللغة الإنكليزية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ .

صدق الله العظيم

سورة الأنفال آية ٦٠

الإهداء

**إلى كل شهيد بذل روحه ودمه من أجل العروبة والإسلام
إلى كل مجاهد وقف حياته وقلمه لخدمة العروبة والإسلام
إلى والدي ووالدتي.. حباً ووفاءً**

الشكر والتقدير

يكل اليراع وتعبي الألسن دون أن تحيط شكراً وثناءً بمن بذل الجهد والنصح والوقت معضداً إياي في سبيل إكمال هذا الجهد المتواضع ويجيء في مقدمة هؤلاء أستاذي الفاضل_المشرف_ الأستاذ الدكتور نافع توفيق عبود التكريتي الذي كان نعم العون لي بما أبدى من سديد نصح وأرشاد فجزاه الله تعالى عني خير الجزاء .

وأثمن عالياً الجهود القيمة التي بذلها أستاذي الجليل الدكتور محمود عباد محمد الجبوري ومتابعته الدؤبة إياي بغية تحقيق أعلى النتائج طيلة مدة دراستي الجامعية ولأجل إخراج هذا البحث بأحسن ما يمكن من الدقة العلمية التاريخية والمنهجية البحثية فله خالص الشكر وجزيل الامتتان .

ويطيب لي أن أسجل أصدق عبارات الشكر والثناء إلى كل من علمني و أجاد عليّ بالرأي والنصح والمشورة ، وكان لي شرف التلمذة على يديه وأخص بالذكر أساتذتي الأجلاء رئيس وأستاذة قسم التاريخ في كلية الآداب / جامعة بغداد وأساتذتي الأفاضل في قسم التاريخ بكلية التربية / جامعة تكريت ، كما واشكر كل من قدم لي العون أو أحاطني بالاهتمام ولا يسع المجال لذكر اسمه ، وأقدم خالص شكري وامتناني إلى الأساتذة الذين تفضلوا بقراءة وتقويم الأطروحة من النواحي اللغوية والعلمية فجزاهم الله تعالى خير الجزاء .

وأسجل جزيل الشكر و الامتتان إلى الأخوة و الأخوات العاملين في مكاتب : الدراسات العليا في كلية الآداب ، مكتبة المجمع العلمي العراقي ، مكتبة المتحف العراقي ، المكتبة المركزية في جامعة بغداد ومكتبة المدرسة القادرية الكيلانية على ما قدموا من مساعدة وعون ، وأشكر الزملاء الذين تفضلوا بطباعة صفحات هذه الأطروحة ، وأسأل الله العزيز الجليل أن يجعل هذا الجهد في ميزان حسناتي وإياهم أجمعين .

الفصل الأول

جغرافية ميدان المجابهة

تمهيد

الحدود الجغرافية لميدان المجابهة
المظاهر الطبيعية والبيئة المناخية في ميدان المجابهة

M

لم تكن المجابهة العربية الإسلامية مع الروم البيزنطيين في العصر الأموي إلاّ امتداداً للصراع الذي بدأت بؤاده الأولى في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ثم تتابع ذلك في عصر الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) من بعده ، وما اعتمد من أساليب قتالية وخطط حربية مع الروم ، فانه بطبيعة الحال استند على الأساليب القتالية التي وضع أسسها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون .

وعليه فان دراسة كهذه توجب على الباحث التأصيل لكل فعل عسكري أو أسلوب قتال اعتمد ضد الروم في مدة البحث ، تواملاً مع التسلسل المنطقي والتاريخي للأحداث ، ومن ثم بيان ملامح التطور والتجديد والإبداع العربي الإسلامي في تلك الأساليب والوسائل حسب ما أوجبه مقتضيات مراحل الصراع التاريخية وظروفها .

إن البحث في موضوع اتسم تاريخياً بسمة الصراع المسلح غالباً يوجب على المؤرخ المحلل الوقوف عند دقائق الأمور وكبيرها في ضوء ما تقدمه معطيات المصادر التاريخية وعدم التركيز على عامل واحد دون سواه في تفسير حالات النصر أو الهزيمة التي تعرض لها المسلمون ، إذ من النادر ان يكون لاحادية العامل الواحد تفسير مقنع للحدث التاريخي ، فما بالك إذا كان هذا الحدث عمليات عسكرية متواصلة ؟ فهي عموماً حصيلة جملة عوامل ترتبط ببعضها وتتشابك في أماكن معينة لها أهمية عسكرية ، وعليه فمن الصعب الفصل بين الفعاليات العسكرية وظروف البيئة - طبيعية كانت أم بشرية - التي تكون منطقة الصدام المسلح ، وذلك لان نجاح هذه العمليات او فشلها يعتمد إلى حد كبير على درجة المرونة التي تتكيف فيها المبادئ العسكرية تبعاً للظروف القائمة في مواضع سوقية (استراتيجية) وتعبوية (تكتيكية) معينة .

وهذا ما يدعو إلى القول إن التحليل الجغرافي لمنطقة المجابهة - بعد تحديدها - ولإفادة من ظروفها المناخية وطبيعة سطحها بمختلف تكويناته ومظاهره والظواهر البشرية الموجودة عليه من قلاع وحصون وما شابه ذلك ، يعد أمراً أساسياً لبيان الجوانب أو المزايا العسكرية التعبوية للمنطقة وتقدير الموقف العسكري في ضوء ذلك ، ويكشف لنا مثل هذا التحليل آثار هذه الظروف على العمليات التعبوية والاستحضارات التي تسبق المعركة كالاستطلاع والتحشد والتعبئة المادية والمعنوية - والفعاليات الحربية التي ستجري أثناء صفحات القتال ومناطق الحماية والاستتار لكل نوع من الوحدات العاملة وعوائق الحركة وتوجيهها .

وعلى الرغم من ذلك كله ولما له من أهمية سوقية وتعبوية فإن تحليل البيئة الجغرافية لميدان المجابهة المسلحة لا يكشف كل جوانب الحقيقة ، وذلك لان القائد المسلم عندما يضع خطته الحربية وتفاصيل حركات قواته لا ينظر إلى هذه الظروف إلا من خلال إمكاناته المادية وقدراته البشرية المتمثلة بعدد أفراد جيشه وعدتهم من ناحية ، والخبرة القيادية الميدانية التي تدرب عليها وألفها عند أبناء قومه من ناحية أخرى .

ومع ذلك فقد كانت العوامل الجغرافية من أبرز العوامل المؤثرة في رسم الخطة الحربية الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي وفي تحديد اتجاه سير الفتوح إلى جانب بقية العوامل الأخرى التي ترتبط وتتشابك مع بعضها بدرجات متفاوتة من الأهمية لتسهم سوية في تحقيق النصر أو حسم المعركة مع الخصم ، وهو أمر كان نصب أعين القيادة العربية الإسلامية سواء أكان الخليفة بوصفه القائد العام لقوات المسلمين أم القائد الميداني الذي يدير دفعة الحرب ميدانياً وهو ما سنلاحظه من خلال صفحات هذا البحث .

الحدود الجغرافية لمنطقة المجابهة

ليس من اليسير إعطاء وصف ثابت ودقيق لحدود منطقة الحرب مع الروم وهذا ينطبق تماماً مع ما كان عليه واقع الحال في المدة التي انحصر فيها موضوع البحث ، ذلك

لان هذا الأمر كان محكوماً بعوامل القوة والضعف والنشاط والفتور لطرفي الصراع ، إذ إن اتساع الحدود الإسلامية مع الروم أو انكماشها وقتئذ كان يتناسب طردياً مع عوامل القوة والضعف للطرفين على حد سواء ، ولكن من الممكن إعطاء تحديد عام لتلك المنطقة في العصر الأموي من خلال ما تقدمه شواهد الجغرافية التاريخية .

ان أولى الأقاليم التي شهدت بواكير الحرب بين العرب المسلمين والروم كانت بلاد الشام ، ذلك لان أنظار المسلمين بقيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) اتجهت أول الأمر صوب بلاد الشام ، لسبب أو لآخر^(١) ، ويمكن عد نهر الفرات الحد الشرقي لهذا الأقليم ومنه إلى العريش على أطراف الديار المصرية غرباً ، وعرضه من جبل طيء إلى بحر الروم^(٢) ، وقد أوجز المقدسي الحديث في ذلك بقوله : ((وإن أهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاماً^(٣))) ، في حين تحدث أبو الفدا عن ذلك بتفصيل أكثر بقوله إن حد الشام : ((من جهة الجنوب حد يمتد من أول رفح التي في أول الجفار بين مصر والشام ... إلى ما بين الشوبك وآيلة من البلقاء وحده من الشرق البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلمية إلى مشاريق حلب إلى بالس وحده من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى سيميساط إلى حصن منصور إلى بهسنا إلى مرعش إلى بلاد سبيس إلى طرسوس إلى بحر الروم ، وحده من الغرب من طرسوس المذكورة آخذاً على ساحل البحر الرومي إلى رفح المتقدمة^(٤))) .

وبتواصل العمليات الحربية ضد الروم البيزنطيين على وفق ضرورات حركة التحرير الإسلامي اتسعت جبهة المجابهة ، لتشمل أقليم الجزيرة وما يليها ، ذلك الإقليم الذي حصل شبه إجماع لدى الجغرافيين المسلمين على تعيين حدوده الشرقية والغربية ،

(١) ينظر الفصل الثاني من هذا البحث ، ص

(٢) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (مصر ١٩٦٦ م) ، ج ١ ، ص ١٦٠-١٦١ .

(٣) المقدسي ، محمد احمد المقدسي (ت ٢٨٧ هـ) ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وضع مقدمته وهوامشه محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت د . ت) ، ص ١٣٤ .

(٤) أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد ابو الفدا (ت ٧٣٢ هـ) ، تقويم البلدان ، مطبعة دار الطباعة السلطانية ، (باريس ١٨٤٠ م) ، ص ٢٢٥ ، ينظر أيضاً : الاصطخري ، ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت ٣٤٦ هـ) ، المسالك والممالك ، تحقيق : محمد صابر عبد العال الحيني ، وزارة الإرشاد القومي ، (مصر ١٩٦١ م) ، ص ٤٣ ، ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي ، (بيروت د . ت) ، ج ٥ ، ص ١١٧-١١٨ .

لسيرها مع مجرى نهري دجلة والفرات اللذين عُدَّا تاريخياً حدّاً فاصلاً بين الشام غرباً وإقليمي أذربيجان والجلال وأرمينية شرقاً وشمالاً ، أما حدوده الجنوبية فتنتهي عند مدينة تكريت على نهر دجلة شرقاً وعند هيت على الفرات غرباً ، وعليه فإن الخط الوهمي الواصل بين هيت على الفرات وتكريت على دجلة يمثل الحد الفاصل بين إقليم الجزيرة شمالاً والعراق جنوباً^(١) ، أما حدود الإقليم الشمالية فقد بيّن ابن حوقل قسماً منها بإشارته إلى أنه ما كان غرب آمد من أرمينية ثم من آمد إلى سميساط ثم ينتهي الحد الشمالي إلى مخرج ماء الفرات من حيث ابتداءه من بلاد الروم بعدما يجتاز ملطية^(٢) .

وكان إقليم أرمينية جزءاً من منطقة التماس الحربي مع الروم ، ذلك الإقليم الذي أفادت عنه المصادر البلدانية الإسلامية بمعلومات مهمة رغم تباينها ، ومع ذلك فهي تعطي صورة تقرب من الواقع لحدود ذلك الإقليم ، ويبدو أن سبب ذلك الاختلاف هو التغيرات الجبهوية المستمرة جرّاء الحروب التي كانت متواصلة بين الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين بغية فرض سيادة أحد الخصمين المتنازعين عليه^(٣) .

وعلى الرغم من ذلك فإن أرمينية تشكل أقليماً رئيساً في منطقة القوقاز فقد اعتاد القدماء أن يفرقوا بين أرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى^(٤) ، إذ كانت أرمينية الكبرى هي التي تمتد من أعالي الفرات غرباً حتى ملتقى نهري الكور (Kur) والرس (Araxes) قبيل مصبيهما في بحر قزوين شرقاً ومن دجلة وجزيرة ابن عمر جنوباً وحتى تفليس على نهر الكور شمالاً ، أما اسم أرمينية الصغرى فقد كان يطلق على البلاد الأرمينية الواقعة غرب نهر الفرات ، التي جعلت منها جغرافيتها وتاريخها مجموعة ظاهرة المعالم عن أرمينية الكبرى^(١) .

(١) محمد جاسم المشهداني ، الجزيرة الفراتية والموصل دراسة في التاريخ السياسي والإداري ١٢٧-٢١٨ هـ ، ٧٤٤ - ٨٣٣ م ، دار الرسالة للطباعة ، (بغداد ١٩٧٧ م) ، ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) ابن حوقل ، محمد بن علي بن حوقل (ت ٣٥٦ هـ) ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت ١٩٧٩ م) ، ص ١٨٩ ، الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٢ .

(٣) عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين ٦٥٣ - ١٠٦٤ م / ٣٣ - ٤٥٧ هـ ، ط ١ ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، (الكويت ١٩٨٩ م) ، ص ٣١-٤٤ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ج ١ ، ص ١٩١ .

(٤) ينظر خريطة رقم (١)

(١) عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية ، ص ١٧ .

وقد أشار ابن الفقيه إلى أن حدود هذا الأقليم تمتد من مدينة بردعة إلى مدينة باب الأبواب شرقاً ويقطعها جبل القبق وما يحوي هذا الجبل من الممالك كمملكة السريير واللان واللكز من جهة الشمال وتحده من جهة الغرب بلاد الروم^(٢) . ومن جهة الجنوب يحده بلاد العراق وبعض حدود اقليم الجزيرة على رأي الاصطخري^(٣)

أما بلاد الروم فإنها تعد أكثر الأقاليم التي اختص بها موضوع البحث أهمية من النواحي الجغرافية والسوقية والتعبوية ، وذلك لأن أرضها كانت الميدان الرئيس للحرب بين العرب المسلمين والروم في العصر الأموي ، بل في العصر العباسي فيما بعد .

وقد سمى العرب المسلمون أقاليم الدولة البيزنطية عموماً باسم ((بلاد الروم)) و حتى البحر المتوسط أسموه بحر الروم بسبب الهيمنة البحرية الرومية عليه ، ثم اختصر لفظ بلاد الروم إلى ((الروم)) فقط ، وصار اللفظ الأخير يطلق على أقرب الأقاليم النصرانية من دار الإسلام ، ثم تحول ليطلق على آسيا الصغرى تلك البلاد التي أصبحت تحت السيادة الإسلامية بنهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بسيطرة السلاجقة عليها^(٤) .

تمثلت الحدود الفاصلة بين دار الإسلام وبلاد الروم في العصر الأموي والعصر العباسي من بعده بسلسلتي جبال طوروس وطوروس الداخلية Anti Taurus (اللكام) وكان يعين هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع يعرف بالثغور^(٥) ، التي كانت معروفة لدى المسلمين منذ العصر الراشدي وتحديداً في عهد الخليفتين عمر بن خطاب (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٣ م) وعثمان بن عفان (٢٣ - ٣٦ هـ / ٦٤٣ - ٦٥٦ م) (رضي الله عنهما)^(١) . وهذه الثغور تمتد من ملطية على الفرات إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط - بحر الروم^(٢) - ، وقد أشار ابن حوقل إلى ذلك في حديثه

(٢) ابن الفقيه ، احمد محمد بن إسحاق (المعروف بابن الفقيه) (ت ٢٩٠ هـ) ، كتاب البلدان ، تحقيق : يوسف الهادي ، ط ١ ، عالم الكتب ، (بيروت ١٩٩٦ م) ، ص ٥٨٣ ، ينظر أيضا : الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ١٨١ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٢٨٥ - ٢٩٦ .

(٣) المسالك والممالك ، ص ١٠٨ .

(٤) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، نقله إلى العربية : بشير فرنسيس كوركيس عواد ، مطبعة الرابطة ، (بغداد ١٩٥٤ م) ، ص ١٥٩ .

(٥) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٠ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(١) البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان ، منشورات مكتبة الهلال ، (بيروت ١٩٨٨ م) ، ص ١٦٤ ؛ بن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص ١٨٣ .

(٢) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٠ .

عن ثغر طرسوس بقوله : ((وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين)) ويقصد بهما دار الإسلام ودار الحرب بلاد الروم^(٣) ، وقد بين ياقوت الحموي ، حدود بلاد الروم بتفصيل أكثر بقوله : ((وأما حدود الروم فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر ورُسّ وهم الروس وجنوبهم الشام والإسكندرية ومغاربهم البحر والأندلس وكانت الرقة والشامات كلها تعد في حدود الروم أيام ألا كاسرة وكانت دار الملك انطاكية إلى أن نفاهم المسلمون إلى أقصى بلادهم^(٤))) .

وكان البحر المتوسط - بحر الروم - وسواحلها وجزره جزءاً مهماً من ميدان الحرب بين الطرفين في العصر الأموي وما تلاه ، وقد قدمت المصادر الجغرافية والبلدانية وصفاً لحدوده وجزره يمكن ان يغني الباحث في هذا الشأن ، فقد قال عنه الاصطخري : ((واما بحر الروم فانه خليج من البحر المحيط بين الأندلس وبين البصرة من بلاد طنجة وبين طنجة وبين جزيرة جبل طارق من أرض الأندلس عرضه إثنا عشر ميلاً ثم يتسع ويعرض فيمتد على سواحل المغرب فيما يلي شرقي هذا البحر حتى ينتهي إلى أرض مصر ويمتد على مصر حتى ينتهي إلى أرض الشام ممتداً عليها ، ثم ينعطف بناحية الثغور فيدور على بلد الروم من انطاكية وما قاربها ثم يصير غربي البحر إلى خليج القسطنطينية ويعبره ثم يمتد على سواحل أثينا ثم على سواحل رومية على قرب إفرنجة ، فيصير البحر حينئذ جنوبياً ويكون على ساحله إفرنجة إلى أن يتصل بطرطوشه من بلاد الأندلس^(٥))) .

وقد ضم بحر الروم مجموعة من الجزر التي تمتعت بأهمية سوقية وتعبوية وكان لها دور كبير في مجرى الصدام المسلح بين العرب والبيزنطيين منذ العصر الراشدي وفيما

(٣) صورة الأرض ، ص ١٦٨ ، ينظر أيضاً : القلقشندي ، احمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، شرحه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٧ م) ، ج ٤ ، ص ١٣٨ ، لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٤ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ . وذكر لسترنج أيضاً ان نهري ساردس و بيرامس - وهما من انهار بلاد الروم - اللذين أطلق العرب عليهما اسم نهر سيحان وجيجان كانا في صدر الإسلام حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم . بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٣ .

(٥) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٠-٥١ ، ينظر أيضاً : المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) ، التنبيه والإشراف ، منشورات مكتبة الهلال ، (بيروت ١٩٨١ م) ، ص ص ٦٦ -

بعد في العصر الأموي ، لاسيما قبرص وارواد ورودس واقريطش (كريت) وصقلية وغيرها من الجزر الأخرى^(١) .

وشمل ميدان الحرب مع الروم ما احتله الأخيرون من أراضي المغرب العربي ، ومصطلح المغرب يقصد به ((كل الأقاليم الواقعة غرب مصر التي تشمل شمال القارة الأفريقية وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث : (برقة وطرابلس وفزان) وتونس والجزائر بصحرائها المترامية الى تخوم السودان وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر^(٢))) وقد قدمت المصادر البدائية الإسلامية وصفاً لحدود هذا الإقليم لا يتعدى ما تم ذكره إلا في بعض المسميات التاريخية^(٣) ، وعلى العموم فقد تنوعت تضاريس هذا الإقليم وأنماطه المناخية كبقية الأقاليم الأخرى ، مما انعكست آثار ذلك على الفعاليات العسكرية الإسلامية هناك ، إذ واجه المسلمون صعوبات جمّة استغرقت منهم وقتاً طويلاً أمتد قرابة سبعة عقود من الزمن ، خلافاً لما كان عليه الحال عند تحرير كل من الشام والعراق ومصر التي حررت بزمن قياسي يقرب من عشر سنين .

المظاهر الطبيعية والبيئة المناخية في ميدان المجابهة

تنوعت مظاهر السطح وأشكاله والمناخ وأنماطه في منطقة المجابهة ، بحكم سعة المساحة وطول الحدود ، وهذا ما انعكست آثاره سلباً أو إيجاباً على أساليب الحرب ووسائلها على طول خط التماس ، وبما إن كلاً من بلاد الشام ومصر قد تم تحريرهما خلال العصر الراشدي ، لذا ستقتصر هذه الدراسة وهذا التحليل الجغرافي على أهم الميادين التي شهدت الحرب بين الطرفين في العصر الأموي ، وهي بلاد الروم وما يطل عليها من ثغور المسلمين – الشامية والجزيرية – وأرمينية إضافة إلى بلاد المغرب العربي – شمال أفريقية

(١) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٠٦ - ٢١٢ . عن جهود المسلمين لفتح هذه الجزر وأهميتها الحربية ينظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ ، قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ) ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق : د. محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد (بغداد ١٩٨١) ، ص ٣٠٦ ، ٣٥١ .

(٢) محمود شيت خطاب ، قادة الفتح الإسلامي المغرب العربي ، ط ١ ، دار الفكر ، ١٩٧٣ م ، ج ١ ، ص ١٤ ؛ عبد العزيز بن عبد الله ، جغرافية المغرب ، ط ٢ ، (الرباط ١٩٥٦ م) ، ص ٤ .

(٣) ينظر : اليقوبي ، احمد بن أبي يعقوب بن واضح اليقوبي (ت ٢٨٤ هـ) ، البلدان ، مطبعة بريل ، (ليدن ١٨٩١) ص ٣٢٠-٣٠٣ ؛ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٣ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٨٤-١٨٨ ، ج ٧ ، ص ٢٩١ .

– مضافاً إليها البحر المتوسط – بحر الروم – وجزره وسواحله المطلة على ميدان المجابهة

كانت بلاد الروم والثغور الإسلامية – الشامية الجزرية – المتاخمة لها الميدان الرئيس والاهم من جبهة الصدام المسلح مع الروم ، التي تمثلت بهضبة الأناضول وارضى آسيا الصغرى التي أتصفت بتنوع ملحوظ في التضاريس الجغرافية والأنماط المناخية ، مما انعكست آثاره دون شك على توزيع السكان واستيطانهم وتنوع نشاطاتهم الاقتصادية وتعدد الطرق والمسالك هناك عبر التاريخ ، وكان لها ابلغ الأثر على أساليب المجابهة الحربية بين الطرفين .

وفيما يتعلق بالجبال فان النطاق الجبلي الذي يحيط بهضبة الأناضول ويفصل بينها وبين ساحل البحر الأسود – بحر بنطس – يعرف باسم جبال بنطس (Pontos) وهي سلاسل جبلية التوائية تمتد أمتداداً عاماً من الغرب إلى الشرق ويفصل بينها أودية عميقة مكونة من ثغرات وتسير موازية لساحل البحر الأسود وقد تتجه بعض الإمدادات كالأسنة باتجاه البحر المذكور ، ويتراوح ارتفاع هذه السلاسل ما بين ٢٥٠٠ – ٣٠٠٠ م^(١) .

أما سلسلة جبال طوروس وطوروس الداخلية Anti Taurus في الجنوب فإنها أقل تضرساً من الأولى ، ومع ذلك فإنها تبدو أكثر ارتفاعاً ، إذ يتراوح ارتفاعها بين (٣٠٠٠ – ٤٠٠٠ م) عن مستوى سطح البحر وهي أشبه بالحائط الذي يفصل الجنوب عن الأجزاء الداخلية ، أي بلاد الروم عن دار الإسلام^(٢) ، وتبدو أكثر اتصالاً وكأنها على محور عام من الغرب إلى الشرق مترابطة أوصالها إلى حد كبير ، وتتحد هذه الجبال بشدة نحو السهل الساحلي لتقطع أوصاله ايضاً ، ومن ثم تكون في إطار جيوب معزولة ومتفرقة منها الجيوب التي تحتوي سهول انطاكية^(١) ، وهي ثاني منطقة سهلية بعد سهول كيليكية على

^(١) صلاح الدين الشامي وزين الدين عبد المقصود ، جغرافية العالم الإسلامي ، منشأة المعارف ، (الإسكندرية ١٩٨٢ م) ، ص ٥٤٣ ؛ دولت صادق وآخرون ، جغرافية العالم دراسة إقليمية ، مكتبة الانجلو المصرية ، (مصر ٢٠٠٢ م) ، ج ١ ، ص ٤٢ ؛ هاشم خضير الجنابي ، جغرافية أوراسيا دراسة في الجغرافية العامة الإقليمية ، جامعة الموصل ، (الموصل ١٩٨٧ م) ، ص ٢٣٥ .

^(٢) صلاح الدين الشامي وزين الدين عبد المقصود ، جغرافية العالم الإسلامي ، ص ٥٤٤ ، دولت صادق ، جغرافية العالم ، ص ٤٢ ، ابراهيم شريف ، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي ، مطبعة شفيق ، (بغداد د.ت) ، ج ١ ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

^(١) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٠ .

ساحل هضبة الأناضول المشرف على البحر المتوسط^(٢) ، وتلتقي سلاسل جبال بنطس وطوروس في أقصى الشرق من بلاد الروم وتضيّق الخناق على القطاع الشرقي من هضبة الأناضول ويؤدي هذا التجمع والالتقاء إلى تكوين كتلة جبلية ضخمة تكون شديدة التضرس والتعقيد تتداخل مع إقليم أرمينية لتكوّن ما يعرف بعقدة أرمينية^(٣) .

وتعد هضبة الأناضول أبرز التضاريس الجغرافية في بلاد الروم ، إذ يشكل القسم الأوسط منها أوسع أجزائها وهو أشبه بحوض تكتنفه سلاسل جبلية شاهقة من جهة الشمال والجنوب والشرق ، أما من جهة الغرب فإن الجبال التي تكتنفه قليلة الارتفاع ، يتراوح ارتفاع الهضبة ما بين (٨٠٠ م) في أجزائها الغربية و (٢٠٠ م) في الأجزاء الشرقية وتتدرج تدريجياً صوب منخفض في الوسط تقع فيه بعض البحيرات المالحة^(٤) .

ويتضمن القسم الأوسط من هضبة الأناضول بعض التلال التي تبرز فوق مستواها وتتحصر ما بين هذه التلال بعض البحيرات وينحدر القسم الغربي من الهضبة انحداراً عاماً نحو الغرب صوب بحر إيجه وتبرز فيه نطاقات من التلال تحصر بينها ودياناً تجري فيها أنهار يصب بعضها في بحر إيجه وتتبع الأنهار من المرتفعات المحيطة بالهضبة بعضها يسير مسافات طويلة ثم يصب في البحر الأسود – بحر بنطس -^(٥) .

فضلاً عما ذكر سابقاً فإنه تتحدر من غربي القسم الشرقي للهضبة بعض المجاري المائية التي ينصرف بعضها إلى أعالي الفرات وبعضها الآخر يتجه نحو الأراضي الشامية كنهـر القباـقب الذي يصب في الفرات والمعروف عند الروم باسم ملاس (Malas^(٦)) ونهر الذهب ونهر قويق ونهر عفرين والنهر الأسود والأخيران رافدان لنهر العاصي وينصرف نهرا ساردس وبيرامس (سيحان وجيحان) في الركن الشمالي الشرقي للبحر المتوسط – بحر الروم – عند رأس الاسكندرونة وقد أسهم هذان النهران في تكوين سهل أضنه (أذنة) ومرسين (Mersin) مرعش وهي المعروفة عبر التاريخ بالسهول الكيليكية (Cilician^(٧)) ،

(٢) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، منشأة المعارف ، (الاسكندرية ١٩٨٥ م) ، ص ٦٢٩ ؛ هاشم خضير الجنابي ، جغرافية اوراسيا ، ص ٢٣٦ .

(٣) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، ص ٦٢٩ ، هاشم خضير الجنابي ، جغرافية اوراسيا ، ص ٢٣٦ .

(٤) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، ص ٦٢٨ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٦٢٩ .

(٦) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٥٢ .

(٧) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، ص ٦٣٠ – ٦٣١ ؛ هاشم خضير الجنابي ، جغرافية اوراسيا ، ص ٢٣٧ .

تلك السهول الخصبة التي شهدت استيطان السكان فيها منذ عصور تاريخية ترجع إلى ما بين القرنين الثاني عشر والتاسع قبل الميلاد وربما أسبق من ذلك وكانت محل نزاع بين الأقوام لغرض فرض السيطرة عليها^(٢)، وهذا يعود بلا ريب إلى الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به هذه السهول لخصوبة أرضها وتنوع مصادر الري فيها من أمطار وأنهار جارية ، فضلاً عن وجود المعادن في تربتها^(٣) ، مما دفع الآشوريين منذ أقدم العصور إلى إقامة العديد من المراكز التجارية في هذه الأصقاع لاستيراد الأخشاب والمعادن ونقلها إلى بلادهم^(٤)، بل إن هذه السهول الفسيحة والخصبة كانت محل إعجاب ودهشة من هاجم هذه الأصقاع ، حيث وقف الاسكندر الكبير المقدوني وجنده مبهورين أمام هذه السهول ذات التربة الحمراء التي تتخللها مناطق تكسوها الخضرة في أثناء زحفهم صوب الشرق بحدود عامي ٣٣٤ - ٣٣٣ ق.م^(٥) .

وارتبطت هضبة الأناضول بما جاورها من الأقاليم بشبكة من الطرق تفاوتت أهميتها التاريخية تبعاً لأهمية المناطق التي تؤدي إليها تلك الطرق من النواحي الاقتصادية والعسكرية من جهة ولتوفر العوامل المشجعة من ماء ومراعي من جهة أخرى ، لا سيما إذا ما علمنا أن النقل آنذاك كان يتم باستخدام الحيوانات ، فانفتاح هضبة الأناضول من جهتها الغربية التي ينحدر سطحها إليها قد جعلها معبراً بين آسيا وأوروبا وجعلها أيضاً ميداناً للصراع بين شعوب الشرق والغرب لفرض السيطرة عليها عبر التاريخ^(٦) ، فاتصالاتها الغربية بعد أن تتجمع من وسط أوروبا وشرقها خلال ممرات شبه جزيرة البلقان تنتقل عبر المضائق أو نطاقات الجزر في بحر ايجه ، وهما أهم حلقات الاتصال بين الساحل الأوربي والساحل الآسيوي، ويمكن أيضاً أن تنتقل بعض هذه الاتصالات عبر البحر الأسود وعلى سواحله الجنوبية ، وخلال بعض الممرات في الحافة الشمالية لهذه الهضبة إلى داخلها ، وقد

(٢) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ايران والأناضول ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، (بغداد د.ت) ، ص ص ٣٣٥ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٤) هاري ساكز ، قوة آشور ، ترجمة : د. عامر سليمان ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، (بغداد ١٩٩٩ م) ، ص ص ٥١ - ٥٣ ؛ ينظر أيضاً سامي سعيد الاحمد ورضا الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٤١٦ .

(٥) هارولد لامب ، الاسكندر المقدوني ، ترجمة : د. عبد الجبار المطلبي ومحمد ناصر الصانع ، مراجعة : د. محمود أمين ، المكتبة الأهلية ، (بغداد ١٩٦٥ م) ، ص ١٤٩ ؛ سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٦) سامي سعيد الاحمد ورضا الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

كانت وديان الأنهار التي تتصرف مياهها باتجاه الشمال الغربي كنهر قزل أرموق وبعض روافد نهر يشيل وغيرها تعد مسالك جيدة^(١) للمرور خلال هذا الإقليم نحو البحر الأسود عبر نطاق بنطس ومع هذا فهي في الواقع ليست افضل المسالك بسبب طول وديانها وتعرجها التي تفصل بعض سلاسل هذا النطاق عن بعضها الآخر ، وتوجد ثغرات في الأقسام الشرقية من سلاسل بنطس تفصل بين بعض المناطق داخل الهضبة وبين بعض مناطق أخرى على ساحل البحر الأسود مثل هذه الممرات تفضل للاتصالات المنتظمة السلوك بين الداخل والساحل^(٢).

علاوة على ما تقدم ترتبط أقاليم بلاد الروم فيما بينها ومع ما جاورها من الأقاليم بشبكة من الطرق أقل أهمية مما ذكر سابقا^(٣) ، إلا أن أهم الطرق التي كان لها فيها شأن كبير في تاريخ هذه البلاد وما جاورها من الأقاليم على مر التاريخ هو الطريق الذي يقطع سلسلة جبال طوروس وطوروس الداخلية مفضياً إلى سهول كيليكية الذي عرف باسم درب الأبواب القيلقية أو (بوابات كيليكية^(٤)) ، وقد عملت الانكسارات في هذه السلسلة على إحداث أكثر من ثغرة تسمح بالمرور خلالها ، إلا أن هذا الممر بالذات هو الأسهل اجتيازاً من بقية الدروب^(٥) ، وقد أسمته المصادر التاريخية الإسلامية بدرب بغراس أو درب اللكام^(٦) ، وسمي أيضاً ممر بيلان^(٧) ، نسبة إلى بلدة بيلان بجبل اللكام (أمانوس) التي يمر بها هذا الطريق ، وهناك شبه إجماع على أن ارتفاع هذا الممر الجبلي يتراوح بين ٦٦٦ – ٦٨٦ م^(٨) ، وتقطع جبال طوروس مروراً بجبل اللكام دروب أخرى منها ممران يسيران من سفح جبل العمق ومن سهل إنطاكية إلى الاسكندرونة^(٩) ، ودرب الحدث الذي نفذ منه المسلمون إلى داخل بلاد الروم منذ وقت مبكر وهو في الشمال الشرقي وكان من

(١) سامي سعيد الاحمد ورضا الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٢) ابراهيم شريف ، الموقع الجغرافي للعراق ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٤) Ramsay , W . M , Historical Geography of Asia Minor , (New York 1972) , pp , 197 – 199 .

(٥) ابراهيم شريف ، الموقع الجغرافي للعراق ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٤ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠٥ .

(٧) هيوار Huart ، مادة بيلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها إلى العربية : محمد ثابت الفندي وآخرون ،

(طهران د.ت.) ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ – ٤٢٧ .

(٨) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٢٥ .

(٩) هيوار Huart ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٥ ؛ Ramsay , Opcit , p 349 – 356 .

مرعش باتجاه الشمال إلى عر بسوس (ابلستا البيزنطية Ablastha) وكان يحمي هذا الدرب حصن الحدث (Adata^(٢)) ، الذي فتح أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من قبل القائد حبيب بن مسلمة الفهري^(٣) ، وقد سماه المسلمون درب السلامة تطيراً لأنهم أصيبوا به ، ولكن هذه الدروب ماهي إلا طرق ضيقة لاتقارن بدرب الأبواب القليلية لكونه ميسراً ويصلح لسير المركبات ، لذا فقد سلكته جيوش كورث الاخميني الفارسي في أثناء حروبه ضد الإغريق^(٤) ، وعبرته جيوش الأسكندر المقدوني في طريقها إلى النصر على الاخمينيين في افسوس عام ٣٣٣ ق . م^(٥) .

وقد حظي هذا الطريق باهتمام الأباطرة الرومان – الذين قاموا بإنشاء عدد من الطرق الأخرى إضافة إليه^(٦) ، ومن تلاهم في العهد البيزنطي ، وقد قام البروفيسور رامسي^(٧) (Ramsay) بدراسة هذا الطريق وتتبعه دراسة تفصيلية أثناء بحثه في جغرافية آسيا الصغرى ، وقد اسماه الطريق العسكري وأشار إلى ان إنشاءه تم في عهد قسطنطين ، ففي زحفه من العاصمة القسطنطينية عبر هذا الطريق ، كان يجد تشكيلات عسكرية مجهزة من قبل رعاياه في هذا الإقليم بانتظاره على نقاط متفرقة على طول الطريق ، وهذه النقاط كانت عبارة عن معسكرات كبيرة تشبه المعسكرات التي سماها الرومان القدمات ستاتيفا (Stativa) ، وقد تم تأمينه بإقامة العديد من القلاع الحصينة على مسافات متقطعة منه وهي التي عادةً ما تكون على أجراف صخرية عالية ذات مميزات دفاعية طبيعية تمكنها من الصمود أمام أي حصار يقع عليها ومن السيطرة على الطريق ، وقد أصبحت هذه القلاع المحصنة نواة لمدن جديدة ازدادت أهميتها في العصر البيزنطي على عكس المدن الأخرى ذات المميزات الدفاعية المتواضعة فقد هجرت وتقلصت إلى مجرد قرى صغيرة ولأهمية هذا الطريق الحيوي بالنسبة للروم وضعوا من يقوم بحماية معابره الرئيسية لاسيما معابر طوروس التي أوكلت إلى ما يسمى بحامي المعابر (Kleisourarch) في النظام البيزنطي للدفاع عن الحدود^(٨) .

(٢) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٦ .

(٣) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٠ .

(٤) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٥) هارولد لامب ، الاسكندر المقدوني ، ص ١٤٩ – ١٥١ .

(٦) سامي سعيد ألا حمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٤١٣ ، ٤١٨ – ٤٢١ .

(٧) Ramsay , Opcit , p 199 – 200 , 349 – 356 .

(٨) RAMSAY, OPCIT, PP199-200, 349-356 Ostrogorsky , George , History of the Byzantine State , Translated by Joan Hussey , (Oxford 1968) , P 207 .

وقد حظيت بلاد الروم باهتمام الملوك الذين حاولوا فرض سيطرتهم عليها - من الفرس وسواهم - وهي ذات التضاريس الصعبة والمناخ المتنوع القاسي ، إذ أقام الملك داريوس الفارسي شبكة طرق في آسيا الصغرى منها الطريق الملكي الذي يبدأ من افسوس إلى الأبواب الكيليكية باتجاه الشرق وله في ليديا وفريجيا عشرون محطة فضلاً عن عدد من الطرق الأخرى التي ذكرتها المصادر التاريخية^(٢) .

أما أهم المدن ومراكز التجمع السكاني في بلاد الروم التي كان لها أثر مهم في تاريخ هذا الإقليم فقد أقيمت بالقرب من الطرق الرئيسية المارة عبر السهول والأراضي الخصبة ذات الأنهار التي اتخذت مجاريها ووديانها ممرات ومسالك جيدة وهي حقيقة طالما أشارت إليها المصادر^(٣) ، فعلى سبيل المثال إن مناطق كيليكية الواقعة جنوب شرق آسيا الصغرى التي يحدها البحر الأبيض المتوسط - بحر الروم - من الجنوب ، وجبال اللكام (أمانوس) من الشرق ، وطوروس من الشمال قد شهدت استيطان جماعات يونانية كونت لها كياناً سياسياً منذ العصور الهيلينية الأولى خلال الألف الأول ق . م والعصر الهيليني اللاحق لتحكمها بأهم عقد المواصلات بين آسيا الصغرى وسوريه عن طريق الأبواب الكليكية ، ولشهرتها بالمنتوجات الزراعية لاسيما العنب والكتان^(٤) ، وقد ظلت محتفظة بكيانها المستقل حتى الاحتلال الفارسي لهذه البلاد بحدود عام ٥٤٦ ق . م .

وفي العهد الروماني والبيزنطي (٣٤ ق . م - ٣٢٤ م وما تلاها) شيدت عدد من المدن كما ذكر سابقا على طول الطرق المهمة في عموم بلاد الروم وعلى معابر الأنهر ، كالمصيصة وأذنة اللتين شيدهما الروم وتناوبوا السيادة عليهما مع العرب عبر تاريخ صراعهم الطويل معهم وكانتا من الثغور المهمة بين الطرفين ، فالمصيصة (Mopsuestia) أقيمت على نهر جيحان (بيرامس) على مرتفع من الأرض وأحييت بحصن أعيد بناؤه مجدداً على أساسه القديم من المسلمين في العصر الأموي ، وأضافوا إليها على الضفة المقابلة للنهر ربض أو مدينة كفربيا التي ارتبطت بالمصيصة بقنطرة من الحجارة على نهر جيحان^(١) .

(٢) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٣٥٣ - ٣٧٦ .

(٣) ينظر . RAMSAY, OPCIT PP, 349 - 356

(٤) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٥ ؛ الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ ، لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

أما أذنه التي تقرب من المصيصة في المسافة بينها وبين طرسوس فقد شيدها الروم على ضفة نهر سيحان (سارس) وأنشأوا لها هي الأخرى قنطرة حجارة وصفها البلدانون المسلمون لاحقاً بأنها عجيبة البناء طويلة جداً^(٢) ترقى في تاريخ إنشائها إلى عهد جستنيان (Justinian) ولم تزل ترمم عبر العصور الإسلامية لأهميتها الاستراتيجية ، وأذنه من المدن الرومية ذات الأراضي الخصبة العامرة والمأهولة وواحدة من عقد المواصلات المهمة أشادت بها المصادر الجغرافية التاريخية الإسلامية^(٣) ، ولم تزل مثل هذه المدن وسواها المقامة على حافات الطرق في الأقاليم الغنية ذات المواقع الجغرافية المهمة مراكز استقطاب للسكن ومحلات نزاع كان لها دور بارز في تاريخ الصدامات الحربية على أرض الروم^(٤) .

أما مناخ بلاد الروم فإنه يمتاز بنمطين بارزين هما مناخ السواحل^(٥) ، التي تتميز بمناخ البحر المتوسط وهي دافئة في فصل الشتاء وأدفؤها سواحل البحر المتوسط إذ تبلغ درجة الحرارة شتاءً نحو (١٠ مئوية) بينما تنخفض في سواحل البحر الأسود إلى معدل قدره (٥ مئوية) ، وتعرض السواحل الشمالية لرياح باردة تهب من داخل سهوب روسيا ، وتعرض سواحل بحر ايجة هي الأخرى لرياح شديدة البرودة شتاءً تأتيها من داخل هضبة الأناضول وتسبب تجمد مياه الأنهار ، وتكون حرارة السواحل معتدلة صيفاً وأكثرها اعتدالاً منطقة الساحل الشمالي ، أما من ناحية الأمطار فنجد سواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل بحر ايجة تتميز بالمطر الشتوي واغزرها يسقط في الخريف والشتاء^(٦) .

أما النمط المناخي الثاني فهو مناخ الهضبة الذي يتسم بالقارية الشديدة والتطرف ، وتنخفض درجة الحرارة في فصل الشتاء حتى تقترب من درجة التجمد ثم ترتفع صيفاً إلى أكثر من (٧٢م) وترتد حدة القارية كلما أوغلنا في قلب الهضبة وباتجاه كتلة أرمينية فمنطقة أرضروم (Erzurum) تنخفض درجات الحرارة خلال شهور الشتاء الستة دون

(٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٤) مثل أنقرة وعمورية في إقليم فيريجيا : ينظر : سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ٣٢٦ - ٣٥٢ .

(٥) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، ص ٦٣١ - ٦٣٣ ؛ هاشم خضير الجناحي ، جغرافية اوراسيا ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٦) جودة حسنين جودة ، جغرافية آسيا الإقليمية ، ص ٦٣٢ - ٦٣٣ ، صلاح الدين الشامي وزين الدين عبد المقصود ، جغرافية العالم الإسلامي ، ص ٥٤٥ - ٥٤٦ .

درجة الانجماد بكثير وتغطي الثلوج الأودية خلال خمسة شهور من السنة ويكون التساقط قليلاً إلى حدٍ ما إذ يقل على سطح الهضبة عن (٢٥سم) لا سيما في المساحات التي في ظل الرياح الممطرة القادمة من البحار المجاورة^(١) .

أما إقليم أرمينية فإنه يتألف من هضبة ترتفع تدريجياً من المنخفض الأوسط الذي يجري فيه نهر الرس إلى جهة الغرب إذ تشكل القسم الشرقي من هضبة الأناضول ويبلغ أوج ارتفاعها عند سهل مدينة أرضروم^(٢) (قالقلا) .

وتتكون هذه الهضبة من مرتفعات جبلية يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر ما بين (١٥٠٠ - ١٨٠٠ م)^(٣) ، وهضاب متعددة أخرى بين السلاسل الجبلية غنية بالمراعي يتراوح ارتفاعها ما بين (٨٠٠ - ٢٠٠٠ م) فوق سطح البحر^(٤) ، ويقطع الأقليم عدة سلاسل جبلية ضخمة تشغل جزءاً كبيراً من مساحته تتميز بوصفها مخروطية الشكل وبعضها فوهات براكين خامدة ويعد جبل ارارات^(٥) (Ararat) في وسط أرمينية أعلى تلك الجبال تعلوه قمتان هما جبلا الحارث والحويرث - كما تسميهما المصادر الإسلامية^(٦) - ذكر الاصطخري^(٧) ان الثلوج دائمة على هذين الجبلين ولا يرتقى الى أعلاهما من الارتفاع وصعوبة المسلك ، ويطل جبل الحارث على مدينة دبيل الواقعة إلى الجنوب منه وراء نهر الرس وهي ((بلد جليل عليه حصن منيع والخير به كثير .. ونهره غزير حف به البساتين ذات ربض عتيق وحصن وثيق^(٨))) ، فتحها حبيب بن مسلمة الفهري في العصر الراشدي

بعد أن أجال الخيول في مرجها وقراها وضرب الحصار عليها^(١) .

واعظم جبال أرمينية جبل القبق الذي يمتد في شمال الإقليم ويتكون من عدة سلاسل تمتد عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بصورة متوازية وعلى الأخص في

(١) صلاح الدين الشامي وزين الدين عبد المقصود ، جغرافية العالم الإسلامي ، ص ٥٤٦ .

(٢) ابراهيم شريف ، جغرافية العراق ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ؛ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٨ - ١٥٠

(٣) أميل بول ، تاريخ أرمينيا ، ترجمة : شكري علاوي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت د.ت) ،

ص ٥ ، ينظر : خريطة رقم (٢) .

(٤) عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية ، ص ١٨ .

(٥) ابراهيم شريف ، جغرافية العراق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ؛ جودة حسنين جودة ، جغرافية أسيا الإقليمية ، ص ٦٢٩

(٦) ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٧) المسالك والممالك ، ص ١٠٨ ؛ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٧ .

(٨) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٨٩ .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٩٨ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٧ .

القسم الغربي منها حيث تمتد إلى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود - بحر بنطس - أما اتجاهها نحو الجنوب الشرقي فيمتد إلى أن يتعامد على بحر قزوين - الجزر - حيث تنتهي على بعد ثلاثة أميال منه ويترك سهلاً ساحلياً بينه وبين البحر^(٢) ، وأما ارتفاعه عن مستوى سطح البحر فهو ما بين (٢٧٠٠ - ٣٦٠٠ م) ويضم قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠ م)^(٣) ، ويقطعه ممران الأول على مدينة باب الأبواب والثاني عن طريق باب اللان^(٤) ، كان لهذه الممرات أهمية سوقية وتعبوية في تاريخ الصراع الحربي على أرض هذا الإقليم ، إذ أقام الفرس الساسانيون حصوناً قوية في هذه الممرات ورتبوا فيها حاميات عسكرية لحفظها ولصد توغل الأقوام المجاورة كالحزر واللان التي كانت تسلكها للإغارة منها على إقليم أرمينية واستخدم المسلمون هذه الممرات بعد الفتح الإسلامي لأرمينية حماية لممتلكاتهم^(٥) .

وتعد أرمينية إقليماً غنياً بالأنهار ففيها عشرات الأنهار التي تتدفق مع سفوح الجبال لتجري عبر السهول ، منها نهر دجلة الذي ينبع من جبال طوروس الواقعة على الحدود الجنوبية وتخرج منابع نهر الفرات منها أيضاً، وتتحد من الهضاب الداخلية ، فضلاً عن ذلك هناك نهر الرس الذي يصب في بحر قزوين ونهر الكر الذي يندفع من الشمال ويلتقي بنهر الرس قبل أن يصب في البحر المذكور^(٦) ، ليكونا إقليم الران في مثلث كبير يقع إلى الغرب من اقترانهما^(٧) ومن أشهر مدنه برذعة قصبة الإقليم التي ذكر المقدسي أن لها نهراً يتخللها ونهر الكر على بعد فرسخين^(٨) ، ونهر ثر ثور على مسافة أقل من فرسخ وهي ((طيبة حسنة كثيرة الفواكه^(٩))) وطنتها ركائب الفتح الإسلامي بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي وضربت الحصار عليها منذ العصر الراشدي^(١٠) ، ومن مدن هذا الإقليم أيضاً تفليس التي وصفها المقدسي بأنها مدينة ((حصينة بقرب الجبال يخترقها نهر الكر وهي جانبان

(٢) ابن رسته ، ابو علي احمد عمر بن رسته ، (ت ٣٠٠ هـ) ، الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريـــــــــــــــــل ، (ليدن ٨٩١ م) ، ص ١٤٨ .

(٣) إبراهيم شريف ، الموقع الجغرافي للعراق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، ينظر أيضاً : ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص ١٤٨ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٩٤ ؛ ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص ١٤٨ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) ينظر : الاصطخري ، المسلك والممالك ، ص ١٧٥ ، ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص ٨٩ - ٩٠ . ينظر : خريطة رقم (٣) .

(٧) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١١ .

(٨) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٨٨ .

(٩) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٨٨ .

(١٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٠٣ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٨ .

بجسر قد بني حيطانه بالحجارة ثم طرح عليها الخشب^(٣))) ، ومن هذا يتبين ان المدن ومراكز الاستيطان في اقليم أرمينية قد أقيمت على مجاري الأنهار في الأقاليم الخصبة ذات الموارد الاقتصادية الجيدة وعلى الطرق المهمة ، مثال آخر على ذلك مدينة بدليس التي أنشئت ((في واد عميق فيه نهران في المدينة يجتمعان وهي جانبان فيها قلعة من حجارة^(٤))) وكذلك مدينة باب الأبواب (دربند) وهي من اجل موانئ بحر قزوين - بحر الخزر - التي كانت ثغراً من ثغور الإسلام في صدر الإسلام والعصر الأموي^(٥) .

وفي الإقليم عدد من البحيرات منها بحيرة وان (Van) ويسمىها العرب بحيرة خلاط ، وبحيرة أرجيش وبحيرة سيفان (Sivan) وبحيرة أرومية (Urumia) في أقصى الجنوب المتاخمة لإقليم أذربيجان^(٦) ، ولم تنزل المناطق الخصبة المحيطة بهذه البحيرات ذات أثر فعّال في تاريخ هذا الإقليم ، إذ أقيمت عليها أقدم الحضارات وشهدت عددا من الصراعات الحربية منها مملكة أرات التي تألفت من اتحاد القبائل الحورية التي عاشت في المرتفعات حول بحيرة Van حيث الظروف ملائمة للرعي والزراعة وشهدت هذه المناطق بحدود الألف الثالث ق.م قيام حضارة مماثلة نشأت أولاً في وديان الأنهار ، وعلى طول الجداول المنسابة من الجبال ، وأخذت تنتشر إلى سفوح الجبال ، مكونة حضارة موحدة تشمل منطقة واسعة لها صلة وثيقة بالحضارة الحورية^(٧) ، وقد دخلت هذه المملكة في حروب طويلة مع الآشوريين في عهد شلمنصر الثالث بحدود القرن الثالث عشر ق.م ومن تلاه من الملوك الآشوريين ، بسبب منافستها إياهم في السيطرة على الطرق التجارية مع الأناضول وسورية والمناطق الرئيسية لانتاج المعادن وتربية الخيول^(٨) ، وقد جعلت تضاريس هذه المناطق الخاضعة لسيادة مملكة أرات من المستحيل اجتياحها في معركة واحدة حاسمة وإخضاعها كلها^(٩) ، وكان هذا التضرس سبباً في اختلاف وصراع عددا من الأجناس البشرية التي استوطنت هذا الإقليم عبر التاريخ ومنهم الفرس والرومان^(١٠) .

(٣) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٥) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٦) عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية ، ص ٢٠ ؛ ينظر خريطة رقم (٣) .

(٧) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق القديم ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٨) هاري ساكز ، قوة آشور ، ص ص ١١٥ ، ١١٩ - ١٢١ ، ١٢٨ - ١٢٩ .

(٩) هاري ساكز ، قوة آشور ، ص ١٣٤ .

(١٠) ينظر : عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية ، ص ص ٢٦ - ٤٤ .

ومن أشهر المدن على ضفاف هذه البحيرات التي فتحها المسلمون أيام الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) مدينة خلاط الواقعة في الطرف الغربي لبحيرة وان وهي من أنزه البلاد ((في سهولة لها بساتين حسنة وعليها حصن .. وبها نهر^(٣))) والبرد فيها قارص شتاءً ويصل بين جانبيها جسر على النهر الذي يخترقها ويطل عليها جبل يدعى (كوه سيبان) الذي لا تفارق الثلوج قمته^(٤) ، وقد فتحت صلحاً على يد حبيب بن مسلمة الفهري (ت ٤٢ هـ) أيام الراشدين^(٥) ، وقد اشتهرت هذه البحيرة بإنتاج نوع من الأسماك يدعى (الطريخ) كان يصطاد ويملح ويحمل إلى كثير من البلدان فيدر أموالاً جمّة^(٦) ، ولم تنزل ثروات هذه البحيرة تستثمر من قبل المسلمين حتى في أيام الأمويين^(٧) .

أما المناخ في إقليم أرمينية فانه بارد قارص بصورة عامة يغلب عليه البرد والجفاف^(٨) ، والثلوج تغطي المرتفعات - كما ذكرنا انفاً - والطقس في المناطق المنخفضة معتدل ، وثمة تباين واضح في مناطق الهضاب التي يستمر الشتاء فيها طوال ثمانية أشهر وبين المناطق المنخفضة التي يعتدل الطقس فيها بصفة عامة ، ولا سيما تلك التي تقع على البحر الأسود شمالاً وحوض الفرات جنوباً^(٩) .

ومما تقدم يمكن القول ان مظاهر السطح والمناخ متنوعة في إقليم أرمينية ففيها الجبال الشاهقة والهضاب ، وتجري في أرضها شبكة كبيرة من الأنهار والجدول إلى جانب عدد من البحيرات التي كانت مناطقها من أغنى المناطق اقتصادياً ، مما انعكست آثار ذلك على تاريخ هذا الإقليم وما حصل فيه من حروب ونزاعات من قبل الأقوام التي حلت به تدفعها إلى ذلك العديد من الدوافع ، وقد أثرت هذه التضاريس في طبيعة الفعاليات العسكرية التعبوية للمسلمين ، لاسيما في الأقاليم التي كانت تحت السيادة الرومية من هذا الإقليم .

أما إقليم المغرب العربي فهو الآخر تنوعت المظاهر الجغرافية فيه من تضاريس ومناخ وهو ((إقليم بهي ، كبير سري ، كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخاء به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة ... قد غاب في الزيتون مدنه ، وبالتين

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٩ .

(٤) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٨ .

(٥) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٦ .

(٦) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٧) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٦ .

(٨) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٣٦ ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩١ .

(٩) عبد الرحمن محمد العبد الغني ، أرمينية ، ص ٢١ .

والكرمات أرضه ، يجري خلالها الأنهار ، ويملاً غيظانها الأشجار ، إلا انه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك^(١)) ، تمتد به جبال أطلس في قلب المغرب من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي في سلسلتين أحدهما شمالية وأخرى جنوبية ، حصرت فيما بينها مساحات من الهضاب والسهول^(٢) الداخلية فضلاً عن السهول الساحلية ، وقد كان لهذه التضاريس المتنوعة أثرها الفعال في قيام المدن ونشوتها واستيطان السكان في هذا الإقليم على مرّ العصور ، إذ لم تتوغل كثيراً إلى الجنوب لوجود صحاري قاحلة صعبة الاختراق ، بل تركزت على ساحل بحر الروم ومناطق المرتفعات التي تلي الشريط الساحلي ، حيث تنوعت الموارد الاقتصادية وانتعشت هناك نتيجة تنوع التضاريس والمناخ^(٣) .

ومن أهم المدن من جهة مصر - في زمن المقدسي^(٤) على اقل تقدير - برقة وهي ((قصبة جليلة عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر في هويّة ، قد أحاط بها تربة حمراء شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار في جباب وهي على جادة مصر)) لها جبالان يقال لاحدهما الشرقي وللآخر الغربي وفيها ((عيون جارية وأشجار وثمار وحصون وآبار للروم قديمة^(٥))) وقد شهدت هذه الأصقاع استيطان السكان على مختلف أجناسهم منذ عهود سبقت الفتح الإسلامي كما هي الحال في اجدابية وبرنيق التين سكنهما البربر والروم^(٦) .

أما طرابلس فهي الأخرى كانت مدينة كبيرة مسورة بسور من الحجارة على ساحل بحر الروم عامرة أهلة بأخلاق من الناس كثيرة الفواكه والألبان والعسل ، شرب أهلها من الآبار ومياه الأمطار^(١) ، وعلى مسافة قريبة منها جبال سكنتها بعض القبائل في ضياع

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، (بيروت ١٩٨١م) ، ج ٢ ، ص ١٢٩-١٣٠ .

(٣) ينظر خريطة رقم (٥٤) .

(٤) أحسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .

(٥) ابن رسته ، الأعلام النفسية ، ص ٣٤٦ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .

وقرى ومزارع وعمارات كثيرة^(٢) ، وقد وطئت هذه الأصقاع ركائب المقاتلة المسلمين في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)^(٣) .

وإذا ما اتجهنا غرباً مع خط سير الفتوحات الإسلامية متفحصين المظاهر الجغرافية المناخية لهذا الإقليم واثراً في تاريخ الصدام المسلح بين العرب والبيزنطيين ، تبين أن أغلب المدن المقامة قريبة من الساحل مسورة تعتمد في شربها على الآبار والجباب وما تساقط من أمطار هناك ، مثال ذلك سوسة وتونس التي كانت بها دار لصناعة السفن^(٤) ولعبت دوراً مهماً في حرب المسلمين مع الروم لاسيما في البحر وعلى الثغور البحرية ، كما سنرى ، واسفاقس مثلما يسميها المقدسي وغيرها^(٥) من مدن المغرب التي شهدت صراع المسلمين الحربي مع الروم في العصرين الراشدي والأموي .

وكانت السهول^(٦) المروية بشبكة من الأنهار والجداول والوديان هي الأخرى من ابرز ظواهر الإقليم التي تمتاز بثرائها الاقتصادي الناجم عن الزراعة فيها ، مثال ذلك مدينة قابس – في المغرب الأدنى – لها واد جرار كثيرة النخيل والأعناب والتفاح^(٧) ، وقسطيلة ذات السهول الداخلية التي تقع حول الواحات التي أشار ابن رسته إلى أنها ((أربع مدائن في ارض واسعة لها النخل والزيتون ، ومما يلي القبلة من القيروان بلد يقال له الساحل ليس بساحل بحر ، كثير السواد من الزيتون والشجر والكروم ، وهي قرى متصلة بعضها في بعض كثيرة^(٨))) وباجة التي تعد من السهول الساحلية واقعة بين القيروان والبحر كثيرة الحبوب والخيرات وسطها عين وبها ماء جار^(٩) .

ومن المناطق السهلية في بلاد المغرب الأوسط قسبة تاهرت التي ((أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين وجل بها الإقليم ...

(٢) ابن رسته ، الأعلام النفيسة ، ص ٣٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، أبو القاسم بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٤٢ هـ) ، فتوح مصر وأخبارها ، مطبعة بريل (لندن ١٩٠٧ م) ، ص ١٨٣ وما بعدها ؛ فتوح مصر والمغرب ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربي ، (القاهرة ١٩٦٥ م) ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٤) ابن رسته ، الأعلام النفيسة ، ص ٣٤٨ .

(٥) أحسن التقاسيم ، ص ١٨٨ – ١٨٩ ؛ ابن الفقيه ، البلدان ، ص ٧٩ .

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ص ١٢٩ – ١٣١ .

(٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .

(٨) ابن رسته ، الأعلام النفيسة ، ص ٣٥٠ .

(٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٨ .

وهو بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيّب ... غزير الماء^(٣))) وأشار المقدسي أيضاً إلى ان تاهرت السفلى تقع على واد عظيم ذات أعين وبساتين^(٤) ، وفكان هي الأخرى على واد جار ذات بساتين^(٥) .

ومن الأمثلة على المناطق السهلية ذات المناخ اللطيف والإنتاج الغزير في المغرب الأقصى السهول في فاس التي كان لها واد جرار عليه بساتين كثيرة الخيرات والتين والزيتون وأرحية إذ كان التمر فيها وقر جمل بدرهمين في أيام المقدسي^(٦) ، وذكر ابن الفقيه في حديثه عن المسافات بين مدن المغرب الأقصى ومنها طنجة ومدينتها وليلة والسوس الأدنى ((ليس في بلادهم نخل ولا كرم ولا زيتون ولهم القمح والشعير والأغنام والرمك^(٧) والبقر والعسل وليس لهم قطن ولا كتان ... زرعهم على ماء السماء^(٨))) .

وفضلاً عما ذكر من إشارات عن طبيعة المناخ في هذا الإقليم ، فلا بد من الإشارة إلى تنوع أنماط المناخ في المغرب العربي ، إذ تسقط الأمطار بغزارة لاسيما في الأقسام الشرقية منه و على المناطق الجبلية و على المناطق القريبة من السواحل ، كما هو الحال في برقة والقيروان وطرابلس وسوسة وتونس^(٩) وغيرها من الأصقاع ، وتسقط الثلوج على الجبال شتاء كما هو الحال في جبل لوراس وهو من سلسلة الجبال الجنوبية^(١٠) ، ويذكر أيضاً ان سكان مناطق الهضاب يشتغلون بالرعي^(١١) وهذه بلا ريب إشارة حتمية إلى سقوط الأمطار بكميات كافية لنمو الكلاء هناك .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٧) الرماك : مفردا رمكة وهي أنثى البراذين ، ينظر : الجوهري ، اسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣هـ —) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق ، احمد عبد الغفور عطار ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، (بيروت ١٩٨٧م) ، ج ٤ ، ص ١٥٨٨ . (مادة رمك) ٠

(٨) ابن الفقيه ، البلدان ، ص ٨٤ .

(٩) ينظر الصفحات السابقة

(١٠) ابن رسته ، الأعلام النفسية ، ص ٣٥٠ .

(١١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ١٣٠ .

الفصل الثاني

دوافع المجابهة بين العرب والبيزنطيين

الجهاد في سبيل الله تعالى .

تحرير الأرض العربية .

الرد على التحديات البيزنطية .

الجهاد في سبيل الله تعالى

ترجع البدايات الأولى للمجابهة الفعلية مع الروم البيزنطيين إلى وقت مبكر من عمر الدولة العربية الإسلامية ، ففي السنة الثامنة للهجرة و قبيل فتح مكة^(١) قرر الرسول (صلى

^(١) الواقدي ، محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ، المغازي ، تحقيق : مارسدن جونس ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات عن طبعة اكسفورد ١٩٦٦م ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٧٥٥ .

الله عليه وسلم) إرسال سرية بقيادة مولاه زيد بن حارثة إلى مؤتة^(٢) ، تدفعه إلى ذلك عدة دوافع في مقدمتها تنفيذ الأمر الإلهي^(٣) : ((يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة^(٤))) و ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون^(٥))) .

ولنشر الإسلام بين أبناء القبائل العربية هناك ولتصدي بعض عمال البيزنطيين على بلاد الشام لحملات المسلمين الداعية إلى الإسلام^(٦) ، ولقتل نائب هرقل على مؤتة رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه إليه^(٧) ، وقد خاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) جنده المسلمين خطاباً بيّن فيه الدوافع الحقيقية الموجبة لمجابهة الروم إذ قال: ((اغزوا بسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف^(٨))) وقد جاءت أحداث الحرب مع الروم البيزنطيين في مؤتة لتؤكد حقيقة الدوافع التي أعلنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم استتفر جنده ، فقد كانوا على قناعة تامة بان النصر من عند الله عز وجل لمن يخرج مجاهداً في سبيله وليس بكثرة عدد أو زيادة قوة وهو أمر تجلّى في إجابة عبد الله بن رواحة^(٩) لزيد بن حارثة عندما استشاره الأخير في أمر الكتابة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بغية تعزيز قوتهم حيال جموع الروم ، إذ ندبه قائلاً : ((إنّنا لم نسر إلى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم ولكننا خرجنا نريد لقاهم ولسنا

(٢) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ .

(٣) ابن كثير ، ابو الفدا اسماعيل بن كثير (ت ٧٤٧ هـ) ، الاجتهاد في طلب الجهاد ، حققه : د. عبد الله عبد الرحيم ، ط ٢ ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، (الرباط ١٩٨١ م) ، ص ٨١ .

(٤) سورة التوبة آية ١٢٣ .

(٥) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٦) الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

(٧) ابن سيد الناس ، ابو الفتح محمد بن محمد سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ، عنيت بنشره مكتبة القدسي ، (القاهرة ١٣٥٦ هـ) ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(٨) الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٥٨ .

(٩) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو ... الأنصاري كان احد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرًا وما بعدها حتى استشهد يوم مؤتة ، ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفصل احمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت د.ت) ، ج ٤ ، ص ٦٦ .

نقاتلهم بعدد ولا عدّة^(٢))) وفي رواية أخرى : ((والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة وما نقاتلهم إلا بهذا الدين .. انطلقوا فانما هي إحدى الحسينيين إما الظهور وإما الشهادة^(٣)))، فصدقهم المسلمون في قوله وانطلقوا للقتال^(٤) . وإن اندفاع قادة هذه السرية للشهادة في سبيل الله تعالى^(٥) مؤشرات إضافية تبين البواعث التي من أجلها خرجوا لقتال الروم ، ويعبر أيضا عن الموقف العام للمسلمين آنذاك الراغب بالجهاد ملتزمين بوصايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأوامره بوصفه القائد الأعلى لهم^(٦) وهي تمثل رداً على ما ذكره بعض المستشرقين^(٧) من أن الدين الجديد قد أشعل روح السلب أكثر من أن يهدئها ومحاولة تشويه الحقائق التاريخية ثم جاءت غزوة تبوك سنة ٩ هـ / ٦٣٠ م هي الأخرى التي أعلنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجذب وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام على ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على حال من الزمان الذي هم عليه^(٨) ، لتحمل دلالات جهادية عظيمة ، فاخترت هذا التوقيت خاصة ببيان عزيمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على معرفة مَنْ يثبت على مبادئ الإسلام ويفضل الجهاد ومن يتزعزع حباً للعالم واستقلالاً لجبهة الروم ، إلا أن الشواهد أثبتت أن مقاصدهم لم تكن الغنيمة وحب الدنيا كما يصور بعضهم ذلك^(٩) بل العكس تماماً .

(٢) عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، دار المسيرة ، (بيروت ١٩٧٩ م) ، ج ١ ، ص ٩٩ .
(٣) الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٦٠ ؛ الطبري ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، (مصر ١٩٦٥ م) ، ج ٣ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
(٤) الكلاعي ، سليمان بن عبد الكلاعي (ت ٦٣٤ هـ) ، الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، مطبعة السنة النبوية ، (القاهرة ١٩٧٠ م) ، ص ٢٧٧ .
(٥) الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ - ٧٦٠ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥٨ .
(٧) إدوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة : د. محمود سليم مراجعة محمد علي أبو درة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، د.ت ، ج ٣ ، ص ٧٤ - ٧٥ .
(٨) ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) ، السيرة النبوية ، حققها وضبطها : مصطفى السقا واخرون ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ ، (بيروت ٢٠٠٠ م) ، ج ٤ ، ص ١٦٩ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠١ .

(٩) إدوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛

فحال استنفار الرسول (صلى الله عليه وسلم) القبائل وأهل مكة وحثه إياهم على الجهاد وترغيبه لهم فيه^(٢) ، سارعوا إلى تلبيةه محتسبين^(٣) فتبرعوا بالمال كابي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) والطعام والدواب ، وأسهمت النساء المسلمات بما قدرن عليه من المعونة^(٤) ، وهكذا استطاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يحشد ثلاثين ألف مجاهد معززين بعشرة آلاف فرس ، وكانت هذه الغزوة إعلاناً للروم بان العرب المسلمين اصبحوا قوة لا يستهان بها ، وان لهم القدرة على مقارعتهم في أي وقت وفي أي مكان على الحدود ، إذ ان اختراق الصحاري العربية في وقت كهذا ما هو إلا دليل قاطع على عزيمة المسلمين على ردع عدوهم ومقارعتة .

وبعد تولي أبي بكر (رضي الله عنه) الخلافة (١١-١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م) كان الجهاد في سبيل الله تعالى واحداً من الفروض المهمة التي أكدها في منهاج عمله اللاحق ، وهو أمر أوضحته خطبته الأولى في مسجد المدينة يوم بؤيع^(٥) ، إذ جعل الجهاد أحد أسس تكوين الدولة الجديدة^(٦) ، سائراً على نهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهي مسألة طالما أشار إليها بقوله: ((إنما أنا متبع ولست بمبتدع))^(٧)، ولذا أصرّ على مجابهة الروم وأحلافهم ، فأنفذ بعث أسامة ابن زيد بن حارثة نحو الشام ، على الرغم من

(٢) الواقدي ، المغازي ، ج٣ ، ص ٩٩٠ - ٩٩١ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
(٣) الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ١٠٢ ؛ ابن حبان ، محمد بن احمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ) ، الثقة ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، (الهند ١٩٧٥م) ، ج٢ ، ص ٩٢ .
(٤) الواقدي ، المغازي ، ج٣ ، ص ٩٩٠ - ٩٩١ .
(٥) ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ٣١٨ ؛ ابن بكار ، الزبير بن بكار بن عبد الله (ت ٢٥٦ هـ) ، الأخبار الموفقيات ، تحقيق : سامي مكي العاني ، مطبعة العاني ، (بغداد ١٩٧٢م) ، ص ٥٧٩ .
(٦) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، مطبعة العاني ، (بغداد د.ت) ، ص ٥١ - ٥٢ .
(٧) البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ، أنساب الأشراف : الشيخان ابو بكر وعمر وولدهما ، تحقيق : د. إحسان صدقي العمدة ، مؤسسة الشراع العربي ، (الكويت ١٩٨٩م) ، ص ١٢٨ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٢٤ .

ارتداد اغلب قبائل العرب^(١) ، مشيراً إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان عازماً على فتح الشام قبل أن تعاجله المنية^(٢) ، وتأكيده على ضرورة تنفيذ أسامة لما أمره به الرسول (صلى الله عليه وسلم)^(٣) .

في عام ١٣ هـ / ٦٣٤م استأنف الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه) الحرب مع الروم بعد القضاء على الردة نهائياً ، من خلال مد الفتوحات صوب الشام ، وقد بادر باستنفار العرب المسلمين في مكة والطائف واليمن ونجد إلى الجهاد ورغبهم فيه^(٤) ، وقد بينت خطبته (رضي الله عنه) بهذا الشأن دوافع ونوايا العرب المسلمين من وراء ذلك^(٥) ، كما بينت الأحداث أيضاً عزم العرب المسلمين على تحرير الشام من الوجود الرومي البيزنطي واعلاء راية التوحيد، وان هذه الفكرة كانت تراود البعض منهم كعمر بن الخطاب (رضي الله عنه)^(٥) ، بل إن الخطة – وكما يبدو – كانت قد أعدت في ذهن الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) قبل هذا التاريخ ، إذ قام بتقسيم الجيوش المتجهة إلى الشام على أربعة فرق متقدمة بأربعة محاور رئيسة وقسم الشام على أربعة أجناد لتسهيل قيادتها إذا ما تم الفتح^(٦) .

وحال اجتماع من حضر من المسلمين إلى المدينة عزم الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه) على إرسالهم إلى الشام وأخذ باستنفارهم للجهاد في سبيل الله تعالى^(٧) ، ورغبهم فيه وأمر بلالا الحبشي (رضي الله عنه) أن يؤذن في الناس أن ((انفروا إلى جهاد عدوكم

(١) الزهري ، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)، المغازي النبوية ، حققه وقدم له : سهيل زكار ، دار الفكر ، (دمشق ١٩٨١م) ، ١٧٤ ؛ الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ١١٢١ .

(٢) الواقدي ، محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ، فتوح الشام ، قدم له : عمر أبو النصر ، ط ١ ، المكتبة الأهلية ، (بيروت ١٩٦٩م) ، ج ١ ، ص ٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١١١ .

(٥) الأزدي ، محمد بن عبد الله الأزدي (ت ١٦٨ هـ) ، تاريخ فتوح الشام ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ، (القاهرة ١٩٧٠م) ، ص ١ ؛ عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(٥) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٢ ؛ الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ١٩ ، (نص محاوره عمر بن الخطاب مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند وصول المسلمين تبوك) .

(٦) حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي ، ط ١ ، دار الجيل ، (بيروت ١٩٨٧م) ، ص ١٦٢ .

(٧) الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري (ت ٩٦٦ هـ) ، تاريخ الخميس في أحوال انفس النفيس ، المطبعة الوهبية ، (مصر ١١٣٢هـ) ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

الروم بالشام^(١))) ، وقد أظهر المقاتلة المسلمون صدق الغايات الجهادية من وراء قتالهم الروم ومجابهتهم إياهم في عدة صور ومواقف^(٢) ، وقد أكدت الأحداث الحربية أن الخلافة وعامة المسلمين كانوا على معرفة بحجم وقدرة الروم العسكرية في الشام جرّاء لقاءاتهم السابقة معهم في مؤتة وتبوك ، ومن الاتصالات المستمرة بين الشام والحجاز ، أثبتت ذلك استشارة الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) للصحابية ومن حضر بضرورة توجيه كتب الاستنفار إلى عرب اليمن وبقية مناطق الحجاز الأخرى ، لما رأى قلة القوة المتجهة مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام قياساً بحشود الروم^(٣) ، فكتب إلى أهل اليمن كتاباً يحثهم فيه على الجهاد ومقارعة الروم المحتلين^(٤) ، وكتب بالمضمون ذاته إلى أهل مكة والطائف وسائر مناطق الحجاز^(٥) الذين ابدوا استجابة عالية هم واهل اليمن - من خلال نفيهم زرافات ووحدانا معلنين عن رغبتهم في الجهاد وطرد الروم من أرض العرب ، فقد أوضح ذلك رد فعل أهل اليمن واستجابتهم للصحابي أنس بن مالك (ت ٧٨ هـ) (رضي الله عنه) - بعد عودته من عندهم - الذي خاطب الخليفة الصديق ((يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على احد الا وبادر الى طاعة الله ورسوله وأجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد ...))^(٦) .

انطلقت جموع المجاهدين نحو الشام مع أبي عبيدة عامر بن الجراح وسواه من قادة الجهاد مسترشدين بوصايا الخليفة الصديق (رضي الله عنه) التي كانت تلازمهم^(٧) ، سعياً لتنفيذ ما أمر الله تعالى به ، الا أنهم اضطروا للجوء إلى القوة ومجابهة الروم في اكثر من موضع عندما رفضوا دعوتهم وجأهروها بالعداء ، فقد حقق القائد عمرو بن العاص النصر عليهم في غزّة^(٨) بعد ان أعلن لهم عن الدافع الأساسي وراء مسير المسلمين صوب الشام بقوله : ((أمرنا صاحبنا (يقصد الرسول (صلى الله عليه وسلم)) أن نقاتلكم إلا أن تدخلوا

(١) الازدي ، فتوح الشام ، ص ٦ ؛ الديار بكري ، تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ينظر : موقف خالد بن سعيد بن العاص : الازدي ، فتوح الشام ، ص ٦ .

(٣) عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٤) الازدي ، فتوح الشام ، ص ٨-٩ ؛ عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٥) احمد زيني دحلان ، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، (القاهرة ١٩٦٨ م) ، ج ١ ، ص ٣١ .

٣٢ .

(٦) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٧ .

(٧) ينظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤١ .

(٨) غزّة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل من نواحي فلسطين غربي

عسقلان . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٨٨ .

في ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا وتكونوا اخوتنا .. فان انتم أبيتم فتؤدوا لنا الجزية .. فان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصب ما نريد منكم^(١) .

فضلاً عن تصريح المقاتلة المسلمين بالدوافع التي حدث بهم إلى مقارعة البيزنطيين فان حالة الاستنفار الطوعي لديهم لمجابهة البيزنطيين أكدت أن السعي للجهاد نشراً للدين وذوداً عنه هو الوازع الأكبر وراء نفير هذه الجحافل المتواترة .

فأهل مكة كان لهم دور متميز في ذلك عبر عنه الصحابة الكرام أمثال أبي سفيان صخرين حرب الذي شهدت له أيام وقعة اليرموك ١٥ هـ / ٦٣٦ م بذلك ، إذ كان يقاتل ويحرض المسلمين على القتال قائلاً : ((الله الله انصروا دين الله ينصركم^(٢))) وفي رواية أخرى انه قال : ((الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام وهم زادة الروم وأنصار الشرك اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك^(٣))) ، وانبرى القائد خالد بن الوليد (رضي الله عنه) محرضاً جنده على الجهاد وصدق النية عند اللقاء^(٤) في معركة اليرموك ايضاً ، بعد ان دعا وزير ملك الروم^(٥) واعلمه نوايا العرب المسلمين قائلاً : ((وأمرنا - يقصد الله عز وجل - ان نقاتل من زعم انه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، حتى يقولوا لا اله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ... وان أبيتم ذلك فأدوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون فان أبيتم ذلك قاتلناكم على بصيرة ويقين^(٦))) ولما حاول الروم ترغيب العرب المسلمين بالمغانم وترهيبهم بالقوة وجدوهم عازمين على إنفاذ ما أمر الله تعالى به ، ولما لم يستجيبوا حمل المسلمون عليهم ((حملة لا يريدون بها غير وجه الله عز وجل^(٧)))

(١) ابن بطريق ، افتيشوس سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، مطبعة الأباء اليسوعيين ، (بيروت ١٩١٠م) ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير ، مكتبة القدسي ، (القاهرة ١٣٦٧ هـ) ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) المقدسي ، أبو قدامة عبد الله بن محمد المقدسي (ت) ، التبيين في أنساب القريشيين ، حققه : محمد نايف الدليمي ، ط ١ ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، (بغداد ١٩٨٢م) ، ص ١٧٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٥) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، الازدي ، فتوح الشام ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٦) ابن أعثم الكوفي ، أبو محمد احمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤ هـ) ، الفتوح ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، (الهند ١٩٦٨ - ١٩٧٥م) ، ج ١ ، ص ٢٤٥ . ينظر أيضاً : الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، ؛ الازدي ، فتوح الشام ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٧) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

محققين النصر عليهم في اليرموك عام ١٥ هـ / ٦٣٦م التي كان لها أبعد الأثر في تحرير سائر ارض الشام وتغيير مجرى الأحداث لصالح المسلمين .

وفي العصر الأموي لم تكد الأوضاع تستتب بعد تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة في عام الجماعة ٤١هـ / ٦٦١م ، حتى استأنف الجهاد ضد الروم البيزنطيين ومن سواهم من أمم الشرك الأخرى ، فعُدَّ الجهاد من أسبقيات عمل الخلافة جرياً على سياسة الخلفاء الراشدين فكانت ((سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك قد علت كلمة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها^(٢))) .

كان الجهاد في سبيل الله تعالى نشراً للإسلام وذوداً عنه دافع العرب المسلمين الأساس وراء مواصلتهم الحرب مع الروم البيزنطيين في هذا العصر ، ولا يمكن فصله عن عامل التحدي الذي ما فتئ الروم يظهرهونه للإسلام والمسلمين كلما سنحت الفرصة لهم ، بسبب ما عصف بالعرب المسلمين من فتن داخلية شغلته عن مجابتهم بين الحين والآخر .

ولا شك في أن الرغبة والعزيمة على الجهاد هي التي جعلت المقاتلة المسلمين يندفعون بكل حماس وجرأة لقتال الروم في عقر دارهم ، كما يبدو ذلك من المواقف الجهادية الكثيرة لأولئك المقاتلة ، كموقف عبد الله^(٣) بن محيريز الجمحي الفلسطيني الذي روي انه كان في بعث الصائفة يوماً ما في هذا العصر ، فمرض مرضاً شديداً ، فأمر ابنه عبد الرحمن الذي رافقه مجاهداً أن يحمله ويسير به قدر ما يتمكن باتجاه أرض الروم قال عبد الرحمن : ((فحملته فلم أزل أسير به وهو يقول : يا بني أسرع في السير ، قلت : يا أبت انك شاكٍ ، قال : يا بني إني أحب ان يكون أجلي بأرض الروم ، فما زلت أسير به حتى هلك بأرض حمص^(٤))) ، وكان هذا الموقف الجهادي مشابهاً لموقف كعب الأحبار –

^(٢) ابن كثير ، ابو الفدا اسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٨٦م) ، ج ٩ ، ص ٨٧ .

^(٣) عبد الله بن محيريز الجمحي الفلسطيني : نزل الشام وسكن بيت المقدس ، تابعي ثقة من خيار المسلمين قيل انه مات في خلافة عمر بن عبد العزيز وقيل في خلافة الوليد بن عبد الملك . ينظر : ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، تهذيب التهذيب ، طبعه محققه ومصححه ، ط ٣ ، دار أحياء التراث العربي ، (بيروت ١٩٩٣م) ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

^(٤) ابن عساكر ، الإمام أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، دراسة وتحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٩٥م) ، ج ٣٥ ، ص ٦٠ .

(كعب بن ماتع بن هيسوع) - الذي أصر على الخروج إلى أرض الروم جهاداً في سبيل الله تعالى على الرغم من مرضه مؤثراً أن يموت في أدنى أرض العرب من أرض الروم^(١) وتتجلى الدوافع الجهادية بأبهى صورها في عزم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله^(٢) (ت ٧٨هـ) على السير ماشياً على قدميه ومترجلاً عن ركوبته لما خرج مجاهداً في إحدى الصوائف معللاً فعله الجهادي هذا لقائد الصائفة مالك بن عبد الله الخثعمي بالقول : ((سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : ((من اغبرت قدماء في سبيل الله ساعة من نهار فهما حرام على النار)) فنزل ماشياً في سبيل الله أيضاً ونزل الناس ، فما رأي أكثر ماشياً منه ذلك اليوم^(٣) .

أضف إلى ذلك فأن القيام بأعباء الجهاد - بلا ريب - هو الذي جعل المقاتلة العرب المسلمين أكثر إصراراً على حصار القسطنطينية وفتحها سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩م وما بعدها ، كما يظهر ذلك الموقف الجهادي العظيم الذي أبداه سفيان بن عوف الغامدي حينما حمل بجنده على الروم المدافعين عن أحد أبواب القسطنطينية ويدعى باب الذهب حتى أفرعهم ، مما دفعهم إلى الاستفسار عما دعى العرب لحصارهم ، فاجاب الجند العرب بالقول : ((جننا لنخرب مدينة الكفر ويخربها الله على أيدينا^(٤))) ، فضلاً عن ذلك فان صمود المقاتلة العرب سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣م وما بعدها وإصرارهم على فتح العاصمة البيزنطية أمام كل الظروف العصيبة التي ألمت بهم هناك ولمدة تقرب من ست سنوات أو تزيد ، من مقاومة بيزنطية شديدة وحصانة ومنعة المدينة التي كانت صعبة الاختراق والظروف المناخية والتضاريسية القاسية ، والابتعاد عن الأهل والمال والوطن ، حتى اضطروا في النهاية إزاء كل هذا إلى رفع الحصار سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩م بعد ان بذلوا صبراً وتضحيات كبيرة وعقدوا

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٢ ، ص ٢٤١ ، ج ٥٠ ، ص ١٧٤ .

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو و ... بن سلمة الأنصاري السلمي ، يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن احد المكثرين عن النبي (صلى الله عليه وسلم) له ولأبيه صحبه وكان مع من شهد العقبة . ينظر : ابن الأثير ، عز الدين بن الأثير الحسن بن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها الشيخ: عادل احمد الرفاعي ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، (لبنان ١٩٩٦م) ، ج ١ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٣) أبو يعلى ، احمد بن علي بن المثنى ابو يعلى (ت ٣٠٧ هـ) ، مسند ابو يعلى ، تحقيق : حسين سليم أسد ، ط ١ ، دار المأمون للتراث ، (دمشق ١٩٨٤م) ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن حبان ، محمد بن حبان بن احمد التميمي ألبستي (ت ٣٥٤ هـ) ، صحيح ابن حبان ، تحقيق : شعيب الارنؤوط ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت ١٩٩٣م) ، ج ١٠ ، ص ٤٦٤ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٨ ، ص ١١٧ ، ج ٦٧ ، ص ٢٣٧ ، ابن العديم ، كمال الدين عمر بن احمد بن العديم (ت ٦٦٠ هـ) ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، حققه وقدم له : د. سهيل زكار ، دار الفكر ، (بيروت د.ت) ، ج ١٠ ، ص ٤٦٢٧ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢١ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، ينظر ص ٤٣٢ من الجزء ذاته .

الهدنة مع الروم بعد ان ضيقوا الخناق عليهم^(١) ، كلها مؤشرات على ان الوازع والدافع الأساسي وراء ذلك هو الجهاد في سبيل الله تعالى ودحر العدو ، ومما يدل على تشبع نفوس المسلمين بروح الجهاد هو إصرار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي شرفه الله تعالى بالشهادة هناك على ان يدفن عند أسوار العاصمة البيزنطية^(٢).

فضلاً عن المواقف الجهادية البطولية للعرب المسلمين فان خطب الاستتفار التي وجهها الخلفاء الأمويون وقادتهم الميدانيون لجندهم حاثين إياهم على قتال الروم وردعهم ، يمكن أن نلمس فيها البواعث الجهادية وراء مجابهة الروم ، فقد ندب الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) المسلمين لما عزم على إرسالهم مع ابنه مسلمة لقتال الروم في إحدى الحملات قائلاً : ((أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وقد طمع فيكم وهنت عليه لتركم الغزو ، واستخفافكم بحق الله ، وتشاغلكم عن الجهاد في سبيل الله وقد علمتم ما وعد ربكم في الجهاد لعدوه ...^(٣))) وروي أن العباس بن الخليفة الوليد بن عبد الملك لما تأخر النصر على الروم أثناء حصار العرب لمدينة الطوانة الرومية سنة ٨٨هـ / ٧٠٦م ولما رأى ثبات الروم وشدة مقاومتهم قال : ((يا ابن محيريز أين الذين كانوا يلتمسون الشهادة ؟ نادهم يأتوك قال : يا أهل القرآن يا أهل القرآن فأتوه سراعاً فاقتتلوا قتالاً شديداً وهزم الله)) قائد الروم ومن تحت قيادته منهم^(٤).

وذكر المدائني في الشأن ذاته أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م) وجه جيشاً من قبله إلى ارض الروم مجاهدين فمشى معهم وودعهم واوصاهم بقوله ((اتقوا الله وقاتلوا أعداءه ابتغاء ثواب الآخرة فان الأجر للصابرين)) (في البأساء والضراء وحين البأس^(٥))) ، وعلى الجبهة الغربية من ميدان الحرب مع الروم كان الجهاد الدافع الأسمى وراء مجابهة الروم وحلفائهم هناك كما هو الحال في بقية الجبهات الأخرى ، فقد ذكر ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ) عن زهير بن قيس البلوي انه بعد ان الحق الهزيمة

(١) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٥١ .

(٢) ابن ابي شيبة ، ابو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥هـ) ، مصنف ابن أبي شيبة ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، ط ١ ، مكتبة الرشد ، (الرياض ١٤٠٩ هـ) ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ ، ص من هذا البحث .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٩٢٢ - ١٩٢٣ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٦ ، ص ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٥) البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) ، كتاب جمل من كتاب أنساب الإشراف ، حققه و قدم له : د. سهيل زكار ، ط ١ ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٩٦ م) ، ج ٨ ، ص ١٥٦ .

بكسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة البربرية حليف الروم ، وطارد البربر والروم حتى وادي ملوية بالمغرب لم تغره أفريقية بأملاتها العظيمة ، فأبى أن يقيم فيها وقال : ((إني ما قدمت إلا للجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك^(١))) وذكر المالكي أن القائد عقبة بن نافع الفهري لما عزم على تحرير تاهرت^(٢) حرّض جنده قائلاً : ((وأنتم في دار غربة وأنما بايعتم رب العالمين وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لمرضاته واعزاز دينه^(٣))) ولما بلغ في جهاده ساحل البحر المحيط قال : ((اللهم أشهد إني قد بلغت المجهود ولولا هذا لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك^(٤))) ، وعندما فرغ حسان بن النعمان الغساني غنائم أفريقية من ذهب وفضة وجوهر بين يدي الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٤ م) استعظمها الخليفة الوليد وقال له : ((جزاك الله خيراً يا حسان)) فأجابه قائلاً : ((يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله وليس مثلي يخون الله والخليفة^(٥))) ، ومما يؤكد الأبعاد الجهادية للمجابهة الإسلامية مع الروم على مختلف الجبهات أيضاً أمر القائد موسى بن نصير جماعة العرب المسلمين وكان قد تركهم مع مولاة طارق بن زياد أن يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين^(٦) . هذه الشواهد التاريخية تؤكد بما لا يقبل الشك أن الدافع الأسمى والهدف الرئيس وراء مجابهة المسلمين للروم البيزنطيين هو نشر الإسلام بين الأمم والشعوب الراضحة تحت هيمنتهم وإقامة أحكامه وشعائره بين الناس بكل حرية ، وإنصافهم من الظلم والعبودية .

(١) ابن عذاري ، أبو عبد الله محمد المراكشي (ت ٦٩٥ هـ) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وبروفال ، دار الثقافة ، (بيروت د.ت) ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) تاهرت : اسم مدينتين بأقصى المغرب العربي يقال لاحدهما تاهرت القديمة والأخرى تاهرت الجديدة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٣) المالكي ، أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ت ٤٥٣ هـ) ، رياض النفوس في طبقات علماء أفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وأوصافهم ، قام على نشره : حسين مؤنس ، ط ١ ، مكتبة النهضة ، (القاهرة د.ت) ، ج ١ ، ص ٢٣-٢٤ ؛ الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، تحقيق وتقديم ، المنجعي الكعبي ، (تونس ١٩٦٨ م) ، ص ٤٣-٤٤ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٩ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٦) الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ٧٠ ؛ حسين مؤنس ، رواية جديد عن فتح المسلمين للأندلس ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثامن عشر ، (مدريد ١٩٧٤-١٩٧٥ م) ، ص ١٠٠-١٠١ .

تحرير الأرض العربية

قبل تفصيل البحث في هذا الدافع بوصفه واحداً من دوافع الحرب مع البيزنطيين في صدر الإسلام ، لابد من التذكير بحقيقة مهمة وجوهرية ، ألا وهي عروبة كل من الشام والجزيرة الفراتية ومصر على مرّ العصور ، تلك الأقاليم التي رزحت قبائلها العربية تحت نير الهيمنة الأجنبية رداً من الزمن وشهدت البدايات الأولى للمجابهة مع الروم البيزنطيين فلم تكن تلك الأقاليم يوماً ما بمعزل عن شبه الجزيرة العربية^(١) بل ارتبطت بها منذ عصور قديمة بصلات اقتصادية وروابط اجتماعية ، ذلك أن عرب شبه الجزيرة كانوا يعدون تلك الأقاليم امتداداً طبيعياً لأرضهم ، لاسيما اذا ما علمنا ان هذه الأقاليم لا يفصلها عن شبه الجزيرة فاصل أو مانع طبيعي يحول دون الاتصال فيما بينها^(٢) .

لذلك كله فقد انطلقت الهجرات العربية الأولى من شبه الجزيرة العربية بصورة دورية - كما أشارت إلى ذلك المصادر - إذ كان بعضها موسمية كهجرات الرعاة الذين ينتقلون بحثاً عن الكأ والماء ، فيدخلون العراق وسوريا وبقية الهلال الخصيب ، ثم يفلون عائدين بانتهاء الربيع ، أو يستقر بعض منهم هناك^(٣) ، وفي أحيان أخرى تجري هجرات واسعة نحو تلك الأراضي كهجرة الكنعانيين والفينيقيين إلى الشام بحدود عام (٢٢٠٠ ق.م)^(٤) .

(١) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، (بيروت ١٩٧٦ م) ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) البكري ، أبو عبيد عبد الله عبد الكريم البكري (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، حققه مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة ١٩٤٥ م) ، ج ١ ، ص ٦ وما بعدها ؛ احمد سوسة ، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، وزارة الإعلام ، (بغداد ١٩٧٩ م) ، ص ١٢٧ .

(٣) الاصطخري ، ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت ٣٤١ هـ) ، الأقاليم ، مكتبة المثنى ، (بغداد د.ت) ، ص ١٦ ؛ رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي مراجعة : مصطفى زيادة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (د.ت) ، ص ٣ - ٦ .

(٤) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، مطبعة الحوادث ، (بغداد ١٩٧٣ م) ، ج ١ ، ص ٣٩٠ ؛ يوسف رزق الله غنيمه ، الحيرة المدينة والمملكة العربية ، مطبعة دنكور الحديثة ، (بغداد ١٩٣٦ م) ، ص ٦ .

فقد كان الكنعانيون من أقدم من نزل الشام وفلسطين من العرب^(١) ، وإلى جانبهم نزلت جماعات أخرى من العرب كالعموريين والمؤابيين وغيرهم^(٢) .

واللافت للنظر أن المصادر التاريخية اختلفت اختلافاً بيناً في تحديد تاريخ الوجود العربي في تلك الربوع بصورة دقيقة ، وهذا الاختلاف ربما يعود إلى عدم توفر المصادر المدونة عن الهجرات العربية أو إلى تداخل هذه الهجرات فيما بينها ، فمن المصادر ما أرجعه إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، اعتماداً على ما يرويه الاخباريون العرب من نزول عاد بأرض الشام^(٣) ، وارجع بعضهم الآخر أقدم تلك الهجرات إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، ثم تتابعت الهجرات العربية إلى بلاد الشام بعد ذلك^(٤) .

وقد انتشر المهاجرون الآراميون في سوريا وفلسطين وشمال العراق ، والعبرانيون في فلسطين بحدود عام (١٥٠٠ ق.م)^(٥) ، ونقل سرجون الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد جماعات من قبائل ثمود ومدين من البادية المتاخمة لفلسطين إلى نابلس وغزة^(٦) وأشارت بعض الدراسات الحديثة إلى أن أقدم استعمال لمصطلح (عرب) بشكل صريح في المصادر المسمارية يرجع إلى عهد (جندب) العربي من اقليم (عربي) في شمال جزيرة العرب بين سوريا وبلاد الرافدين – الذي قاد بدوره ألفاً من راكبي الجمال في معركة القرقر ضمن الحلف الآرامي ضد الملك الآشوري شلمنصر الثالث ، سنة ٨٥٣ ق.م^(٧) ، وهذا يعني أن القبائل العربية هناك آنذاك لم تعد مجرد قبائل متفرقة في المنطقة ، بل صار لها تجمعات منظمة لها وزنها السياسي والعسكري .

(١) ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت ١٩٧٥م) ، ج ١ ، ص ٤٥ ، الطبري ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، مصطفى مراد الدباغ ، القبائل العربية وسلطانها في بلاد فلسطين ، ط ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦م ، ص ٢٥ .

(٢) مصطفى مراد الدباغ ، القبائل العربية ، ص ٣٢ – ٣٤ .

(٣) محمد احمد باشميل ، العرب في بلاد الشام قبل الإسلام ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٧٣م) ، ص ٢٠ – ٢١ ؛ جواد علي ، المفصل ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٦ .

(٤) طه باقر ، مقدمة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ – ٢٨٠ ، (ط ٢ بغداد ١٩٥٦م) .

(٥) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ، ٢٨١ .

(٦) محمد كرد علي ، خطط الشام ، المطبعة الحديثة ، (دمشق ١٩٢٥م) ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٧) Posner , Nadine . F , The Muslim Conquest of Northern Mesopotamia Auinrodutory , Eassag into Its Historical Background and Historiography , University Microfilms International Michigan 1989 , P. 94 .

ويتعزز ذكر العرب أكثر في القرن السادس قبل الميلاد الذي شهد نزوح الأنباط من شبه الجزيرة العربية إلى أعالي الحجاز^(١) ((وهم عرب من بقايا العمالة قوم من عاد وهم القوم الجبارون بالشام^(٢)))، ودامت مملكتهم لمدة طويلة حتى قضى عليها مطلع القرن الثاني الميلادي ، وكانت تضم في أقصى اتساع لها جنوب فلسطين وشرق الأردن والجنوب الشرقي من سورية وشمالى شبه جزيرة العرب^(٣).

وخلفت مملكة تدمر العربية في القرن الثالث الميلادي مملكة الأنباط بالشام وقد وسع أذينة بن حيران مملكة تدمر لتشمل حمص ، ويصل سلطانه معظم المدن الشامية وصارت مملكته بحدود هذا التاريخ ((أعظم قوة في الشرق الأدنى^(٤))) ، وعند اعتلاء زنوبيا العرش عام ٢٧٦م شملت حدود المملكة إنطاكية واجزاء من آسيا الصغرى^(٥) ، وقد أبقت هاتان المملكتان – فيما بعد – من أصولهما وحاميتيهما جنداً كثيراً أصبحوا فيما بعد من جملة سكان الشام^(٦).

وازداد الوجود العربي في فلسطين غزارة إبان الاحتلال الروماني ، ولا سيما في القرون الثلاثة الأخيرة التي سبقت تحريرها^(٧) ، يستدل على ذلك من تسمية الكتاب اليونان والرومان لبلاد الأنباط في جنوب فلسطين ((العربية الحجرية^(٨))) ، فضلاً عن النصوص العربية المنقوشة المكتشفة هناك ، التي أكدت أيضاً عروبة الأنباط الذين سكنوا المنطقة

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ١٥ ؛ أ . آشتور ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الهادي ابو علي ، دار قتيبة للطباعة والنشر ، (سورية ١٩٨٥) ، ص ١٨ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ط ٢ ، (بيروت ١٩٦٩م) ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٣) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، مراجعة وتعليق : د. حسين مؤنس ، دار الهلال ، د.ت ، ص ص ٨٩-٩٠ ؛ حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ٧٧ .

(٤) آشتور ، التاريخ ، ص ١٨ .

(٥) جلانفيل داووني ، إنطاكية القديمة ، ترجمة : ابراهيم نصحي ، دار النهضة ، (مصر ١٩٦٧م) ، ص ص ١٤٦-١٤٧ .

(٦) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢١ ؛ منذر عبد الكريم البكر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الكتب ، (جامعة البصرة ١٩٩٣م) ، ص ٣٩٣ .

(٧) عبد العزيز الدوري ، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام ، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام من القرن السابع الميلادي إلى القرن السابع عشر ، الجامعة الأردنية ، ط ١ ، الدار المتحدة ، (بيروت ١٩٧٤م) ، ص ٧٥ .

(٨) جواد علي ، المفصل ، ج ١ ، ص ١٦٦ ؛ رينيه ديسو ، العرب ، ص ١٥ .

واتخذوا من مدينة سلع عاصمة لهم ، وهيمنوا على الطرق التجارية بين مصر والشام والجزيرة العربية وامتد نفوذهم شرقاً إلى الأردن منذ القرن الرابع قبل الميلاد^(١) .

لم ينقطع تدفق العرب وذكرهم حتى في أيام الاحتلال الروماني للشام وما بعد ذلك إلى وقت قريب من تحرير المسلمين هذا الإقليم الحيوي ، فقد نزلته العديد من القبائل وعلى فترات متفاوتة تحت ظروف مختلفة ، وكذا الحال بالنسبة لإقليم الجزيرة الفراتية ومصر^(٢) . ان عرضاً تاريخياً موجزاً للعلاقات السياسية بين العرب الشاميين والمحتلين الأجانب يظهر بجلاء الروح العربية الراغبة في التحرر واستثمار خيرات الأرض العربية ، كلما سنحت الفرصة بذلك ، فقد اتسمت العلاقات بين العرب النبطيين والرومان الذين دخلوا سوريه عام ٦٣ ق.م بالعداء المتواصل والحرب السجال ، إذ قام سكاروس (Scaurus) أول حاكم روماني لولاية سورية بحملة ضد الأنباط أجبر فيها الحارث الثالث ملكهم على دفع غرامة مالية عام ٥٨ ق.م ، ولكن ذلك لم يوقف المقاومة النبطية للاحتلال الروماني ، إذ ذكر أحد المؤرخين الرومان أن خليفتي سكاروس هذا وهما مارسيوس فلبوس ولنتوس مارسيلينوس قد أمضيا وقتهما في مقاومة العرب الذين سببوا لهما المشكلات ، وفي هذا الاتجاه أيضاً أوردت النقوش الصفوية إشارات إلى ثورات القبائل العربية ضد الرومان كثورة قبيلتي عويذ وقمر ، وإن الإجراءات العسكرية الإدارية المتمثلة بإقامة الحصون الدفاعية وتوزيع الحاميات من المشاة والفرسان في المناطق الاستراتيجية كالقرى الزراعية وطرق القوافل التجارية والمدن المهمة كبصرى عاصمة الولاية العربية في حدود القرنين الثاني والثالث للميلاد في جانب مهم منها مؤشرات على المقاومة العربية للمحتل الروماني^(٣) .

(١) نينا فكتوريا بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي ، نقله عن الروسية : صلاح الدين عثمان ، (الكويت ١٩٨٥م) ، صص ٦٧-٦٨ ، سامي سعيد الاحمد ، نظرة في تاريخ فلسطين خلال الاحتلال البيزنطي (٣٢٤-٦٣٥م) ، مجلة سومر ، مج ٣٨ ، لسنة ١٩٨١م ، ج ١ ، ص ص ١٣٤-١٣٦ .

(٢) ينظر الجدول المرفق ص من هذا البحث .

(٣) يونس محمد عبد الله الشديفات ، الاستيطان في شمال شرق الأردن في الفترة الرومانية ٦٣ ق.م - ٣٢٤ م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٩٧م ، صص ٢٩-٣٦ ؛ جونز ، أ. هـ . م ، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية ، ترجمة : د. إحسان عباس ، ط ١ ، دار الشروق ، (عمان ١٩٨٧م) ، صص ٥٧ - ٥٩ ، ٦٦ - ٦٧ ، ٧٥ - ٧٦ .

فطالما عبر ملوك العرب ورعاياهم كثيراً عن رفضهم الهيمنة الرومانية وهو ما تم على يد أذينة الثاني في أواسط القرن الثالث الميلادي ، الذي قاتل الرومان والساسانيين وحرر الأرض العربية من سطوتهم ، وامتد نفوذ دولته إلى مصر والعراق وآسيا الصغرى إضافة إلى الشام على يد زوجته زنوبيا فيما بعد^(١) ، التي كانت وصية على ولدها القاصر ((وهب اللات)) .

وبقضاء الرومان _ في مطلع احتلالهم الشام _ على دولتي الأنباط وتدمر العربيتين والحيلولة دون السماح لهم بإقامة كيان عربي سياسي واحد لما يشكله من خطر يهدد أمن ومصالح إمبراطوريتهم في المنطقة^(٢) ، فقد رسموا للبيزنطيين الخطوط التي ساروا عليها في تعاملهم مع العرب ، فلم يسمحوا لهم بإقامة دولة أو حتى تحالف بين القبائل ، وسعوا إلى صهر تلك القبائل في بوتقة المجتمع البيزنطي عن طريق إدخالها في النصرانية وتسخيرها لحراسة حدودهم^(٣) ، وعملوا على تأجيج الخلافات السياسية على الزعامة المحلية في البلاد بين القبائل العربية ، إذ ربطت بيزنطة كلاً من الضجاعم وكندة والغساسنة بمعاهدات معها بعد أن دخلوا النصرانية ومنحت رؤساءهم ألقاباً سياسية وعسكرية رفيعة واغدت عليهم الأموال^(٤) ، وأذكت التنافس بينهم على الزعامة والمال وكلما شعرت بوجود نزعة لدى إحدى هذه القبائل لتوحيد العرب تحت رايتهما أقصتها واستبدلتها بأخرى ، فتتنافر القبائل فيما بينها وتنشغل عن التفكير في تحقيق الوحدة والسيادة ، فقد عينت الضجاعم من سليح^(٥) زعماء للقبائل العربية في فلسطين من عهد الإمبراطور فالنز وحتى أواخر القرن الخامس

(١) ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، ط ٢ ، مطبعة التضامن ، (بغداد ١٩٦٩ م) ، ص ص ٩٢ - ٩٣ .
(٢) Vasilie , Alexander , History of the Byzantine Empire 324 – 1453 , (University of Winston Press 1964) , P . 200 .

(٣) بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة ، ص ص ٦٠ - ٦١ .
(٤) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ١ ، ص ص ٥٧ - ٥٩ ؛ بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة ، ص ص ٧٢ ، ٣٢ ، ٢٣٢ ، ٢٧٣ .

(٥) أشار ابن عساكر في معرض حديثه عن سيرة حياة الشاعر نجبة بن الأسود الغساني إلى ان وقعة كبيرة كانت بين غسان من جهة الروم وسليح ومن انحاز إليهم من جهة أخرى بين بصرى والمجفف من ارض الشام ، فقتل فيها جذع بن سنان الغساني سنيط بن عوف الضجمي السليحي الذي كان عاملاً للروم وقد جاء إلى غسان يستوفي منهم الإتاوة السنوية فخلد الشاعر الغساني تلك الوقعة بأبيات من الشعر . ينظر : تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ٤٦٢ . ينظر: اليعقوبي ، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، علق عليه ووضع حواشيه : خليل المنصور ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٩ م) ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

الميلادي^(٦) ، وعندما شعرت بقوة نفوذهم عملت على إضعافهم، فقربت كندة وغسان وعينتهم زعماء على بعض القبائل، فأُنشبت الصراع بين القبائل الثلاثة على زعامة العرب بالشام ، واسفر ذلك عن حلول كندة وغسان محل الضجاعم ، واستخدمت السياسة ذاتها مع كندة وغسان ، إذ أدى التنافس على الزعامة بينهما الى نشوب القتال وبشكل متقطع قرابة نصف قرن (٥٠٢ - ٥٤٤)^(١) ، مالت خلاله الكفة لصالح الغساسنة فعملت بيزنطة على إبقاء الصراع متأججاً لإضعافهما والحيلولة دون وحدة العرب .

وقد استدعى الإمبراطور جستنيان قيس بن الحارث الكندي سنة ٥٣٠م من البادية وعينه زعيماً على قسم من عرب فلسطين الأولى والثالثة ، وتولى الغساسنة زعامة القسم الآخر في الولايتين المذكورتين في المدة ما بين (٥٣٠ - ٥٤٣ م) فتجدد الصراع بين القبيلتين وأسفر عن انتصار الغساسنة بزعامة الحارث بن جبلة على كندة وطردها من ولايات فلسطين الثلاثة سنة ٥٤٤م^(٢) .

أسهم نجاح الغساسنة في توحيد عرب الشام تحت إمرتهم في توسيع وتعميق الخلاف السياسي والديني مع بيزنطة ، إذ لم ترتاح الأخيرة لطموحهم السياسي ، ولا سيما أنها تختلف معهم مذهبياً ، فهي نسطورية والغساسنة يعاقبه من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة^(٣) ، وهذا يقرب في مضمونه من ديانات التوحيد التي ظهرت في ارض العرب قبل ذلك وبعده ، وعبر عن شعور الغساسنة القومي ، فقد صار مظهراً فكرياً لثورة نصارى العرب هناك ، تلك الثورة التي تهدف إلى التخلص من الهيمنة البيزنطية ، وقد أشار ابن العبري إلى ان سبب الخلاف بين عرب الشام والإمبراطور جستنيان هو ((اضطهاده للآباء القائلين بالطبيعة الواحدة ، لان نصارى العرب يؤمنون إنما كانوا يعتقدون اعتقاد اليعقوبية لا غير^(٤))) إذ ان العرب اليعاقبة أيدوا القومية العربية ودافعوا عنها وسعوا إلى الاستقلال المحلي والحرية وقد نجحوا في تأسيس كنيسة قومية - اذا صح التعبير - لهم في بصرى جمعت

^(٦) ثيودور نولدكه ، أمراء غسان ، نقله إلى العربية : بندلي جوزي وقسطنطين زريف ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣م ، ص ٦ ؛ بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة ، ص ٢١٧ ، ٧٢١ .

^(١) بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة ، ص ٧٢، ١٦٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣-١٧٧ ١٧٨ .

^(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٦ ، ٢٣٢ . ينظر أيضا : جواد علي ، المفصل ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

^(٣) J . Spencer Trimingham , Christianity Among the Arab in Pre - Islamic Times ,

Longman London and New York, PP . 178 -188 .

^(٤) ابن العبري ، غريغوريوس أبو الفرج الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، وقف على تصحيحه وفهرسه : الأب انطوان صالحاني ، دار الرائد ، (لبنان ١٩٨٣م) ، ص ١٤٨ .

نصارى العرب في الشام حولها^(٥) ، معبرين بذلك عن سخطهم جراء سياسة الروم التعسفية ضدهم^(٦) ، ومما يؤكد الأبعاد القومية التحررية لهذه المسألة هو تأمر البيزنطيين وعزمهم على القضاء على كيان الغساسنة بصور شتى ، منها قطع الأرزاق السنوية التي كانت تدفعها لجنودهم ابتداءً من عام ٥٧٤م ، فثاروا عليها وبدأوا بالإغارة على الأراضي الزراعية ، وعزموا على قتل المنذر بن الحارث بن جبلة بحدود عام ٥٨٠م الذي اعتقل وفرضت عليه الإقامة الجبرية في القسطنطينية^(١) ، لتبنيه هذا المذهب بعد أبيه ، وثورته على البيزنطيين لمدة ثلاث سنين أعقبتها الفوضى في تلك النواحي بعد ثورة أولاده من بعده على سلطة الروم^(٢) ، الذين عكسوا عمق ارتباطهم القومي ببوادي العرب الجنوبية من خلال الالتجاء إليها خشية مخاطر الروم ولاكثر من مرة في صراعهم معهم^(٣) .

باعتقال البيزنطيين النعمان بن المنذر بن الحارث سنة ٥٨٣م قضى فعلياً على كيان الغساسنة ، وانقسمت القبائل التابعة لهم على خمسة عشر فرقة لكل منها رئيسها ولحق القسم الأكبر منها بالفرس ، وترك قسم آخر العمل في الجيش البيزنطي وعمل في الزراعة ، واستقر في المدن والقرى وبقي القسم الثالث برعاية جبلة بن الايهم^(٤) والحارث بن أبي شمر الغساني عامل بصرى^(٥) ، في خدمة الروم البيزنطيين حتى الفتح الإسلامي .

لاريب ان الرغبة في تحرير الأرض العربية كان دافعاً مهماً من دوافع المجابهة مع الروم البيزنطيين أثناء الفتوحات الإسلامية ، فقد حققت الأمة العربية اعظم انتصار لها بجمع كلمتها بفضل الإسلام وهو أمر كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد نبه إليه منذ وقت مبكر من عمر الدعوة^(٦) ، وإدراكاً من الخلافة الراشدة لحالة التوثب القومي التي

(٥) منذر البكر ، دراسات ، ص ٤١٤- ٤١٥ .

(٦) برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، دار العلم للملايين ، (بيروت د.ت) ، ص ٦٦ .

(١) ثيودور نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٣١ ، بيغولفسكيا ، العرب على حدود بيزنطة ، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٥٠ .

(٢) منذر البكر ، دراسات ، ص ٤١٨ . أشار ابن عساكر إلى ان حالة العداء بين غسان والروم كانت قائمة منذ ان توجهت غسان إلى الشام وقد كانت لهم معهم عدة وقعات منها وقعة كبيرة بأرض يقال لها بالعة خلدها الشعراء الغسانيون بأشعارهم . ينظر : تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٨ ، ص ١٠٠ .

(٣) ناجي معروف ، أصالة الحضارة العربية ، ص ص ٩٦ - ٩٧ .

(٤) ثيودور نولدكه ، أمراء غسان ، ص ص ٣٣- ٣٤ .

(٥) الزبير بن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ص ٦٢٥ .

(٦) ينظر : حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع رجالات قريش بحضرة عمه أبي طالب : الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن كثير أبو الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط ٣ ، دار الرائد العربي ، (بيروت ١٩٨٧م) ، ج ٢ ، ص ص ١٢٣- ١٢٤ .

عمّت أرض العرب الخاضعة للهيمنة الأجنبية ، سعت إلى الإفادة من كل تلك الأمور خدمة لنشر الإسلام أولاً وتحقيقاً لنبوءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في تحرر العرب وجمع كلمتهم اذا ما أنضوا تحت راية الإسلام ثانياً ، ويمكن ان نلمس ذلك في وصية الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) لخالد بن الوليد حين وجهه من اليمامة إلى العراق عام ١٢هـ / ٦٣٣م^(١) وفي أول خطبة للخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) لما عزم على إرسال الجند المسلمين لتحرير الشام^(٢) ، فضلاً عن ذلك كان المقاتلة المسلمون - على ما يبدو - على قناعة تامة بأن تلك الأراضي هي أراض عربية خالصة ويشهد على ذلك نص كتاب خالد بن الوليد الموجه إلى جند المسلمين في الشام لما عزم على المضي من عين التمر^(٣) إليهم وكان مطلعهم : ((من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب من المؤمنين والمسلمين ..^(٤))) فضلاً عن إيمانهم بوجوب تحرير هذه الأراضي المغتصبة بأكملها ، كما أوضح ذلك رفض معاذ بن جبل ما عرضه عليه رسول الروم من أن يأخذ المسلمون سواد البلقان والعودة من حيث أتوا وإصرار معاذ على تحرير الأرض العربية^(٥) ، وكذلك جواب القائد أبي عبيدة بن الجراح عن استفزاز الروم له في وقعة فحل ١٤هـ / ٦٣٥م^(٦) ، الذي حمل تأكيداً على عزم العرب المسلمين على تحرير الأرض بأكملها واجتثاث الاحتلال الرومي منها .

لم يُخف الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حميته العربية ورغبته في الاعتماد على العرب القاطنين في الأراضي المحررة والمزعم تحريرها تسهيلاً لعمليات الفتح الإسلامي وحرصاً منه على جمعهم تحت سيادة الإسلام ، وذلك بتوجيه القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح بعد تحرير حمص ١٥هـ / ٦٣٦م بضرورة دعوة ((أهل القوة والجلد من عرب الشام)) لإعانتهم في معارك التحرير اللاحقة^(٧) ، وقد سبقه في ذلك القائد

(١) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٥٦ .

(٢) ((.. فالعرب اليوم أمة واحدة وبنو أب وأم وقد أردت أن استنفركم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار...)) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٢ ؛ عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٢٨ .

(٤) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٧١ .

(٥) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٦) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ١١٤ .

(٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٠١ ؛ ابن حبيش ، الإمام عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن حبيش (ت ٥٨٤هـ -) ، غزوات ابن حبيش ، تحقيق : د.سهيل زكار ، ط ١ ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٩٢م) ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

عمرو بن العاص إذ كان في مسيره إلى الشام أيام الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه)
(يستتفر من مرّ به من الأعراب فينفذ معه ناس كثير^(٨)) .

أما عن موقف القبائل العربية الخاضعة للسيادة البيزنطية التي لم تزل تعبر عن رفضها لهذه السيادة ورغبتها في الخلاص منها ، فقد اختلف فهم بين مرحب ومعترض ومحايذ أزاء تحرير الأرض والانضواء تحت السيادة الإسلامية ، كما روى ذلك الازدي على لسان أحد الروم هناك بقوله : ((وكان من كان من العرب بالشام ممن كان مشركاً على طاعة قيصر على ثلاثة أصناف : فأما صنف فكانوا على دين العرب وكانوا معهم ، وأما صنف فكانوا نصارى وكانت له نيّة في النصرانية وكانوا معنا ، وأما صنف فكانوا نصارى وليس لهم في النصرانية تلك النيّة فقالوا : نكره ان نقاتل أهل ديننا ونكره ان ننصر العجم على قومنا^(٩))) ، بل ان موقف بعض قبائل الشام العربية من الجند المسلمين كان أعمق من التعاطف والحمية وتمني الانتصار ، إذ بتحقيق المسلمين للمزيد من الانتصارات على الروم البيزنطيين أخذت مواقفهم تتجلى أكثر فأكثر ، ففي وقعة فحل من ارض الأردن ومع تكالب الروم على المسلمين وقفت - بعد موقفها القلق في بداية التحرير - لخم وجذام وغسان وعاملة والقين وأناس من قضاة في صف المسلمين معبرين عن توحدهم لطرد المحتل البيزنطي ((وأخذ أهل البلد من النصارى يرأسلون المسلمين فيقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ويقولون : يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا^(١٠))) ، ووقفت تلك القبائل ومعها طيء ونبهان وكهلان وخولان مع القائد خالد بن الوليد وجنده في الإغارة على رساتيق الشام بعد تحرير حمص^(١١) .

وعَدَّ المسلمون معركة اليرموك سنة ١٥هـ / ٦٣٦م التي حققوا فيها اكبر انتصار لهم في الشام معركة العروبة والإسلام المصيرية مع الروم ، كما تظهر ذلك صيحات أبي سفيان بن حرب الذي كان يقف على الكراديس قائلاً : ((الله الله إنكم زادة العرب وانصار الإسلام وانهم زادة الروم وانصار الشرك^(١٢))) ، تلك المعركة التي كان لها اكبر الأثر في

(٨) الازدي ، فتوح الشام ، ص ٥١ .

(٩) الازدي ، فتوح الشام ، ص ٦٩ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(١٠) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١١ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ١٦٩ : ينظر ايضاً : فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة : جورج حداد وعبد الكريم رافقه ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ م ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(١١) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(١٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٧ .

توضيح موقف القبائل العربية هناك حيال المسلمين ، وربما دفعت بعضاً منهم مصلحته الآنية وعدم فهمه النوايا الحقيقية للعرب المسلمين من زحفهم نحو الشام - لقتال الروم - للوقوف مع الروم في البداية ضدهم ، كما هو الحال مع جبلة بن الأيهم الغساني ومن تبعه من قومه وربما النتيجة غير المحسومة نهائياً للصراع العسكري الإسلامي مع الروم في بداية الأمر^(١) .

مع تحقيق المزيد من الانتصارات للعرب المسلمين أصبحت عزيمتهم على مجابهة البيزنطيين بهدف تحرير الأرض العربية تزداد أكثر معبرين عن ذلك من خلال التبدل الجذري في مواقف العرب الشاميين لصالح أبناء عموماتهم المسلمين ، حيث ((صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم^(٢))) ، وتتابع المدن والأرياف الشامية في إعلان انضوائها تحت السيادة العربية الإسلامية ، كأهل حماة الذين أبلغوا أبا عبيدة عامر بن الجراح بقولهم : ((أيها الأمير نريد ان نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحب إلينا^(٣))) ، وكذا الأمر بالنسبة لأهل قنسرين الذين أرسلوا إلى القائد خالد بن الوليد ((انهم عرب وانهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم^(٤))) ، واهل الرها من أعمال الجزيرة الذين صالحوا المسلمين على أن يرشدوا الضال ويصلحوا الجسور والطرق وينصحوا المسلمين^(٥) ، ومثلهم المصريون فيما بعد الذين كانوا نِعْمَ العون لجند الإسلام ، حيث أصلحوا الطرق والجسور وأقاموا لهم الإنزال والاضيايف والأسواق^(٦) ، وأعانوهم على فتح أبواب مدنهم لهم^(٧) ، وصمدوا على ما عاهدوا المسلمين عليه عند انتفاض الاسكندرية سنة ٢٥هـ / ٦٦٤م إلا بعض القرى الصغيرة^(٨)

(١) أشار ابن سيد الناس بإيجاز إلى مدى تأثير أمراء الغساسنة وارتباطهم المالي والسياسي آنذاك بالروم بقوله ((إنهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر)) ولا شك ان هذين الأمرين سينتفيان بسيادة دولة الإسلام وتحرير الشام . ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) ، الخراج ، ط ٣ ، المطبعة السلفية ، (مصر ١٣٨٢هـ) ، ص ١٣٩ .

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ص ١٠٠ - ١٠٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٠١ . ينظر أيضاً : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٣ ، ابن جيبش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص ٨٦ ، ١٠٦ ؛ ابن جيبش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ .

وبمثل هذه المواقف العربية المشرفة الرافضة للوجود الأجنبي المغتصب عبر العرب في تكريت من أياد والنمر بن قاسط عن دافع مهم من دوافع الحرب مع البيزنطيين ، إذ صارت العيون منهم تأتي المسلمين وتقل أخبار أعدائهم وتظهر لهم مودة أبناء تلك القبائل في داخل المدينة ، وتسألهم السلم لهم ، فامتحنهم المسلمون بعرض الإسلام عليهم ، ورجعوا إلى قومهم فطابقوهم على الإسلام ، ولما كبر الجند المسلمون وجاءوا الروم من أمامهم كبرت تلك القبائل من ورائهم ، فظن الأعداء انهم قد أحيط بهم ، فاضطرب أمرهم واهتزت صفوفهم وحلت بهم الهزيمة^(١) .

ومن المصادر ما يشير إلى أن (ماروثا) بطريق تكريت المنوفستي (اليعقوبي) كان قد فتح حصن المدينة للمسلمين ، وحال بذلك دون هروب الحامية البيزنطية ووقوعها في قبضة المسلمين^(٢) .

وإذا كان هذا التصرف من ماروثا نابعاً من حقه وعدائه للبيزنطيين بسبب الخلافات المذهبية معهم ، التي عبرت سابقاً عن مظهر من مظاهر الرفض العربي للهيمنة الأجنبية على المقدرات والأفكار العربية ، فانه في الوقت نفسه يؤكد هذا الرفض العربي ، وقد أكدته مرة أخرى الأحداث اللاحقة ، إذ وقفت (إيداد وتغلب والنمر) مع المسلمين وساعدتهم في تحرير الموصل بعد تحرير تكريت عام ١٦هـ / ٦٣٧م مباشرة^(٣) ، وهي الأسباب نفسها التي جعلت تغلب ومن معها من عرب الجزيرة الفراتية ((مسلمهم وكافرهم)) يقفون مع القائد الوليد بن عقبة أثناء تحرير اقليم الجزيرة في السنة نفسها^(٤) .

وعلى الرغم من عدم ورود إشارات تاريخية صريحة في المصادر المتيسرة تدل على ان العزم على تحرير الأرض العربية كان واحداً من أهم دوافع المجابهة مع الروم البيزنطيين على جبهة المغرب العربي ، إلا انه لا شك في ان هذا الدافع المهم كان من جملة الدوافع التي حدثت بالعرب إلى خوض الحرب مع البيزنطيين هناك زمناً طويلاً من العصر الأموي لاستكمال تحريرها ، على خلاف ما كان عليه الحال في جبهة الشام ومصر وإقليم الجزيرة إذ تم تحريرها من الهيمنة الرومية في العصر الراشدي .

(١) ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٧٢ . Posner , Opcit . 317
(٢) Ibid . , P. 320 .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٧٢ - ٧٤ ؛ ابن الأثير ، عز الدين بن الأثير الحسن بن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، (بيروت ١٩٦٥م) ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ .

جدول بالقبائل والبطون العربية وأماكن نزولها في الشام ومصر وإقليم الجزيرة

اسم القبيلة أو البطن	منازلها
تتوخ من قضاعه	كانت منازلها ما بين مشارف في الجنوب إلى بادية الشام في الشرق والشمال (١) ونزلوا حاضر قنسرين (٢) وفي حاضر حلب (٣) وفي معرة النعمان (٤) .
كلب	نزلوا في دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام إلى ناحية طى (٥) ، وفي حمص (٦) ، ونزلت مناظر الشام من البلقاء إلى حواريين إلى الزيتون (٧) ، وقيل انهم بأطراف الشام مما يلي البر من فلسطين إلى قنسرين وبلاد الشام (٨)
بنو عامر وبنو عمرو وحنظلة والطوال ومرة وخزيمة وأبان	كلهم من قضاعه وقد استوطنوا مناطق متفرقة من الشام (٩) .
الخشين والقين	من قضاعه أيضا نزلوا بحفير من الأردن ولهم حاضرتها (١٠) .
غسان	حلت بالشام في القرن الثالث الميلادي بعد تتوخ وسليح (١١) ونزلوا الجولان (١٢) والجابية (١٣) ومرج الصفر (١٤) ودمشق (١٥) .
جذام	نزلت مشارق الشام حوالي آيله (١٦) وقيل بين مدين إلى تبوك وإلى أنرح ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن إلى اللجوء واليامون إلى ناحية عكا (١٧) وفي معان وما يحيط بها (١٨) .
لخم	سكنت أطراف الشام (١٩) بين مصر والشام حوالي العريش (٢٠) وبالبلقاء (٢١) وفلسطين وبادية الشام (٢٢) .
بهاء	كانت تنزل شمالي منازل بلي من ينبع إلى عقبة آيلة (٢٣) وفي المناطق المحيطة بحماة .
بنو يربوع	نزلوا الحيار من برية قنسرين حتى عرف بهم فقيل حيار بني يربوع (٢٥)
ربيعة ومضر	سكنوا إقليم الجزيرة الفراتية وصار هذا الإقليم لها دياراً ومراعٍ لهم منذ قرون سبقت الإسلام (٢٦) .

تتوخ	سارت إلى إقليم الجزيرة الفراتية زمن الملك الساساني سابور الأكبر (٢٤١) - ٢٧٢م (٢٧) واستوطنتها .
تزيد وعشم ابنا حلوان وجماعة من علاف	نزلوا قرى وعمران إقليم الجزيرة مثل عبقر وآمد وميافقين (٢٨) وشهرزور
اياد	سكنت إقليم الجزيرة بحدود القرن الثالث الميلادي (٢٩) وفي القرن الرابع الميلادي (٣٠) إذ حلوا بتكريت والموصل والأقسام الغربية من إقليم الجزيرة (٣١) .
النمر بن قاسط وتغلب بن وائل	من بطون ربيعة ورد ذكر منازلها أيام الفتوحات الإسلامية حول هيت وتكريت (٣٢) .
كلب وقضاة	ورد ذكرها في بداية الدولة الساسانية ما بين تكريت والانبار وفي نواحي هيت أيام الفتح الإسلامي (٣٣) .
بنو شيبان من بكر ابن وائل	سكنوا إقليم الجزيرة الفراتية بعد حرب البسوس (٣٤) .
قضاة	هاجرت إلى مصر في الجاهلية واستوطنتها لما أصاب بلادها القحط (٣٥) .
بنو حوتكه بن سود من بطون قضاة	هاجروا وسكنوا مصر بعد الحرب التي وقعت بين أبناء هذه القبيلة واستمر وجودهم هناك إلى ما بعد الفتح الإسلامي (٣٦) .
بهاء	هجرت منازلها شمالي منازل بلي من ينبع إلى عقبة آيلة وانتشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر (٣٧) .
طئ ولخم وجذام	نزلت المناطق الشرقية من مصر (٣٨) .
بلي	استوطنت بين قنا والقصير من مصر (٣٩) .
جماعات من لخم	نزلت منطقة القواصر ما بين الفرما والفسطاط (٤٠)

الهوامش

- (١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٤ ؛ رينية ديسو ، العرب ، ص ١٦٠ - ١٦١ ، حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ٧٩ .
- (٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٧ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
- (٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٤ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

(٥) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٥٠ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦

(٦) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٤ ؛ آشور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٢٢ .

(٧) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٢٦ .

(٨) حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ٨٠ ؛ جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص ١١٩ .

(٩) البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ ابن حزم الأندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق وتعليق : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، (مصر ١٩٦٢م) ، ص ٤٤٦ .

(١٠) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٥٢ ؛ ينظر أيضا : الأصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ، الأغاني ، تحقيق : عبد الكريم العزباوي و د. عبد العزيز المطر ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، (بيروت د.ت) ، ج ١٦ ، ص ١٤ .

(١١) ابن حبيب ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٣٤٥هـ) ، المحبر ، اعتناء : ايلزه ليختن شتيتز ، دار الآفاق الجديدة ، (بيروت د.ت) ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، اليعقوبي ، تاريخ، ج ١ ، ص ص ٧٦ - ٧٧ .

(١٢) الجولان : قرية وقيل جبل من نواحي دمشق من عمل حوران ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(١٣) الجابية : قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١ .

(١٤) مرج الصفر : مرج بدمشق . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٤٤ .

(١٥) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٦ .

(١٦) ابن حزم ، جمهرة انساب ، ص ٤٢١ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(١٧) الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٣٤هـ) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق : محمد بن علي ألا كوع ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ١٩٨٩م) ، ص ٢٤٣ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٢

(١٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

- (٢٠) ابن حزم ، جمهرة انساب ، ص ٤٢٤ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .
- (٢٢) جواد علي ، المفصل ، ج ٤ ، ص ٤٦٢ ؛ آشتور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٢٢ .
- (٢٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٧ .
- (٢٤) آشتور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٢٢ .
- (٢٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٧ .
- (٢٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٤١ ، ٢٩ .
- (٢٧) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٢٣-٢٤ . عن التسلسل التاريخي لاستيطان القبائل العربية في اقليم الجزيرة بالتفصيل ينظر : محمد جاسم المشهداني ، الجزيرة الفراتية ، ص ص ١٥٤ - ١٦٠ .
- (٢٨) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ينظر أيضا ، ص ٢١-٢٣ .
- (٢٩) Posner, Opcit, P 127
- (٣٠) Ibid. , P12 .
- (٣١) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٠ . . Ibid , P 15
- (٣٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٥ - ٣٦ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٧ .
- (٣٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ ، الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٣ .
- (٣٤) محمود عبد الله ابراهيم العبيدي ، بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ١٩٨٣ م ، ص ٢٩ .
- (٣٥) د. محمد بيومي مهران ، مصر ، ط ٤ ، دار المعرفة الجامعية ، (الاسكندرية ١٩٨٨ م) ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٥ ، محمد عزة دروزة ، عروبة مصر في القديم والحديث أو قبل الإسلام وبعده ، ط ٢ ، المكتبة المصرية للطباعة والنشر ، (بيروت ١٩٦٣ م) ، ص ٣٨ - ٣٩ .
- (٣٦) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٤٠ كذلك ص ٢٥ .
- (٣٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٧ .
- (٣٨) محمد بيومي مهران ، مصر ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٥ .
- (٣٩) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٥ .
- (٤٠) ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

الرد على التحديات البيزنطية

على الرغم من تلازم دوافع المجابهة مع البيزنطيين وعدم إمكانية الفصل بينها ، وتناول كل واحد بمعزل عن الآخر ، لاسهامها مجتمعة في وقوع حدث واحد - شأن أي حدث تاريخي - وهو الصراع الإسلامي - البيزنطي ، فإن الرد على التحدي الرومي كان الأكثر وضوحاً ، لاسيما أن العلاقة مع الروم أخذت طابعاً حربياً عدائياً خلال العصرين الراشدي والأموي .

وفضلاً عما واجهه الإسلام من تحديات داخلية من مشركي قريش وسائر العرب واجهه أيضاً تحديات خارجية من الأمم والشعوب المجاورة التي بلغتها رسالة الإسلام ضمن رسائل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو ربما تتوغل من أخبار الإسلام في أرض العرب وعلى أطرافها .

وقد بدا ذلك بصور شتى في عهد النبوة^(١) وعصر الخلفاء الراشدين ، لذا كان على المسلمين ازاء ذلك اذا ما عزموا على الانطلاق برسالتهم إلى الأمم والشعوب الأخرى - ان يضعوا في حسابهم مجابهة المخاطر وان يتبنوا سياسة حربية بعيدة المدى قائمة على الردع الوقائي والدفاعي للحيلولة بين الخصم البيزنطي وبين اتخاذ اية إجراءات أو مواقف من شأنها ان تحول دون تحقيقهم لأهدافهم الكبرى ، انطلاقاً من قوله عز وجل : ((واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...^(٢))) وقوله تعالى : ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين^(٣))) .

ولذلك فإن توجيه الجند المسلمين لقتال الروم ومجابهتهم منذ أيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكن تعدياً من جانبهم ولا لإجبارهم على اعتناق الإسلام قسراً ، بل رداً على اعتداءاتهم ودفعاً لمخاطرهم ، فما وقعتا مؤتة ٨هـ / ٦٢٩م وتبوك ٩هـ / ٦٣٠م وما

(١) عدي سالم عبد الله الجبوري ، دوافع الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة تكريت ١٩٩٨م ، ص ص ١٦٤ - ١٦٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠ .

جرى فيهما من أحداث إلا شاهد على ذلك^(٤) ، كما إن إصرار الخليفة أبي بكر رضي الله عنه على إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى جبهة الروم^(١) ، على الرغم من تدهور الأوضاع في الداخل بسبب حالة الردة في جانب منه يحمل دلالات كبرى على إدراك الخلافة للخطر الحقيقي الصادر من البيزنطيين ، ولا سيما أن انتصارهم الكبير على الفرس لا يزال صدها يسمع في أنحاء بلاد العرب وقد تحدثهم أنفسهم بغزو المسلمين^(٢) في عقر دارهم بعد أن أصبح لهم كيان سياسي يلفت الانتباه في قلب صحراء العرب . وما مشورة الصحابي عبد الرحمن بن عوف لأبي بكر (رضي الله عنهما) حين عزم على إرسال الجيوش نحو الشام إلا شاهد يؤكد ذلك وينم في الوقت نفسه عن فكر عسكري تعبوي مبدع قائم على الفهم السليم لطبيعة هذه المرحلة من المجابهة إذ جاء فيها : ((يا خليفة رسول الله : إنها الروم وبنو الأصفر حدّ حديد ، وركن شديد ، والله ما أرى أن تقم الخيل عليهم اقحاماً ولكن تبعث الخيل فتغير في أدنى أرضهم وترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضرو بهم^(٣))) .

ومع اشتداد الصراع الحربي مع الروم وتشابك حلقاته ، تتأكد الأبعاد ((الاستراتيجية)) الدفاعية من وراء المجابهة الإسلامية لهم وعلى كل الجبهات ، فما معارك تحرير الشام الكبرى إلا شواهد على ذلك وعلى شدة التحدي البيزنطي للإسلام الموجب للردع بكل ما أوتوا من قوة وعُدّة حرب ، ففي اجنادين - مثلاً - ١٣هـ / ٦٣٤ م تجمع من الروم زهاء مائة ألف مقاتل سرب هرقل أكثر وتجمع البقية من النواحي^(٤) ، لحرب المسلمين والحيلولة دون مضيقهم ، وفي كتاب القائد خالد بن الوليد إلى الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) وصف دقيق لمقدار التحدي النصراني العقائدي والسياسي للمسلمين^(٥) ، مما أضطر العرب المسلمين إزاء ذلك إلى تجميع قواتهم المنتشرة في الأصقاع الشامية وائتمروا جميعاً بأمر خالد بن

(٤) ابن الزبير ، عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) ، مغازي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، جمعه وحققه : د. محمد مصطفى الاعظمي ، مكتب التربية لدول الخليج العربي ١٩٨١م ، ص ٢٠٥ ؛ الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ص ٩٨٩ - ٩٩٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٥ ؛ عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٨م ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٤) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ص ٢٩ - ٣٠ ، ٨٤ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٦ .

(٥) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

الوليد الذي اتبع أدق أساليب الحشد والاستنفار والتعبئة والقتال حتى تمكن وجنده في النهاية من هزيمة الروم في هذه الواقعة في أخريات خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ^(١) .

وعلى الرغم من ذلك ما زال البيزنطيون مصريين على قتال المسلمين وردهم وهو أمر لم يرغب عن حسابات الخلافة الراشدة وقادتها لحظة واحدة ، الذين عملوا على اتباع أسلوب تعبوي دقيق ومركز قائم على ضرب مراكز قوة العدو الحيوية ، بغية القضاء المبرم على مصادر المقاومة لديه وإنهاء أي بارقة أمل له في تواصل الإمداد من القسطنطينية ، كما يفهم من مشورة ^(١) القائد أبي عبيدة لجنده أثناء المسير إلى دمشق وحمص بعد دحر الروم في وقعة فحل سنة ١٣هـ / ٦٣٤م إذ كان القائد ابو عبيدة على يقين راسخ بان تواصل الخطر البيزنطي قائم ما بقي هرقل بين ظهرانيهم ، لان في بقائه هناك دعماً معنوياً للروم على المطاولة واستمرار الصراع ، وقد تجلّى ذلك للمسلمين حين راسل هرقل أهل دمشق الذين طال عليهم حصار المسلمين وأبدوا رغبة الاستسلام ^(٢) ، وحين استجلب أمم النصرانية عليهم في اليرموك سنة ١٥هـ / ٦٣٦م ^(٣) ، سعياً منه لاجتثاث الإسلام وجنده ، لانه بات يهدد كيانه السياسي في الشام وسائر ارض العرب المحتلة من قبله ، مما أملّى على المقاتلة المسلمين التحشد في مكان واحد بخطة تعبوية ذكية من جانبهم أوجبتها عليهم خطورة المرحلة ، ولسحب الحشود البيزنطية إلى منطقة القتل عند نهر اليرموك .

ولاشك أن قادة المسلمين كانوا يقدرّون ما يمكنه عدوهم لهم ، من خلال حصولهم على معلومات تؤكد عزمه على القضاء عليهم قضاءً ناجزاً ، هذا ما أوضحت مراسلات القائد أبي عبيدة الجراح مع الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ^(٤) ، وان من يبحث في تفاصيل وقعة اليرموك سيدرك ذلك جيداً ، ولذا فأنها كانت بحق معركة تحدّ فاصلة في تاريخ الصراع الإسلامي - البيزنطي على الجبهة الشامية ، وذلك لان انتصار المسلمين فيها فتح الطريق أمامهم واسعاً لاتمام تحرير المدن الشامية الأخرى على الرغم من

(٦) ينظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ص ٨٧ - ٩٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ص ١٩٥ - ٢٠٢

(١) ينظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٣) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٥٢ ، ١٥٥ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٧ ، ابن اعثم ، الفتوح ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٤) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٨٠ ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، ج ١ ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن حبيش ، الغزوات ،

ج ١ ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

المقاومة المتفاوتة في شدتها هنا وهناك ، وهو أمر طبيعي تطلبت مبررات حماية دولة الإسلام ، لاسيما بعد ان هرب هرقل وهو عازم على مواصلة الحرب ضد المسلمين لاستعادة أغنى المقاطعات - التي استلبها من أهلها يوماً ما - اقتصادياً ، بعد ان حرروها ، كما يفهم من عبارته الشهيرة التي أجمعت المصادر التاريخية الإسلامية على ذكرها مع اختلاف طفيف في النص : ((عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقض منك وطره وهو عائد^(١))) .

فقد جاء في كتاب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى القائد يزيد بن أبي سفيان^(٢) : ((... ثم سرّ الى قيسارية فأنزل عليها ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحت من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها وهم عدوكم وإلى جانبكم وانه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته متبعاً ، ولو قد فتحتوها قطع الله رجاءه من جميع الشام)) وبهذا يكون الخليفة عمر (رضي الله عنه) قد شخص بفكره العسكري الفذ الأهمية العسكرية التعبوية للمدن الساحلية ومنها قيسارية وما لتحريرها من أبعاد مهمة وكبيرة في تغيير مجرى الصراع العسكري مع الروم ، من خلال إنهاء أي تفكير لهم في استعادة ما فقدوه في الشام وهذا ما أكدته الأحداث التاريخية اللاحقة في العصر الأموي .

وللأسباب آنفة الذكر كان على المسلمين مجابهة التحديات البيزنطية التي تهددهم في اقليم الجزيرة واتمام تحرير تلك النواحي ، إذ ليس بإمكانهم الاحتفاظ بالفتوح الشامية والتقدم شمالاً لأدحر عدوهم الروم في عقر داره وهم لا يزالون يمثلون خطراً حقيقياً وعاملاً تحد مباشراً عليهم في اقليم الجزيرة ومصر ، إذ انهم ما فتئوا يهددونهم ويجاهرونهم العداء بوصفهم المعين الذي رقد الروم بالمقاتلة يوم اليرموك ١٥هـ / ٦٣٦م ، ومن خلال تحركهم واستئثارهم هرقل وقواته ومشاركتهم إياهم أثناء حصارهم لحمص عام ١٧هـ / ٦٣٨م^(٣) ، وكذلك تحرك الروم وتجمعهم بزعامة (الانطاق) لمهاجمة المقاتلة المسلمين في تكريت والموصل سنة ١٦هـ / ٦٣٧م^(٤) ، وما يمثله ذلك بلا شك من خطر عليهم في الشام والعراق

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٢) الأزدي ، فتوح الشام ، ص ٢٧٦ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٥٠-٥٣ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٢٤ ، ٣٥-٣٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٧

لذا توجه المسلمون لرد التحديات وتحرير هذا الإقليم الحيوي المهم ، فتهافت مدنه تباعاً صلحاً وعنوة إمام جحافل المسلمين بين الأعوام ١٧ - ١٩ هـ / ٦٣٨ - ٦٤٠ م^(٥) .

وكانت ضرورات إنجاح العمل العسكري ضد البيزنطيين تملي عليهم التوجه نحو مصر وشمال أفريقيا ، إذ مما يخالف السياقات العسكرية ولغة المنطق أن يندفعوا بعيداً في مجابهة الروم لا سيما شمالاً ويدعوا قواتهم في مصر تشكل عامل تحدٍ يهدد قواعدهم في الشام والمدينة المنورة ، اذا ما علمنا بقرب المسافة جغرافياً ولامتلك الروم اسطولاً بحرياً كبيراً ومؤثراً هناك ، خلافاً لما كان عليه حال المسلمين وقتذاك^(١) .

لهذا وجب على المسلمين تحرير مصر قطعاً للصلة بينها وبين بقية الجيوب الرومية في الشام وللحيلولة دون وصول أية معونات أو إمدادات عسكرية من شأنها أن تهدد أمن وسلامة القوات الإسلامية في الشام ، ويبدو أن القائد عمرو بن العاص كان قد استحضر كل تلك الاعتبارات حين طلب من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الإذن بالتوجه صوب مصر أثناء لقائه معه في الجابية بعد تحرير بيت المقدس عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م في حوار مهم جاء فيه : ((يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر ... إنك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم^(٢))) ، وهذا الإلحاح من جانب القائد عمرو بن العاص ناجم بلا شك عن تقديره لحجم الخطر الذي ستشكله القوات البيزنطية هناك لاسيما بعد هروب أرطوبون حاكم بيت المقدس البيزنطي إلى مصر اثر هزيمته في فلسطين^(٣) ، وما سيقوم به تأليبهم ودفعهم لحرب المسلمين أملاً في استعادة ما فقدوه ، فضلاً عن إدراكه عمق الترابط المصيري والتاريخي بين مصر والشام على مختلف الأصعدة عبر التاريخ^(٤) ، وما له من آثار عسكرية واقتصادية وسياسية مباشرة على الصراع الحربي الإسلامي مع البيزنطيين . وقد أكدت ذلك الأحداث اللاحقة ، فقد استنكر الإمبراطور هرقل نفسه إذعان المقوقس حاكم مصر القبطي لشروط الصلح الذي عقده مع المسلمين^(٥) ، وقام بتجهيز حملة

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٧٢ - ١٨٠ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٥٠ - ٥٦ .

(١) مجموعة باحثين ، تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الاسكندرية ، (مصر ١٩٧٢ م) ، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ص ٥٥ - ٥٦ ؛ فتوح مصر والمغرب ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٠٨ ؛ ابن حبيب ، الغزوات ، ج ١ ، ص ص ٣١٨ ، ٣٢٢ .

(٤) إبراهيم احمد العدوي والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ص ٢٦ - ٢٨ .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٢ ؛ ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، القسم الخاص بمصر ، تحقيق : د. زكي محمد حسن وآخرين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، المغرب ١٩٥٣ م ، ص ٣١ .

بحرية أرسلها بعد ذلك إلى هناك وألب الروم على إغلاق الاسكندرية أمام المسلمين وإيذانهم بالحرب ، إذ كانت رسله ((تختلف إلى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظهرت العرب على الاسكندرية إن ذلك إنقطاع الروم وهلاكهم^(٦))) ، وبذا تتأكد الأهمية البالغة لمصر عموماً وللإسكندرية خصوصاً بالنسبة للروم ، ولهذا فلا غرابة - وتعبيراً عن تحدي المسلمين - أن يكتتب روم الاسكندرية فيما بعد ملكهم قسطنطين بن هرقل (٦٤١-٦٦٨ م) ويحثوه على حرب المسلمين وينتقضوا عليهم بعد فتحها ، بعد ان بعث لهم ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة والسلاح مع أحد قادته ، مما اضطر المسلمون إلى التصدي لهم فأعيد فتحها مجدداً سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م^(١) .

وقد ظهرت الأهمية العسكرية لتحرير هذا القسم الحيوي من أرض العرب فيما بعد من خلال إسهامها الفاعل في رفد جبهات الحرب مع الروم بالتعزيزات الحربية والاقتصادية براً وبحراً عبر الصوائف والشواطئ البحرية المنطلقة من هناك سنوياً ، إذ كان لها أبلغ الأثر في مجريات الصراع الحربي الإسلامي البيزنطي ، كما سنرى في هذا البحث .

لم تزل تحديات البيزنطيين للمسلمين قائمة وتشكل خطراً حقيقياً عليهم يوجب الرد عليها في العصر الأموي ، وقد تجلى ذلك في أكثر من موقف عدائي بيزنطي ، مستغلين كل حالة من الوهن والفتور قد تتاب قوة المسلمين الحربية ، بسبب ما قد يعصف بهم من اضطرابات ومشاكلات سياسية بين الحين والآخر ، ومثل هذا ما حصل عقب وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م ، إذ تعرضت ثغور المسلمين البحرية في الشام لهجمات رومية مدمرة ومتكررة أسفر عنها تخريب أسوار ومساجد بعض منها كعسقلان وقيسارية وصور وعكا^(٢) ، مما اضطر الخليفة عبد الملك بن مروان ورد على تحدياتهم تلك إلى ترميم المتهدم من تحصينات تلك الثغور ، وشحنها بالمقاتلة الأشداء وبالعدد الحربية المناسبة^(٣) .

فضلاً عن ذلك بدت التحديات الرومية للمسلمين بصورة جلية في جبهة أخرى من جبهات الحرب معهم في شمال أفريقيا ، إذ انهم استغلوا الاضطرابات السياسية التي عمت دولة الإسلام بعد استشهاد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م ، فأعادوا

(٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٦ ؛ ابن جبير ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٧٥ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣١٠ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٤٤-١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٤٤-١٤٥ .

أحتلال ما حرره المسلمون من اراض في شمال أفريقية قبل هذا التاريخ ، لذا كان على الخلافة الأموية انتهاج سياسة استنزاف حربية قائمة على إرسال الحملات التعرضية – الدفاعية – من مقرها المتقدم بالفسطاط لاجل إعياء العدو وإلحاق الضرر بقواته ، لاسيما وانه – أي الخلافة الأموية – قد تركز جهدها الحربي الرئيس صوب القسطنطينية بوصفها بؤرة التحدي الرئيسة والخطر المتواصل .

ووفقاً لذلك أرسلت حملة بقيادة معاوية بن حديج قاتل فيها الروم في مواضع عدة ما بين السنوات (٤٥ - ٥٠ هـ / ٦٦٥ - ٦٧٠ م ^(١)) ، إلا أن ذلك كله لم يمهّد التحدي الرومي ، لذا وجب على المسلمين إنشاء قاعدة ثابتة لهم هناك ترسخ سيادتهم وتضعف المقاومة البيزنطية هناك وهي سياسة اتبعها عقبة بن نافع الفهري (ت ٦٥ هـ) وأعلنها حين شرع باختطاط مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م بقوله : ((إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام وإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر ^(٢))) ، وباختطاط هذا الثغر الحربي الجديد قوي ((جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها ^(٣))) ، إلا أنه لم يمهّد حالة التحدي البيزنطي ، بل تحفز الروم وحلفائهم لمواصلة الحرب فتصدى لهم أبو المهاجر دينار ^(٤) خليفة عقبة في معارك طويلة ^(٥) وجابههم عقبة في ولايته الثانية (٥٥ - ٦٥ هـ / ٦٧٥ - ٦٨١ م) في معارك عنيفة في المغرب الأوسط والأقصى ، كان من نتائجها ان توطدت السيادة الإسلامية هناك أكثر من ذي قبل ^(٦) حتى قيل ((ذهب عز الروم من الزاب وذلوا ^(٧))) .

ومع هذا كله لم يزل البيزنطيون يكررون تحدياتهم – التي لم تنته – ويجدونها كلما بدا من المسلمين وهن أو توان ، فقد عاودت أساطيلهم مهاجمة القواعد الإسلامية على ساحل

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ص ١٧ - ١٨ .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢٠ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ .

(٤) أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري أستعمله على أفريقية عندما جمع له الخليفة معاوية مصر وأفريقية سنة ٥٥ هـ ، ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢١ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

(٦) الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ص ٤٠ - ٤٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

(٧) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٣ . الزاب : كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٦٣ .

المغرب العربي فأحتلوا القيروان عام ٦٥هـ/٦٨٤م بعد انسحاب المسلمين منها إلى مصر
بزعامه زهير بن قيس البلوي الذي استشهد فيما بعد سنة ٧١هـ/٦٩٠م على يد مقاتلي
الأسطول البيزنطي الذين نزلوا على الساحل^(٨) .

إزاء هذه الحالة من الحرب السجال كان على الخلافة الأموية أن ترد رداً حازماً
قائماً على سياسة الردع الهجومي لإنهاء كل أمل للبيزنطيين في معاودة احتلال تلك المناطق
وتهديد السيادة العربية الإسلامية هناك وهذا ما حدث على يد حسان بن النعمان الغساني^(١)
في خلافة عبد الملك بن مروان ، الذي أرسل إلى هناك سنة ٧٣هـ/٦٩٢م^(٢) ، وما أعقب
ذلك من عمليات حربية بقيادة موسى بن نصير في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ -
٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٤م) الذي قضى على آخر مظاهر التحدي البيزنطي في بلاد المغرب
العربي^(٣) وإذا كانت جهود هذين القائدين قد وضعت حداً للتهديدات الرومية - نوعاً ما -
في هذا الشطر من ميدان المجابهة ، فإن تحديات البيزنطيين ظلت قائمة ومتواصلة طيلة أمد
الحرب معهم في بقية الجبهات ، وهذا ما تجسد في غاراتهم البحرية على مدينة دمياط^(٤)
الثغرية في الساحل المصري و أسرهم أمير بحرها خالد بن كيسان سنة ٩٠هـ^(٥) / ٧٠٨م
الذي ذهبوا به إلى ملكهم فاعاده إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، واغارت سفن الروم على

(٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ص ٣٧ -
٣٨ ، الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ص ٦٩-٧٠ .

(١) حسان بن النعمان بن المنذر الغساني ، أمير المغرب افتتح في المغرب بلاداً .. وحكم هناك نيافاً وعشرين سنة ،
قبل توفي سنة ٨٠هـ ؛ الذهبي شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٨٤هـ) ، سير أعلام النبلاء وبهامشه أحكام
الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد بن عرامة العمروي ، ط ١ ، دار
الفكر ، (بيروت ١٩٩٦م) ، ج ٥ ، ص ص ١٥٩-٢٦٩ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص ٢٦٩-٢٧٠ ؛ الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ص
٥٥-٦١ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٠٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .
(٤) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم والنيل ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،
ج ٤ ، ص ٣١٤ .

(٥) خالد كيسان ولي غزو البحر في أيام بني أمية . ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤١٢ ؛ ابن عساكر ،
تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ١٨١ ، ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو القاسم بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ،
النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، (مصر
د.ت) ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

تنيس^(٦) سنة ١٠١هـ / ٧١٩م ، وهاجموا بسفنهم الحربية ثغر الاسكندرية البحري سنة ١١٨هـ^(٧) / ٧٣٦م ، وعاودوا غاراتهم البحرية على ثغر دمياط^(٨) سنة ١٢١هـ / ٧٣٨م ، وفي السنة نفسها هجمت سفنهم الحربية على سفن التجار الراسية في ثغر بيروت البحري فتصدى لهم المسلمون وردوهم واستنفدوا ما أخذوا^(٩) .

خلاصة القول ان التحديات الرومية للإسلام والمسلمين التي أتخذت صوراً شتى منذ العصر النبوي وحتى العصر الأموي بل وما بعد ذلك ، كانت دافعاً رئيساً من دوافع المنازلة معهم ، مما أوجب على المسلمين أن يعدّوا للقتال عدته واهبته ، إذ ان هذه التحديات المتواصلة وسمت العلاقات الإسلامية – البيزنطية على الأغلب آنذاك بسمة العداء المستحكم والمتواصل ، فانتهجوا جراء ذلك سياسة حربية قائمة على معادلة طردية مؤداها إبعاد الأخطار الرومية عن دار الإسلام بدفع حدود المجابهة ومناطق التماس معهم أبعد ما يمكن كلما تعاظمت تلك الأخطار والتحديات – إلى جانب المهمة الأساسية وهي نشر الإسلام – وتضييق الخناق عليهم بكل الوسائل والأساليب بوصفهم العدو الأكثر خطراً على الإسلام في العصر الأموي بعد إندحار الفرس وانهيار إمبراطوريتهم في العصر الراشدي ، فبالذلالهم وردعهم سيرتدع من سواهم من أعداء العرب المسلمين الآخرين ، وهي سياسة فاعلة وضرورية نبّه إليها الله عز وجل بقوله : ((واعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم^(١٠))) ، وقد انتهجها الخليفة معاوية بن أبي سفيان وهو صاحب التاريخ الطويل في مجالدتهم وحث المسلمين على مجاهدة الروم بقوله لهم : ((شدّوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم^(١١))) .

(٦) تنيس : جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٧) المقرئزي ، تقي الدين احمد بن علي المقرئزي (ت ٨٤٥هـ) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية ، مكتبة المثنى ، (بغداد ١٩٧٠م) ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٩) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ص ٦٦-٦٧ .

(١٠) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(١١) خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : اكرم ضياء العمري ، ط ١ ، مطبعة الآداب ، (النجف ١٩٦٧م) ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ص ١٥٨-١٥٩ .

الفصل الثالث

الخطة التعبوية والاستحضارات الدفاعية في الثغور

مفهوم الثغر في اللغة والاصطلاح

اهمية الثغور عند المسلمين في صدر الاسلام والعصر الأموي

جغرافية الثغور واثرها في رسم الخطة التعبوية واقامة الاستحضارات الدفاعية

الخطة التعبوية والاستحضارات الدفاعية في الثغور

أساليب التحصين ووسائله في الثغور

تجهيزات مجاهدي الثغور في العصر الاموي

مفهوم الثغر في اللغة والاصطلاح

الثغر لغةً واصطلاحاً : الثغر بالفتح ثم السكون هو كل موضع قريب من أرض العدو يسمّى ثغراً ، كأنه مأخوذ من الثُغرة وهي الفرجة في الحائط^(١) ، وهو ((موضع المخافة من فروج البلدان^(٢))) ، والثغور هي مواضع كثيرة على طول حدود دار الاسلام مع دار الحرب^(٣) على مختلف الجبهات ، ومنها ثغور الشام والجزيرة المواجهة للروم البيزنطيين موضوع البحث.

والمقصود بالثغر في هذا البحث مجموعة القلاع والحصون التي أقيمت على طول حدود التماس مع البيزنطيين على هيئة خطوط دفاعية للتصدي لغارات البيزنطيين المتكررة على دار الاسلام طيلة مدة الصراع بين الطرفين ، وهي مراكز لحشد الجيوش وتنظيمها والانطلاق بها للجهاد صوب بلاد الروم صيفاً وشتاءً^(٤) .

وقد احتفظت هذه الترتيبات الدفاعية باسمها هذا في العصرين الراشدي والأموي حتى استحدثت الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م) تنظيماتاً دفاعياً آخر عزز به جبهة الثغور سماه (العواصم) لأنها تعصم الثغر وتمده في اوقات

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢ ؛ ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت د.ت) ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ، الزبيدي ، السيد محمد مرتضى الحسين الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : ابراهيم التريزي ، ج ١٠ ، ص ٣٢٢ .

(٢) الجوهري ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ؛ الرازي ، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) ، مختار الصحاح ، دار الرسالة ، (الكويت ١٩٨٣م) ، ص ٨٤ ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

(٣) ينظر : ابن الاثير ، مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٧هـ) ، النهاية في غريب الحديث والاثار ، تحقيق : طاهر احمد الزاوي ، محمد محمود الطناحي ، (المكتبة الاسلامية) ، (د.ت) ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٤) بسام العسلي ، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والامويين ، ط ١ ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٧٤م) ، ص ٢٢٣ ؛ مهدي حسوني مهدي ، اقليم العواصم والثغور ، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة المستنصرية ١٩٨٥م ، ص ص ٨-٩ .

لنفير^(١) ، ((إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر واقعة في نحر العدو وعساكر المسلمين حافظة لها^(٢))) ، وكانت أنطاكية^(٣) ، المركز الإداري لهذا التنظيم الجديد^(٤) .

وكانت الثغور الإسلامية التي ستكون موضوع البحث على نوعين طبقاً لموقعها الجغرافي ، فأما التي تقوم على السواحل البحرية فإنها تدعى ((الثغور البحرية)) في حين سميت تلك التي تقع على الحدود البرية بـ ((الثغور البرية)) وما كان من الثغور شمال الشام فقد عرفت بـ ((الثغور الشامية)) والتي تقع مما يلي الجزيرة فسميت بـ ((الثغور الجزرية^(٥))) ، ولابن حوقل رأي آخر مؤداه ان : ((.. بعض الثغور كانت تعرف بثغور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة وكلها من الشام وذلك ان كلما كان وراء الفرات فمن الشام وانما سمي من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون لانها من الجزيرة واعمالها ...^(٦))) .

ومما هو جدير بالذكر أن ثغور المسلمين البرية مع الروم لم تكن ثابتة دائماً ، بل كانت تتسع باتجاه العمق البيزنطي وتتكمش تبعاً لقوة الطرفين وضعفهما وعلى طول زمن الصراع^(٧) .

(١) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١٨٦ .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .

(٣) أنطاكية : قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من اعيان البلاد وامهاتها ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٤) البلاذري ، فتوح اللدان ، ص ١٦٤ وما بعدها ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .

(٥) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ص ١٨٥-١٨٦ .

(٦) صورة الارض ، ص ١٥٤ ؛ الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٣ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٧) ينظر : ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص ص ١٦١-١٦٦ .

اهمية الثغور عند المسلمين في صدر الاسلام والعصر الاموي

أدرك المسلمون قيادة ورعية أهمية الثغور على مختلف الجبهات ، ومنها الثغور المتاخمة للروم بوصفها مواضع المراقبة^(١) والجهاد منذ وقت مبكر ، وقد وردت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عدة أحاديث حثّ فيها المؤمنين على المراقبة في الثغور والجهاد يقينا منه (صلى الله عليه وسلم) بضرورة ذلك الأمر حماية للاسلام وأهله ، فقد اورد الشيخان في صحيحيهما عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها^(٢))) وعنه (صلى الله عليه وسلم) : ((رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم سواه من المنازل^(٣))) .

وكان هذا الأمر واضحاً في أذهان المسلمين وتأكد لهم أكثر باحتدام الحرب مع الروم البيزنطيين ، فحرصوا أشد الحرص على شحن الثغور بالعدد والعدة اللازمة واسترخاص ما ملكوا في سبيل ذلك ، فقد روي ان القائد خالد بن الوليد اعتزل في أيامه الاخيرة الى ثغر حمص وحبس خيلاً وسلاحاً فلم يزل مقيماً مرابطاً هناك حتى نزل به ، فدخل عليه ابو الدرداء^(٤) عائداً له فقال خالد بن الوليد : ((إن خيلي هذه التي حبست في الثغر وسلاحي هو على ما جعلته عليه عدّة في سبيل الله وقوة يغزى عليها ويعلف من مالي...^(٥))) ، ولم يغب عن اذهان المسلمين دور مقاتلة الثغور في درء خطر الاعداء والذب عن الاسلام ، بل رأوا أن توظف قدرات الامة المادية والبشرية وطاقاتها للجهاد

(١) المراقبة ((هي المقام في ثغر العدو لاعزاز الدين ودفع المشركين عن المسلمين واصل الكلمة ربط الخيل قال الله تعالى : ((ومن رباط الخيل)) - سورة الانفال آية ٦٠ - فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليرهب العدو به وكذلك يفعل عدوه... ومنه سمي الرباط رباطاً للموضع المبني في المفازة ليسكنه الناس لياًمن المارة من شر اللصوص)) . الشيباني ، محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٠هـ) ، شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، مطبعة مصر ، (مصر ١٩٥٨م) ، ج ١ ، ص ٦ .

(٢) البخاري ، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، صحيح البخاري ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، ط ٣ ، دار ابن كثير ، (اليمامة ١٩٨٧م) ، ج ٣ ، ص ١٠٥٩ .

(٣) الدارمي ، ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) ، سنن الدارمي ، دار الفكر ، د.ت، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) ابو الدرداء عويمر بن عامر ويقال عويمر بن قيس الانصاري الخزرجي شهد احدى وما بعدها من المشاهد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) توفي سنة ٣٢هـ وقيل ٣٣هـ . ابن الاثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ٢٧١ .

في مثل تلك المواطن الشريفة لا أن تستنفذ في الفتن والصراعات الداخلية غير المبررة ، وهذا ما بدى جلياً من نص الابيات الشعرية التي هجا بها حسان بن ثابت (ت ٥٤هـ —) شاعر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولئك الذين تأمروا على الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٥هـ / ٦٥٥هـ بقوله^(١) :

أتركتم غزو الدروب وجئتم لقتال قوم عند قبر مُحمّد
فلبنس هدي الصالحين هديتم ولبنس فعل الجاهل المُتعمّد

وهذا يدل بلا شك على ان هذا الواجب الجهادي في هذه المرحلة من أيام الدولة العربية الاسلامية كان اشرف واسمى واجب ينبغي على المسلمين السعي الجاد والدؤوب لتحقيقه وهو أمر أكدته كلمات القائد عمرو بن العاص (رضي الله عنه) الموجهة الى المسلمين يوم صفين ٣٧هـ / ٦٥٧م حين أشار عليهم برفع المصاحف التي جاء فيها : ((كتاب الله بيننا وبينكم مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ مَنْ لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ وَمَنْ لجهاد الروم ؟ ..^(٢))).

وكان هذا الامر ايضاً في ذهن الخليفة الحسن بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنهما) الذي أثر التنازل بالخلافة لمعاوية بن ابي سفيان عام الجماعة سنة ٤١هـ / ٦٦١م مبرراً ذلك لأحدهم بقوله ان الفتنة قد طالت ((وسفكت فيها الدماء وقطعت فيها الارحام وقطعت السبل وعطلت الفروج ، يعني الثغور^(٣))) .

فضلاً عن ذلك عُدت ولاية الثغر و إدارته وقيادة الجهاد فيه ركيزة من ركائز إقامة الدولة في نظر المسلمين - آنذاك - وضرورة لا حَوْلَ عنها ، حتى إن اياس بن معاوية^(٤) قال : ((لابد للناس من ثلاثة : لابد لهم من أن تأمن سبلهم ويختار لحكمهم حتى يعتدل الحكم فيهم وأن يقام لهم بأمر الثغور بينهم وبين عدوهم فان هذه الاشياء اذا قام بها السلطان احتمل الناس ما كان سوى ذلك من أثرة السلطان وكل ما يكرهون^(٥))) وهي من

(١) الأنصاري ، حسان بن ثابت الانصاري (ت ٥٤هـ) ، ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، دار صادر ،

(بيروت د.ت) ، ص ٦١ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٩ ، ص ٥٣٩ .

(٢) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مطبعة السعادة ، (مصر ١٩٦٤م) ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٣ ، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٤) اياس بن معاوية ابو واثلة قاضي البصرة كان يضرب به المثل في الذكاء والدهاء ثقة توفي سنة ١٢١هـ — كهنأ ، ينظر : الذهبي ، سير اعلام ، ج ٦ ، ص ٥ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٠ ، ص ١٩ .

أجلّ الولايات واصعبها يجب ألا يليها ألا الرجل الحصيف ذو الخبرة والدراية وهو أمر صرح به زياد بن ابي سفيان بقوله : ((أربعة اعمال لا يليها إلا المسن الذي قد عضّ على ناجذه : الثغر والصائفة والشرط والقضاء^(١))) ، وفي هذا النص دلالات تاريخية على الاهمية الكبيرة لجبهة الثغور بالنسبة لأولي الأمر من المسلمين ولعامة الرعية ولاسيما ، انها ميدان التماس الحربي المباشر مع أعداء الاسلام من الروم وغيرهم من الامم الاخرى ، لذا فقيادة هذا الركن القصي - بلا شك - عن قلب الدولة العربية يجب ان توكل الى قائد كفوء ممن عجمت عوده الحرب وصقلت نصله التجارب^(٢) .

وقد نال المقاتلة في الثغور كل العناية من الخلفاء الراشدين والامويين على حد سواء ، لأنهم يعدّون بمثابة رأس الرمح وباب الجهاد بوجه العدو ، فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حريصاً رؤوفاً بهم يعاقب بين الغزاة منهم ، وينهى ان تحمل الذرية الى الثغور^(٣) تأنيماً منه في تلك المرحلة المبكرة من مراحل المجابهة مع الروم ، حتى يتم احكام السيطرة العربية على هذا الجزء المهم من ميدان الحرب ، ولئلا تطول إقامة المرابطين هناك مما يبعث على الملل في نفوس المجاهدين لما في ذلك من المشقة عليهم ، مما ينعكس سلباً على عطائهم الجهادي وكفاءتهم في القتال ، ولأجل ان يديموا التواصل مع عوائلهم^(٤) وان تتعاقب الامدادات من الرجال المجاهدين والعدد اللازمة ، لكي يبقى الثغر قوياً محصناً والمرابطون في حالة توثب مستمر ونفير ، وقد تأسى به في ذلك الخليفة عبد الملك بن مروان الذي استجاب لطلب أحد المسلمين وكان قد اشتاق لرؤية ولده المرابط في أحد الثغور وطالت غيبته ((فكتب في رده فأقفل^(٥))) .

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢) كانت لرسول صاحب الثغر مكانة متميزة عند زياد بن ابي سفيان إذ اوصى حاجبه ألا يرده في أي وقت أتى ((فانه إن ابطأ ساعة فسد عمل سنة)) ابن عبد ربه ، ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) ، العقد الفريد، تحقيق : احمد امين واخرين، ط ٣ ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، (القاهرة ١٩٦٥م) ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٣) البلاذري ، كتاب جمل من كتاب انساب الاشراف ، ج ١٠ ، ص ٣٥٩ . رواية المدائني .

(٤) ينظر : العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ) ، الاوائل، ط ١ ، دار الكتب

العلمية ، (بيروت ١٩٨٧م) ، ص ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٥) البلاذري ، كتاب جمل من كتاب انساب الاشراف ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ .

ولم يزل هذا دأب الخلفاء الامويين في رعاية مقاتلة الثغور الى آخر أيام خلافتهم فقد روى ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ان عطاء بن أبي رباح^(١) (ت ١١٥هـ) في لقاء له مع الخليفة عبد الملك بن مروان حث الاخير على الاهتمام بمقاتلة الثغور بقوله : ((.. إتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين^(٢))) ولما سأل الخليفة هشام بن عبد الملك في لقاء له مع عطاء بن أبي رباح عن حاجته أجابه بأن أهل الثغور ((يرمون من وراء بيضتكم ويقاتلون عدوكم قد أجريتم لهم أرزاقاً تدرونها عليهم فإنهم إن هلكوا غزيتم ؟ قال : نعم اكتب تحمل اليهم أرزاقهم يا غلام^(٣))) .

ويبدو من هذا النص ان أعيان الامة ورجالاتها قد أدركوا الدور الجهادي العظيم الذي يؤديه المقاتلة المرابطون في مواضع المخافة من الثغور حتى أنهم قدموهم على أنفسهم وآثروهم في مسألة ذوي السلطان من الخلفاء فيما من شأنه تعزيز صمودهم وتقوية شوكتهم بوجه العدو ، لابل أكثر من ذلك ان بعض الخلفاء الامويين جعل من هذا الامر - أي رعاية المجاهدين في الثغور - ، أولوية من أولويات عمله السياسي المستقبلي ، كما يتضح ذلك من أول خطبة للخليفة الاموي يزيد بن الوليد (١٢٦هـ / ٧٤٣م) حين ولي الخلافة سنة ١٢٦هـ^(٤) / ٧٤٣م ، تأكيداً واکراماً لدورهم الجهادي في منازل العدو والذود عن حياض الاسلام .

(١) عطاء بن ابي رباح أسلم ، الامام مفتي الحرم ابو محمد القرشي مولا هم المكي . ينظر : الذهبي ، سير اعلام ، ج ٥ ، ص ٥٥٢ .

(٢) ابن الجوزي ، جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، المنتظم في تواريخ الملوك والامم ، حققه وقدم له : د.سهيل زكار ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٩٥م) ، ج ٤ ، ص ٦٧٨ ؛ الذهبي ، سير اعلام ، ج ٥ ، ص ٥٥٦ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤ ، ص ٣٦٨ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٦٣٥ ، ابن عربي محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ) ، محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار في الادبيات والنوادر والاخبار ، دار اليقظة العربية ، (بيروت ١٩٦٨م) ، مج ١ ، ص ٤٥٠ .

(٤) خليفة بن خياط ، ج ٢ ، ص ٣٨٢-٣٨٣ ؛ الجاحظ ، ابو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) البيان والتبيين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (مصر ١٩٦١م) ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٦٩ .

جغرافية الثغور وأثرها في رسم الخطة التعبوية وأقامة الاستحضارات الدفاعية

يوجب البحث في موضوع تأريخي - عسكري صرف على الباحث الوقوف عند أبرز العوامل المؤثرة في رسم وتحديد ماهية الخطة التعبوية الدفاعية وآلية تنفيذها ، لاسيما عامل الارض (تضاريسها ومناخها) لمعرفة المزايا السوقية والتعبوية للمناطق التي اقيمت فيها تلك الاستحضارات والترتيبات الدفاعية وما هي الخدمات الحربية التي من المؤمل أن تقدمها للمسلمين في حالتي الدفاع والهجوم ؛ ذلك لأن طبيعة ساحة الحركات العسكرية تسهم اسهاماً فعالاً في العمليات العسكرية ورسم الخطط التعبوية ، دفاعية كانت ام هجومية للجيش كافة ، وهو أمر طالما وضعه المخططون ضمن أولويات حساباتهم عند تقدير الموقف قبل الشروع بأي عمل حربي ، من خلال تحليل ساحة الحركات ودراسة الارض والمناخ دراسة مفصلة بغية الوقوف على مدى تأثير ذلك على قوات الطرفين .

ولا شك في أن هذا الأمر اضافة الى الغاية من الفعل العسكري ، وحجم القوة العربية الاسلامية ومقدار قوة العدو ، كلها أمور كانت محل اهتمام قادة الجهاد في صدر الاسلام والعصر الاموي كما سنلاحظ في هذا البحث .

وبغية اعطاء صورة توضيحية عن المزايا التعبوية الدفاعية لهذا الجانب الحيوي من ميدان التماس الحربي مع البيزنطيين ، ولأجل تقديم تفسيرات علمية ومنطقية لعلية اعتماد العرب المسلمين هذا الاسلوب من أساليب المجابهة الحربية ، لابد من تقديم وصف جغرافي موجز لنماذج مختارة من منطقة الثغور التي كانت امتداداً طبيعياً وجزءاً لايتجزأ من بلاد الروم^(١) ، التي اتسمت بالتضرس وتنوع المناخ ، وهذا ما يمكن ملاحظته من تتبع الوصف الذي اوردته المصادر البلدانية لاسيما ابن خردادبه (ت ٣٠٠هـ)^(٢) الذي وصف الطرق والمسالك النافذة عبر الثغور الى القسطنطينية .

ولا ريب في أن كل ظاهرة من هذه الظواهر الجغرافية لها مزايا وخواص ذات أثر مباشر وفعال سلباً أو ايجاباً في الوضع السوقي والتعبوي للمهاجم والمدافع على حد

^(١) ينظر الفصل الاول من هذا البحث ص ص ، ينظر ايضاً خريطة رقم (٦) .

(٢) ابن خردادبه ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خردادبه (ت ٣٠٠هـ) ، المسالك والممالك ، طبعة بريل (لين ١٣٠٩هـ) ، ص ص ٩٦ وما بعدها .

سواء ، فمن المدن الثغرية ذات الالهية الحربية (السوقية) والدفاعية ، بغراس ، وهي قلعة حصينة كان الطريق الى الثغور يمر بها^(١) ، تقع في سفح جبل اللكام بينها وبين أنطاكية اربعة فراسخ^(٢) على يمين القاصد الى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس^(٣) ، وبذا تكون في منطقة جبلية محصنة تحصينا طبيعياً تشرف على مفترق الطرق وعقد المواصلات الحيوية كانت لها اهمية تذكر في تاريخ المجابهة الحربية مع البيزنطيين شأنها شأن قلعة الحدث الواقعة بين كل من ملطية وسميساط ومرعش قلعتها في جبل عال يعرف بالأحيدب^(٤) ، تشرف على درب الحدث وتسيطر عليه ، وهو واحد من اهم الدروب واشهرها التي سلكها المجاهدون في اثناء تقدمهم صوب العمق البيزنطي في صدر الاسلام والعصر الاموي^(٥) .

وكانت قلعة لؤلؤة من الحصون الثغرية ذات الاثر الفعال في الصراع بين الطرفين وقد ادرك الروم اهميتها التعبوية بوصفها تسيطر على المعبر بين البوابات الكيليكية وطوانة ودورها في تحديد مصير القطعات النافذة من خلالها الى بلاد الروم وبالعكس ، لذا شيدت في موضع مشرف ممتاز يتحكم بالمر الواصل بين طرسوس على قمة جبل شاهقة تتحكم بمنطقة واسعة من السهل ومنحدرات جبال طوروس الشمالية ، اذا ما احكم البيزنطيون سيطرتهم عليها ، غدا من العسير على أي جيش النفاذ الى كبدوكيا وبالعكس اذا احكم العرب المسلمون سيطرتهم عليها اصبح من المجازفة اقتحام هذا الممر الضيق المار عبرها على أي جيش^(٦) .

وتحكمت المصيصة هي الاخرى بالطرق المارة عبرها ، ولاسيما أنها تقع على جانبي نهر جيحان الذي يعد واحداً من أكبر انهار بلاد الروم ، والذي طالما عبرت مخاضاته الجيوش ، وهي عبارة عن مدينتين احدهما المصيصة والاخرى كفريبيا على

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٢) الفرسخ : وحدة اسلامية لقياس المسافة تعادل حوالي ٦ كم . ينظر : فالتر هنتس ، المكايل والاوزان الاسلامية ، ترجمة : كامل العسلي ، الجامعة الاردنية ، (عمان ١٩٧٠ م) ، ص ٩٤ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ . ينظر ايضا : ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٨ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٦٤-١٦٨ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٠ .

(٦) Ramsay, Opcit , PP. 303-304 .

جانبى جىحان وبيئها قنطرة حجارة وكانتا حصينتين على نشز من الارض^(٧) ، ومثلها مثل أذنه التى كانت كأحد جانبى المصيصة على نهر سىحان فى غربيه ((عليه قنطرة عجيبة البناء طويلة جداً .. على سمت طريق طرسوس^(١))) .

وكانت ملطية من مدن الثغور الشامية مدينة كبيرة من اجل الثغور دون جبل اللكام الى ما يلى الجزيرة وتحف بها جبال كثيرة^(٢) ، ذات اشجار وانهار ، وهى مسورة فى بسيط من الارض والجبال تحف بها شديدة البرد ((وهى فى شمالي الجبل الدائر بسيس فى غربيه فى الجنوب عن سيواس وبينهما نحو ثلاث مراحل)) وهى شمالي حلب وتعد قاعدة بلاد الثغور^(٣) .

أما زبطرة التى تقع الى الجنوب الغربى من مدينة ملطية فانها أقرب مدن الثغور الجزرية الى بلاد الروم^(٤) ، سماها الروم سوزبطره أو زبطره^(٥) ، تبعد اربعة فراسخ عن مدينة الحدث وعلى مسافة يوم من حصن منصور على نهر سلطان صو^(٦) ، فى أرض مستوية والجبال تحيط بها^(٧) ، وبذا تكون من ثغور المسلمين الجزرية المهمة فى مواجهة الروم .

أما من أهم ثغور المسلمين البحرية (حصن المرقب) الواقع فى منطقة جبلية عالية مشرف على بحر الشام وعلى البر ، وصفه ياقوت الحموي بأنه بلدة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام على مدينة بلنياس^(٨) ، وقال عنه ابن بطوطة^(٩) (ت ٧٧٩ هـ) ((من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك وبنائوه على جبل شامخ ...)) .

(٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ص ١٦٧-١٦٨ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ص ٢٧٨-٢٧٩ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٨ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٦ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٣) الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ص ١٣٦-١٣٧ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٥) لسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ١٥٣ .

(٦) أ . فازيليف ، العرب والروم ، ترجمة : محمد عبد الهادي شعيرة راجعه فؤاد حسنين علي ، دار الفكر العربى ، (د.ت) ، ص ١٢٥ .

(٧) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٤ .

(٨) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٥٠ .

(٩) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ) ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، شرحه وكتب هوامشه : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت د.ت) ، ص ١٠١ .

ومن مدن الثغور البحرية الاخرى ذات المزايا الدفاعية الجيدة لارتباطها بالبر والبحر معاً (صور) التي كانت من ثغور المسلمين وهي مشرفة على بحر الشام داخلية فيه ويحيط بها الماء من ثلاث جهات وهي حصينة جداً ،عبر عن ذلك ياقوت الحموي بقوله : ((لا سبيل اليها الا بالخذلان^(١))) افتتحها المسلمون ايام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ومثلها الاسكندرونة التي كانت ثغراً بحرياً حصيناً محكماً يسيطر على عقد المواصلات البرية والبحرية . تقع الى الشرق من انطاكية على ساحل بحر الشام بينها وبين بغراس اربعة فراسخ وبينها وبين انطاكية ثمانية فراسخ^(٢) ، ذات نخيل وزروع كثيرة وغلة وخصب^(٣) ، وحصن التينات الذي أقيم على شاطئ البحر الشامي فيه مقطع لخشب الصنوبر الذي كان ينقل الى بقية المدن الشامية ومصر والثغور ((وكان فيه رجال قتال اجلاد لهم علم بمضار بلد الروم ومعرفة بمخائضهم ومهالكهم^(٤))) .

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .

(٢) الحميري ، محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٦١٠ هـ) ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، حققه : د .

احسان عباس ، ط ٢ ، مكتبة لبنان ١٩٨٤ م ، ص ٣٦٩ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٦ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، ابن العديم ،

بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

مضامين الخطة التعبوية والاستحضارات الدفاعية في الثغور

لم تكن التحصينات الدفاعية الرومية التي خلفوها عقب انسحابهم مدحورين باتجاه بلاد الروم لتثير استغراب العرب المسلمين ودهشتهم ، ذلك لأنهم سبق وان عرفوا مثل هذه العمائر في جزيرتهم او على اطرافها ، فقد وردت في القرآن الكريم^(١) والحديث النبوي الشريف^(٢) العديد من الالفاظ ذات الصلة الدالة على ذلك ، كما اكدت الدراسات الاثرية والتاريخية اقامة العرب لمثل هذه المشيدات في أنحاء متعددة من جزيرتهم وخلال عصور تاريخية مختلفة ايضا،^(٣) فضلاً عن ذلك فقد عرف العرب المسلمون في المدينة المنورة (يثرب) العديد من الآطام والحصون التي شيدها اليهود وسكنوها وكانت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته (رضي الله عنهم) وقعات مشهورة معهم عندها^(٤).

(١) ينظر : سورة التوبة الآيات ٤٠ ، ٧٥ ، سورة الكهف الايات ٩٣-٩٧ ، سورة الحشر الايات ٢ ، ١٤ ، سورة الانبياء اية ٨٠ .

(٢) ينظر : احمد بن حنبل ابو عبد الله الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، المسند ، مؤسسة قرطبة ، (مصر د.ت) ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ٣٧٠ ؛ مسلم ، مسلم بن الحجاج ابو الحسين القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت د.ت) ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، ٣٥٧ ، البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ١٤٨٢ .

(٣) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بيروت ١٩٦٨ م) ، ج ٢ ، ص ٣٣-٧٤ ، ٨٧ ، ٥١٧ ، ج ٨ ، ص ٤٦-٥٠ ، صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار الكتب جامعة الموصل ١٩٨١ م ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٤) الواقي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ، ٦٣٣-٦٩٣ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ٣٦٥-٣٥٧ .

واعتمد العرب في مدينة الطائف التحصين باستخدام الاسوار ، بل انها كانت المدينة الوحيدة في قلب شبه الجزيرة محاطة بسور على رأي كزيرول^(٥) ، تم ترميم سورها والاستعداد للحرب من قبل قبيلة ثقيف وحلفائها اثناء حصار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهم في السنة السادسة من الهجرة النبوية^(٦) .

فضلاً عما عرفه العرب المسلمون من تحصينات ونظم دفاعية في بلادهم ازدادت معرفتهم بانماط التحصين البيزنطية من خلال مرورهم اثناء مسير جند الفتح الاسلامي صوب الشام والعراق بالعديد من القلاع الحدودية الرومية (Castra Limes) التي تمتد من خليج العقبة الى دمشق ومن دمشق الى تدمر ، والتي سكنت من قبل بعض الخلفاء الامويين فيما بعد^(١) ، فضلاً عن ذلك ازدادت معرفتهم اكثر اثناء معارك القلاع والحصون التي خاضوها ضد المرتدين وضد الروم البيزنطيين وحلفائهم في الشام ومصر وشمال افريقية ايام الخلفاء الراشدين^(٢) .

بدأ العرب المسلمون تنفيذ خطتهم الدفاعية بخطوات متسلسلة حسب مجريات الاحداث وتطوراتها وعلى محورين ، المحور البري والمحور البحري حال تحرير المدن الشامية . ففي المحور البري - موضوع البحث - وعملاً بمبدأ الدفاع الفعال قاموا بدفع بعض السرايا صوب العمق البيزنطي لملاحقة فلول الروم المنحدرة ، ولتقويت الفرصة عليهم لنلأ يعيدوا تنظيم صفوفهم ويستأنفوا الحرب بهجوم مقابل على المسلمين ، ولدفع أخطارهم القائمة ابعد ما يمكن داخل بلاد الروم وتأكيذاً لقوة المسلمين وتوثبهم المستمر ولاجل انتزاع المبادأة^(٣) منهم ولاستطلاع تلك المناطق التي لم يكن للمسلمين علم كاف بطبيعتها الجغرافية ومزاياها السوقية والتعبوية ومحاذيرها وأثر ذلك على قطعات الطرفين في حالتها الدفاع والهجوم ، ويبدو ان تلك الاعتبارات لم تكن غائبة عن افكار قادة

^(٥) B . A . C . Creswell , Fortification in Islam Befor A . D 1250 , (London 1952) , PP 89-90 .

^(٦) الواقي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ص ٩٢٢-٩٣٧ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ص ١٣٤-١٣٥ .

^(١) Creswell , Opcit , PP 89 – 90 .

^(٢) ينظر : رعد عبد المجيد فيصل الناصري ، معارك القلاع والحصون للجيش العربي الاسلامي حتى نهاية العصر الاموي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي ، بغداد ١٩٩٥م ، ص ص ١٢١-١٩٥ .

^(٣) المبادأة : ((تعبير يقصد به من الناحية العسكرية السبق في العمل لاجبار العدو على تبديل خطته والاحتفاظ بهذا السبق)) . نهاد عباس شهاب الجبوري ، العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين ، دار الحرية ، (بغداد ١٩٨٧م) ، ص ١٨ .

المسلمين الميدانيين^(٤) والخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي اجاب على كتاب القائد ابي عبيدة عامر بن الجراح (رضي الله عنه) الذي استشاره فيه بأمر غزو الدروب أو المراقبة عند حلب بقوله : ((...واما قولك إنك منتظر أمري فالذي أمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وأنا الغائب وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالأخبار فان رأيت أن دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم السرايا وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووف لهم بما تقدر...^(١))). وبهذا يكون الخليفة عمر (رضي الله عنه) قد منح القائد ابا عبيدة (رضي الله عنه) حرية التصرف اثناء تنفيذه الخطة الدفاعية لأنه هو الاقرب الى الحدث محققاً بذلك ومؤصلاً لمبدأ مهم من مبادئ الحرب الحديثة الا وهو مبدأ (المرونة ^(٢)) في ادارة خطة الحرب .

وتتفيداً لتلك الخطوة من الخطة الدفاعية روى اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) أن القائد ابا عبيدة ((وجه بمالك بن الحارث الاشر على جمع الروم وقد قطعوا الدرب فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم انصرف وقد عافاه الله واصحابه^(٣))) وذلك على اثر الانتهاء من تحرير حلب بحدود ١٥هـ / ٦٣٦م .

وذكر ابن الجوزي^(٤) (ت ٥٩٧هـ) ان خالد بن الوليد وعياض بن غنم (رضي الله عنهما) خرجا في دروب المشركين الروم فأصابا أموالاً عظيمة سنة ١٧هـ / ٦٣٨م ، وأشار ابن العديم^(٥) (ت ٦٦٠هـ) الى أنها أول مدربة كانت في الاسلام .

^(٤) ينظر : نص المحاورة التي جرت بين القائد ابي عبيدة وكل من ميسرة بن مسروق العبسي وخالد بن الوليد (رضي الله عنهم) لما عزم على ارسال المقاتلة المسلمين الى ما وراء الدروب . الواقدي ، فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ص ٥-٦ .

^(١) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

^(٢) عن هذا المبدأ ينظر : يونس محمد الذرب ، السوق العسكري في صدر الاسلام العهود الاسلامية الاولى ، دراسة تحليلية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ٢٠٠٠م) ، ص ٢٠ ؛ اللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس ، فن الحرب عند العرب دراسة في الفتوحات الكبرى في العصر الراشدي ، بيت الحكمة ، (بغداد ١٩٩٩) ، ص ٧ .

^(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

^(٤) المنتظم ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

^(٥) بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ٣٠ ، ٣٢ .

ونقل ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) عن الواقدي رواية مؤداها ان ميسرة بن مسروق العبسي^(٦) دخل أرض الروم في سنة الآف (سنة ٢٠هـ / ٦٤١م) فوغل فيها وجمعت له الروم فلقبهم بمرج القبائل^(٧) وهو في مسيره فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزمهم الله تعالى وكانت فيهم مقتلة عظيمة^(٨) ، وقد بقيت آثار قتلى الروم في تلك الواقعة في مرج القبائل الى وقت متأخر^(٩) شاهداً على مقدار التحدي البيزنطي الموجه ضد الاسلام ودولته ، والذي أدركه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) منذ زمن مبكر من تاريخ المجابهة معهم ، كما يفهم من قوله : ((والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا ما دونه وللروم ما وراءه لما كان يكره قتالهم^(١٠))) .

وروي ان عمير بن سعد^(٣) - الذي قيل انه أول من اجتاز الدروب^(٤) سنة ٢١هـ / ٦٤٢م - بلغ في حملته خلف الدروب مدينة عرب سوس^(٥) ، وقام باجراء احترازي هدفه تأمين وحماية مؤخرة القطعات الاسلامية النافذة الى بلاد الروم ، مؤداه تهجير سكان عرب سوس وتخريبها بامر من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي سبق وان استشاره عمير بذلك بقوله له : ((يا أمير المؤمنين إن بيننا وبين عدونا مدينة يقال لها عرب السوس يطلعون عدونا على عوراتنا ويفعلون ويفعلون فقال عمر : إذا أتيتهم فخيرهم بين ان ينقلوا من مدينتهم الى كذا وكذا وتعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين ، فان فعلوا فاعطهم ذلك ، وإن أبوا فانبذ

(٦) ميسرة بن مسروق العبسي هو احد التسعة الذين وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بني عيس اسلم وحسن اسلامه وكان له من الخليفة ابي بكر (رضي الله عنه) منزلة حسنة . ابن الاثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ص ٣٠٠-٣٠١ .

(٧) مرج القبائل : لم اعثر على ترجمة له ، ولكن يبدو انه مكان داخل بلاد الروم .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦١ ، ص ٣٢٠ ، كذلك ج ٤٧ ، ص ٢٦٨ .

(٩) عن تفاصيل هذه الواقعة ينظر : الواقدي ، فتوح الشام ، ج ٢ ، ص ص ٥-١٦ . ذكر اليعقوبي ان حملة ميسرة الى ما وراء الدروب كانت سنة ٢٠هـ / ٦٤١م . اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(١٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٣) عمير بن سعد بن عبيد بن النعمان ... الانصاري ، كان من فضلاء الصحابة وزهادهم استعمله الخليفة عمر بن الخطاب على حمص ومات بالشام . ابن الاثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ص ٣١١-٣١٣ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٤ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٤٨٧ .

(٥) عرب سوس : بلد من نواحي الثغور قرب المصيصة ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ .

اليهم ، ثم اجلهم سنة ، فأرسل اليهم فعرض عليهم ما أمره به امير المؤمنين فأبوا فأجلهم سنة ثم نابذهم^(٦) .

وللاسباب ذاتها - على ما يبدو - وسيراً على السياسة نفسها لما غزا والي الشام معاوية بن ابي سفيان (رضي الله عنه) من ناحية المصيصة وبلغ درولية^(٧) سنة ٣١هـ / ٦٥١م دمر كل الحصون التي مرّ بها فيما بين انطاكية ومغزاه^(٨) ، وقد سبقه في ذلك القائد خالد بن الوليد (رضي الله عنه) الذي بلغ في غزاته مرعش فدمر حصنها بعد أن أجلى أهلها حسب رواية البلاذري^(٩) .

وفي خطوة ثانية على طريق تنفيذ الخطة الدفاعية شرع المسلمون بأقامة المسال^(١٠) على الدروب المهمة ومشارف المدن الثغرية باتجاه العدو ، بعد انفاذ تلك السرايا المذكورة سابقا ، حماية لحدود دار الاسلام وضماناً لسلامة المجاهدين المتوغلين في بلاد الروم ، وذلك بالافادة من سكان المدن المفتوحة بالاتفاق معهم على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ، ومسال^(١١) لهم ، كما نص على ذلك الصلح الذي عقده حبيب بن مسلمة الفهري مع اهل الجرجومة^(١٢) ، بعد غزوه اياها^(١٣) ، وقد اعتمد الاسلوب ذاته فيما بعد من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان حين اتفق مع أهل أنطاكية على ان يكونوا أعواناً للمسلمين ومسال^(١٤) ، ولما ولي معاوية بن ابي سفيان ولاية الشام والجزيرة

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٦ ، ص ص ٤٨٨-٤٨٩ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ١٣٠-١٣١ . ينظر ايضا : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٥٧-١٥٨ .

(٧) درولية : مدينة في ارض الروم . البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ) ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، ط ١ ، دار المعرفة ، (لبنان ١٩٥٤م) ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ .

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٤ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣١٩ .

(٩) فتوح البلدان ، ص ١٨٨ .

(١٠) المسلحة : القوم الذين يحفظون الثغور من العدو وسموا مسلحة لانهم يكونون ذوي سلاح أو لانهم يسكنون المسلحة ، والمرقب فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة فاذا رأوه أعلموا اصحابهم ليتأهبوا للقتال . عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(١١) الجرجومة : مدينة يقال لاهلها الجرجامة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقه قرب انطاكية . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(١٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٠ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(١٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٢ .

سنة ١٨هـ / ٦٣٩م، وجه أحد قادته بان يلزم المدن الجزرية والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء^(٦) .

ويبدو ان معاوية بعد توليه الخلافة كان قد عزز مسلحة أنطاكية آنفة الذكر سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م لما نقل إليها جماعة من الفرس واهل بعلبك وحمص^(٧) ، وفي خلافة هشام بن عبد الملك مع استمرار تهديدات الروم لطرق ودروب المجاهدين بنى حصن مورة في درب اللكام ورتب فيه أربعين رجلاً وجماعة من الجراجمة^(٨) ، ويظهر من هذا النص أن هؤلاء الأربعين من الرجال العرب المسلمين لابد ان يكونوا من أهل البأس والنجدة تولوا قيادة هذه الجماعة المحلية لاداء المهمات الجهادية من حراسة وانذار لمن وراءهم اذا ما دهمهم عدو .

والظاهر ايضاً ان هذه الترتيبات الدفاعية الاسلامية كانت تشابه نظام الكليسورات الدفاعية التي اوجدها هرقل والتي أصبحت فيما بعد نواة نظام البنود (الثيمات Themes) البيزنطية الذي تطور عنها^(٩) ، وكانت رداً اسلامياً عملياً عليها اوجبته الظروف الطبيعية للمنطقة وطبيعة القتال.

وفي سياق إقامة وتعزيز الترتيبات الدفاعية في الثغور عمد المسلمون الى الافادة من الحصون البيزنطية القديمة ، التي سبق وان خرب المسلمون قسماً منها وفقاً لضرورات القتال ، بعد أن أدركوا بتواصل الحرب الأهمية التعبوية لهذه المشيدات المقامة في مناطق (استراتيجية) ، وقيمة النتائج المتحققة من إعادة تحصينها وشحنها بالمقاتلة ، فقد عمّر المسلمون المتشعث منها وشحنوه للافادة منها كنقاط رصد ومراقبة متقدمة وحصون تعويق في حال التصدي للمهاجمين الروم ، ومثابات متقدمة للانطلاق صوب الاهداف الحيوية في ارض الروم ، فقد وقف معاوية بن ابي سفيان سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م عند عمورية التي بلغها في غزوته جماعة من اهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ((ثم اغزى بعد ذلك بسنة او سنتين يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ،

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

(٩) C . E . Bosworth , The Byzantine Defence System in Asia Minor and the First Arab Incursions . PP .119-121. The Foruth Internationl Confrence on the History of Bilad al – Sham, (Amman 1987) .

وكانت الولاة تفعله^(٢))) وجعل معاوية ايضا من ملطية قاعدة متقدمة للأغراض آنفة الذكر ، وهي ذات مزايا جغرافية وتعبوية مهمة^(٣) ، تلتقي في سهلها عدة طرق وهي مفتاح آسيا الصغرى بالنسبة لجيوش المسلمين القادمة من الشرق ومدخل الجزيرة بالنسبة للجند العرب المسلمين القادمين من الغرب^(٤) ، لذا وجه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري ففتحها عنوة ورتب فيها المرابطة من المسلمين وشحنها بجماعة من اهل الشام والجزيرة اثناء مروره بها في طريقه للغزو في بلاد الروم في أحد الايام ، إذ انها كانت طريق الصوائف^(٥) .

وتتأكد أهمية هذا الثغر العسكرية أكثر مع تطور أحداث الحرب مع الروم الذين طالما سعوا للسيطرة عليها مستغلين كل ضعف أو فتور ينتاب قوة المسلمين الموجهة ضدهم ، كما حصل ذلك اثناء حركة عبدالله بن الزبير (٦٤-٧٣هـ / ٦٨٣-٦٩٢م) في خلافة عبد الملك بن مروان ، إذ اضطر المسلمون المقيمون فيها الى هجرها فخربها الروم^(١) ، واشتراها منهم فيما بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز مقايضة بمئة الف أسير وبنائها^(٢) ، وفي سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م خرج الروم اليها مرة أخرى بجيش جرار ، فأغلق اهلها المسلمون ابوابها وقتلتهم من على أسوارها حتى النساء وهن معتمات بالعمائم ، واستجدوا بالخليفة هشام بن عبد الملك الذي ندب بدوره المسلمين الى ملطية ، ثم أتاه الخبر بانسحاب الروم عنها ، فبعث مع رسول أهل ملطية خيلاً للرباط بها ثم قصدها بنفسه وعسكر عليها حتى بنيت^(٣) .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٥ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٥ ، ص ٢٢٢٥ . عمورية : مدينة ببلاد الروم غزاها المعتصم . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٥٥ .

(٣) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١٨٧ .

(٤) ينظر ص من هذا البحث .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٥ . ينظر ايضا : هاشم اسماعيل جاسم ، الخطة العسكرية الدفاعية للثغور البرية والبحرية حتى نهاية العصر الاموي ، مجلة آفاق عربية ، بغداد السنة السابعة العدد ٦ ، شباط ١٩٨١م ، ص ٤٥ .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٥ .

(٢) الكتبي ، محمد بن شاکر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) ، فوات الوفيات ، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، (مصر ١٩٥١م) ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ؛ ينظر ايضا : ابن عربي ، محاضرة الابرار ، مج ١ ، ص ١٤٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣١٨ .

إن تواصل المجابهة الحربية أوجب على العرب المسلمين انشاء حصون جديدة في مناطق حيوية ومهمة ذات أثر فعال في تغيير مجريات الصراع لحسابهم ، فقد عمل الخليفة معاوية على تعزيز الخطوط الدفاعية باقامة حصني مرعش والحدث^(٤) ، وهما ثغران يربط فيهما المسلمون ويجاهدون^(٥) ، من الثغور الجزرية بينهما خمسة فراسخ^(٦) ، إذ شيد مرعش التي سبق ان خرب المسلمون حصنها على يد القائد خالد بن الوليد إبان الفتوحات ، وهي ذات اهمية عسكرية ملحوظة ذلك أن سلسلة جبال طوروس كانت تمتد من منطقة كوماجين^(٧) صوب الجنوب الغربي بالقرب من مرعش في مواجهة سفوح الامانوس (اللكام) وبينهما سهل يمكن اجتيازه بيسر من الجنوب والشرق ، مما يؤدي دور ملطية نفسه في الطرف الاخر من السلسلة^(٨) وهي شرقي نهر جيحان شمالي الهارونية على مسافة اقل من يوم والى الجنوب من ملطية بمسافة ثلاث مراحل^(٩) ، وهي ((ثغر ليس وراءه الاّ عمارات العدو^(١٠))) بناها الخليفة معاوية وشحنها بالمقاتلة وقد اضطر المسلمون الى هجرها بعد ان هاجمهم الروم مستغلين حالة الفتور في دفاع المسلمين الفعّال اثناء الفتن التي اعقبت وفاة الخليفة يزيد بن معاوية^(١١) سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م ، وفي سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م كانت للمسلمين بقيادة محمد بن مروان بن الحكم وقعة كبيرة مع الروم عند مرعش الحقوا بهم هزيمة شنعاء^(١٢) .

وبمرور الايام تاكدت أهمية هذا المنشأ العسكري الحصين أسوة بغيره من العماير الدفاعية الثغرية ، من خلال جهود الخلافة الاموية المتواصلة لاعمارها وشحنها بالعدد والعدة ومساعي البيزنطيين بالمقابل لاستعادتها واحكام السيطرة عليها ، فقد عمرها العباس بن الوليد بن عبد الملك في إحدى حملاته وحصنها ونقل الناس اليها وبنى لها مسجداً جامعاً ، مما يشير الى ضخامة اعداد هؤلاء المرابطين الى الحد الذي استوجب

(٤) ينظر خارطة رقم (١) .

(٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ص ١٦٦-١٦٧ ؛ الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ .

(٦) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ص ١١٥-١٨٦ .

(٧) كوماجين : لم اعثر على ترجمة لها في المصادر المتيسرة .

(٨) هاشم اسماعيل جاسم ، الخطة العسكرية ، ص ٤٥ .

(٩) الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٦٧ .

(١٠) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١١٥ .

(١١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ٢٣٥-٢٣٦ .

(١٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ .

اقامة مسجد جامع لهم ، و فيه ايضا دلالات على عزم العرب المسلمين على الاستقرار الدائم بها وعدم التخلي عنها لاي سبب كان ، وكان العباس بن الوليد يلزم عرب الجزيرة البعث اليها للجهاد والمرابطة^(٥) ، وفي خلافة مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/ ٧٤٥-٧٥٠م) لما شغل بحرب أهل حمص المنتفضين عليه ، خرجت الروم وحصرت المسلمين في مرعش ، فبلغ ذلك مسامع مروان وهو نازل على حمص فكاتب أهل مرعش يأمرهم بالصبر ((وانه قد وجه اليهم فلاناً في كذا وفلاناً في كذا وأن قد اتوكم وبعث بكتابه رجلاً من الطلائع وأمره ان يتصدى لأهل مرعش حيث يراه الروم وتطمع فيه فاذا رآها خارجة اليه ولّى عنها والقى الكتاب ، ففعل واخذته الروم فأنتت به طاغيتها ، وكان ذلك سبباً لاجابته أهل مرعش على أمانهم)) ، فلما فرغ الخليفة مروان من أهل حمص قطع بعثاً من أهل الشام وأمرهم ببناء مدينة مرعش ، وأعمار حصنها الذي خربه الروم ، وولى بناءها زياد بن أبي الورد الدمشقي^(٦) الذي عمرها وشيد في وسطها حصناً عليه سور عرف بالمرواني نسبة الى الخليفة مروان بن محمد^(١) ولم تلبث الروم حتى عاودت تخريبها بعد ان بنيت وعمرت في الفتنة التي اطاحت بخلافة مروان بن محمد واسقطت الخلافة الاموية سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م ، فاعاد العباسيون بناءها مجدداً في خلافتي أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) ، والمهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)^(٢) وجدد الخليفة معاوية بن أبي سفيان بناء ثغر الحدث في خلافته والذي فتح على يد حبيب بن مسلمة الفهري في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)^(٣) ، وهو من الثغور الجزرية المهمة ذو موقع عسكري ممتاز أقيمت قلعته الحصينة على ظهر جبل الأحيدب بين ملطية وسميساط ومرعش^(٤) ، تسيطر على درب الحدث الذي يعد من أهم الدروب النافذة الى بلاد الروم يوصل بين مرعش (جرمانيقية) والبستان - تسمية

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٩ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٣٩٥٣ . ينظر

ايضا : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣١٩ .

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٤٩ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣١٩ .

(٣) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١١٥ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

متأخرة لابلستين - عرب سوس على الضفة اليسرى لنهر جيحان الذي تتأوب المسلمون والروم السيطرة عليه لاهميته التعبوية^(٥) .

وتطلبت ضرورات المجابهة من الخلافة الاموية في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) إقامة تحصينات دفاعية جديدة في مناطق موغلة في ارض العدو ، تأكدت للمسلمين اهميتها وضرورات تشييدها عقب اعتداءات الروم المتكررة - المذكورة سابقا - على ملطية ومرعش وغيرها من مدن الثغور اثناء فتور هجمات الردع العربية الاسلامية ، كما حدث ذلك عقب وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ/٦٨٣م ، لهذا زيادة في التحصين ولتجاوز ما حدث شيّد الخليفة عبد الملك على يد ولده عبد الله ثغري طرنده والمصيصة ، فالأولى تقع شمال غرب ملطية موغلة في بلاد الروم في أعالي نهر القباقيب عرفت باسم ترنته (Tranta) من قبل البيزنطيين^(٦) ، اقامها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٣هـ/٧٠٢م وبنى للمسلمين المساكن فيها واتخذ منها حصنا للرباط وتعويق العدو ومثابة انطلاق متقدمة نحو بلاد الروم مستقبلاً ، و ((كانت تأتيهم طالعة^(٧) من جند الجزيرة في الصيف فيقيمون بها الى أن ينزل الشتاء وتسقط الثلوج فاذا كان ذلك قفلوا^(٨))) ولقساوة البرد وتساقط الثلوج فيها ولايغالها بعيداً في ارض الروم عزم الخليفة عمر بن عبد العزيز على ترحيل اهل طرنده عنها وهم كارهون لهذا ، وذلك لاشفاقه عليهم من العدو ان ينقض عليهم مستثمراً مثل هذه الظروف ، فرحلوا ولم يدعوا شيئاً^(٩) ، ويدخل مثل هذا الاجراء الاحترازي ضمن إطار سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز في الحرص على سلامة الجند على كل الجبهات اقتداءً بالخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وحسب متطلبات الموقف العسكري .

أما المصيصة الواقعة على نهر جيحان بين انطاكية وبلاد الروم بالقرب من طرسوس فقد مصرت هي الاخرى سنة ٨٤هـ/٧٠٣م من قبل عبد الله بن الخليفة عبد الملك ، لما قاد الصائفة الى هناك من درب انطاكية ، فبنى حصنها على أساسه القديم

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٨٩-١٩٠ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١١٥ .

(٦) لسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ١٥٣ . ينظر : خريطة رقم (١) .

(٧) الطالعة : والطليلة هم القوم يعبون لمطالعة خبر العدو ، وطليلة الجيش الذي يطلع من الجيش يبعث ليطلع طلع العدو . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٢٣٧ . (مادة طلع) .

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٨٥-١٨٦ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢٠ ، ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ص ٣١٧-٣١٨ .

ووضع بها سكاناً من الجند من أنطاكية ولم يكن العرب قد سكنوها قبل ذلك ، وبنى لهم مسجداً جامعاً وكانت الطوالع تأتيها من انطاكية في كل عام تشتو بها ثم تنصرف^(٣) ، ويتأكد للباحث أمر جدير بالإشارة هو نضوج الفكر العسكري لدى الخليفة عبد الملك وابنه عبد الله الذي أمر بإقامة هذا المشيد الدفاعي المهم وتنفيذه ، من خلال تزايد أهميته التعبوية بتواصل المجابهة الحربية واستمرار إقامة التعزيزات الدفاعية له من قبل الخلفاء الأمويين المتعاقبين ، فقد أمسك الخليفة عمر بن عبد العزيز عن هدم المصيصة وتخريب الحصون التي بينها وبين انطاكية عند زيارته لها ، وهو أمر كان قد عزم عليه سابقاً ، خشية منه على جند حاميتها من محاصرة الروم لهم هناك ، وذلك عندما علموه أنها إنما عمرت ليدفع من بها الروم عن انطاكية وأنه إن هدمها ((لم يكن للعدو ناحية دون انطاكية^(٤))) .

ولزيادة اعداد المرابطين في المصيصة بمرور الزمن وبمن يفد اليهم مجاهداً - على ما يبدو - بنى الخليفة هشام بن عبد الملك الربض ثم بنى مروان بن محمد حصن الخصوص في شرقي جيحان^(١) ، وبذلك احكم الامويون تحصين هذا المصر الثغري المهم بإقامة الترتيبات الدفاعية حوله .

وبهدف احكام الخطوط الدفاعية الثغرية وترصينها ولديمومة الاتصال بينها عمد المسلمون في العصرين الراشدي والاموي الى انشاء الطرق واقامة الجسور على المعابر والمنافذ التي تسلكها قطعات المجاهدين الذاهبة باتجاه ارض الروم ، فقد ذكر البلاذري^(٢) ان المسلمين أقاموا جسراً عند منبج^(٣) لمرور جند الصوائف في خلافة عثمان (رضي الله عنه) ولمتطلبات وضرورات المجابهة ايضاً شيّد الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م جسراً يربط ما بين المصيصة وأذنة على بعد تسعة أميال من المصيصة ويدعى جسر الوليد^(٤) .

^(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٥ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠٧ .

^(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠٨ .

^(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠٨ .

^(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥١ .

^(٣) منبج :مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ٠٠٠ بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة

فراسخ ٠ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٢٥ .

^(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ .

وزيادة في التحوطات الامنية ولضمان مرور المقاتلة المسلمين بمناطق مؤنسة غير موحشة على طول تلك الطرق وترسيخاً للوجود الاسلامي هناك بما يرفع الروح المعنوية للمقاتلة ، عمد الخلفاء الامويون الى اسكان رعاة الجاموس مع قطعانهم التي جلبت من السند في الثغور المواجهة للروم في زمن الخليفين الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٤م) ، ويزيد بن الوليد (١٢٦هـ / ٧٤٣م) ولم يزل مثل هذا الاجراء الامني معمولاً به على عهد الخلفاء العباسيين^(٥) مما يشير وبلا ادنى شك الى بعد النظر العسكري ودقة الحسابات المستقبلية لدى الخلفاء الامويين عند تنفيذهم كل خطوة من خطوات الخطة التعبوية الدفاعية في الثغور الاسلامية .

تواصلت عمليات تشييد واعمار القلاع والحصون في الثغور الاموية على قدم وساق طيلة العصر الاموي في المناطق التي استرعت اهميتها الحربية الدفاعية اقامة مثل هذه المشيدات ففي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٣-٧٤٢م) شُيد حصن طرغاش على يد عبد العزيز بن حيان الانطاكي ، واقام ببغراس مسلحة جديدة وابتنى لها حصناً ، وشيد حصن بوقا من اعمال انطاكية الذي جدد واصلح فيما بعد^(١) .

وقد بلغت خطة الامويين الدفاعية هذه مرحلة متقدمة جداً على يد الخليفة المقاتل مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٤٩م) الذي عزز خط الدفاع الثغري الاوسط - الواقع بين الخط الساحلي (البحري) والخط النهري - ببنائه حصن منصور ، ذي الموقع الحربي غربي الفرات والذي يعد عقدة مواصلات مركزية بين كل من زبطرة ومرعش وملطية وسميساط ، هذا الحصن الذي نسب الى منصور بن جعونة العامري القيسي الذي تولى بناءه وكان مقيماً وقتذاك ليرد العدو وبصحبه اعداد كبيرة من جند الشام والجزيرة واربينية^(٢) .

وما اختيار الخليفة المقاتل مروان بن محمد لموقع كهذا لاقامة ذلك الحصن ، الا شاهد صادق على ما تحلى به من فكر سوقي وتعبوي مبدع بلغ من البراعة في توزيع

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ ؛ ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص ١٦٢ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٧ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٠٩ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٧ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٢١ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

الحصون حداً أعطى ساحة الحركات الثغرية شكلها النهائي ، تقاربت فيها الحصون الى بعضها حتى غدت وكأنها سور محصن ، إذ لاحظ وجود بعض الثغرات التي تتخلل خطوط الدفاع الطولية، فقرر بناء هذا الحصن وسواه من الحصون التي شكلت خطوط دفاع عرضية جعلت من ساحة الحركات الحربية الثغرية عبارة عن عقد دفاعية يسرت احكام قبضة المسلمين على ميدان المجابهة الرئيس مع الروم البيزنطيين^(٣) طوال العصر الاموي ، لابل ان عمليات الاعمار واعادة التحصين والشحن بالمقاتلة والسلاح المستمرة بين الحين والآخر لهذه المشيدات الدفاعية طوال العصر العباسي الاول التي أوجدها الامويون ، تعد بحق شاهداً على المستوى الفكري الرفيع الذي بلغه قادة الجهاد في العصر الأموي^(٤).

أساليب التحصين ووسائله في الثغور

اما عن اساليب التحصين ووسائله التي اعتمدها المسلمون عند تنفيذ الخطة التعبوية الدفاعية في الثغور ، ففضلاً عما عرفوه سابقاً من أساليب ووسائل تُعتمد في هذا الشأن ، فقد أشار كريسول^(١) الى ان الخلفاء الامويون كانوا قد شيدوا قصوراً لهم في بلاد الشام مربعة الشكل ذات ابراج دائرية للمراقبة مزودة بفتحات تخللت الاسوار لرمي السهام والنفط وبقية المقذوفات الدفاعية تسمى السقاطات (Machicoulis) محصنة بأسوار وخنادق على غرار الحصون والقلاع الرومانية التي سبق ان شيدت في بلاد العرب والتي اطلع عليها الخلفاء الامويين في بداية الامر .

وعليه فالأجدد بالعرب نقل ما تجمع لديهم من خبرة في مجال التحصين ووسائله وأساليبه الى اهم ميدان من ميادين المجابهة الحربية مع البيزنطيين وهي الثغور ، وهذا ما حصل فعلاً على ما يبدو من خلال الاشارات التاريخية الواردة في المصادر مستفيدين مما ورثوه عن عدوهم من خبرة ومشيدات ومجابهين اياه بالاساليب والوسائل ذاتها التي استخدمها يوماً ما البيزنطيون في حروبهم ضد المسلمين واعدائهم السابقين لا سيما الفرس الساسانيين وكانت سبباً في تفوقهم .

(٣) هاشم اسماعيل جاسم ، الخطة العسكرية ، ص ٤٧ .

(٤) ينظر : نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العربية البيزنطية في العصر العباسي الاول دراسة تحليلية لعهد الخليفة الواثق بالله ، ط ١ ، المكتبة الفيصلية ، (مكة المكرمة ١٩٨٥م) ، ص ص ١٧ - ٢٣ .

(١) Creswell , Opcit , PP 89-90 .

يعد اختيار الموقع الجغرافي المحصن طبيعياً أول مسألة اهتم المسلمون بها عند إقامة خطوطهم الدفاعية على طول جبهة الحرب مع الروم ، لاجل ضمان أمن وسلامة مقاتلتهم ورصانة بنيانهم معمارياً وتعبوياً ، كقمم الجبال المشرفة على السهول الفسيحة والدروب والمضايق المهمة أو الاراضي المحاطة بسلاسل من الجبال العالية ، وعلى ضفاف الانهار الكبيرة التي من شأنها ان تستر جانباً من المنشأ الدفاعي ، وبذلك يكون المسلمون قد جابهوا الروم بالاساليب والوسائل ذاتها التي كانت من مصادر قوتهم ، وهذا ما بدا جلياً في بنيان المصيصة^(٢) واذنه^(٣) والحدث^(٤) وزبطرة^(٥) .

بعد اختيار الموقع الحصين لهذه المشيدات ، أخذ المسلمون بتحسينها بكافة الوسائل والأساليب المعروفة والمتاحة لديهم كالاسوار المفردة والمزدوجة والخنادق وابراج المراقبة والانذار والشرفات الدفاعية ، وهذا ما حصل في مدينة طرسوس الثغرية - على سبيل المثال - التي حصنت بخططين من الاسوار الحجرية^(١) ، وصفها ابو عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي (ت حوالي ٤٠٠هـ) في كتابه (سير الثغور) بانها مدت ((على سورين في كل سور منها خمسة ابواب حديد ، فابواب السور المحيط بها حديد ملبس^(٢)) وابواب السور المتصل بالخندق حديد مصمت ، فالسور الاول يلي المدينة مُشَرَّف^(٣) تعلوه ثمانية آلاف شرافة ، فيها مرتبة عند الحاجة الى الحرب عنها رجال يرمون عن ستة عشر الف قوس رمية رجل واحد ، وفي هذا السور من الابراج مائة برج سواء^(٤))) ، وعلى الرغم من أن هذه الارقام الواردة في النص قد يبدو عليها المبالغة في الوصف ،فإنها تعطي تصورا تاريخيا جيدا عن مستوى التحصين ووسائله

(٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ ؛ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٨ .

(٣) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، لسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٥) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٤ .

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٨ .

(٢) ملبس : اللبس الخلط . يقال : لبست الامر بالفتح ، ألبسُهُ اذا خلطت بعضه ببعض . والتلبس كالتدليس والتخليط . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٦ ، ص ص ٢٠٢-٢٠٥ . (مادة لبس) .

(٣) مُشَرَّفٌ : الشرفة ما يوضع في اعلي القصور والمدن والجمع شُرُفٌ وقصر مشرف مطول . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٧١ . (مادة شرف) .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ١٨٠-١٨١ .

واساليبه في المدن الثغرية آنذاك الذي تطور عبر سنوات التاريخ حتى بلغ الى هذا المستوى أيام الطرسوسي ، وزودت مدينة اطرابلس الثغرية على الساحل الشامي هي الاخرى بالوسائل الدفاعية المذكورة سابقا نفسها كما اوضح ذلك ابن عساكر^(٥) ، في حديثه عن اعتداءات الروم البيزنطيين المتكررة على سواحل الشام أيام الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م) .

واحاط المسلمون حصن منصور بسور من الحجارة^(٦) وكذا الحال بالنسبة لانطاكية التي كانت من أهم الثغور في العصر الراشدي ، قال عنها ابن بطوطة في رحلته الشهيرة : ((عليها سور محكم لا نضير له^(٧))) له ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة جموع من المقاتلة للحراسة ((وللسور دون الجبل خمسة ابواب^(٨)))، وحصنوا ثغور ملطية^(٩) وزبطرة^(١٠) بأسوار ظلت تتعاورها ايديهم بالترميم والادامة كلما تشعث جزء منها أو هدمت على طول العصر الاموي ومن بعده العباسي لاهميتها الكبيرة والمتواصلة ودورها في حسم الصراع الحربي مع البيزنطيين ، وحفروا الخنادق زيادة في الاستحكامات الدفاعية مع الاسوار في بعض الحصون المهمة كما هو الحال مع حصني المتقب والخصوص^(١١) .

تجهيزات مجاهدي الثغور في العصر الاموي

يملي البحث في موضوع عسكري تاريخي كهذا على الباحث أن يبين ماهية العدد والتجهيزات التي زود بها مقاتلة الثغور لا سيما وهم يقاتلون الروم ويتصدون لهم في عقر دارهم وهم أهل الارض والاعلم بها ، والتي امتازت بالتضرس وقساوة المناخ لا سيما في فصل الشتاء .

(٥) تاريخ مدينة دمشق ، ج٣٤ ، ص ص ٤٠٢-٤٠٣ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٩٢ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١١٥ .

(٧) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٣ .

(٨) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ٨٥-٨٦ .

(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦ .

(١٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٩١ .

(١١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٦٦-١٦٧ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، ج ٥ ، ص ٢٢٣٦ .

فقد أولت الخلافة الأموية الدروب المفضية الى العمق الرومي والمدن الثغرية المواجهة اهتماماً كبيراً ، إذ عينت عدداً من القادة الافذاذ الذين صقلتهم التجارب وعجمت عودهم الحروب لادارة الجهاد وأمور المجاهدين الحياتية اليومية في الثغور أمثال عبد الرحمن بن خالد بن وليد الذي عين أميراً على الدروب^(٣) وسراقة بن عبد الرحمن الذي وجهه الخليفة عمر بن العزيز سنة ٩٩هـ / ٧١٨م أميراً على الثغور بعد أن أقفل مسلمة بن عبد الملك وجنده من القسطنطينية^(٤) ، واستعمل الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي أميراً على ثغر مرعش من قبل الخليفة مروان بن محمد^(٥) ، ولم يزل هذا الامر معمولاً به منذ أيام الخلفاء الراشدين ، حيث ((ولّى ابو عبيدة كل كورة فتحها عاملاً وضم اليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة^(٦))) .

فضلا عن ذلك اهتمت الخلافة بالشؤون الادارية الاخرى المتضمنة اطعام المقاتلة وعيالاتهم وميرتهم وتسليحهم اهتماماً يستحق الذكر والثناء - لم تشر اليه الدراسات الحديثة المتيسرة والمتعلقة بالموضوع^(١) - إذ أقامت الاهراءات لحفظ المواد الغذائية وخرنها في ثغر المصيصة حين مصرها عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م أذ أخذ كنيسة الحصن هرياً ، وفي ملطية بني اهراء آخر استبقاه الروم ولم يهدموه حين هاجموها سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م^(٢) ، وعنى الأمويون بوسائل الشرب في المدن الثغرية وخير شاهد على ذلك انشاء الخليفة عمر بن عبد العزيز صهريجاً لحفظ مياه الشرب والوضوء في مسجد المصيصة لما زارها^(٣) ، وحفروا الابار لتوفير المياه في ملطية^(٤) ،

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٤ ، ص ٣٣٠ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٠ ، ص ١٥٣ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١٩٨ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(١) ينظر : هاشم اسماعيل جاسم ، الخطة العسكرية ، ص ص ٤٢-٣٨ ؛ طاهر مظفر العميد ، تحصينات الثغور العربية البرية المواجهة للبيزنطيين ، مجلة الدفاع ، جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا ، العدد الثالث ، السنة الثالث ١٩٨٧م ، ص ص ٤٩-٧٠ ، عبد الهادي ابو شعيرة ، المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية عند جبال طوروس في صدر الدولة العباسية ، كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ، دار المعارف ، (مصر ١٩٦٢م) ، ص ص ١٤٧-١٦٧ ، باسيلي انطوانيت أديب ، ثغور العرب في التاريخ ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ٣٣ ، تموز ١٩٨١م ، ص ص ٦٣-٧١ ، العدد ٣٤ ، آب ١٩٨١م ، ص ص ٥٤-٦١ ، العدد ٣٦ تشرين الاول ، ١٩٨١م ، ص ص ٦٠-٦٩ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ٦٥-١٦٦ ، ١٨٦-١٨٧ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ ؛ ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص ١٦٢ .

وفي هذا السياق يمكن القول ان قيام الخليفة الوليد بن عبد الملك ومن بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك بنقل قطعان الجاموس مع رعاتها من السند الى الثغور بين المصيصة وانطاكية كان يهدف في جانب منه الى توفير الموارد الغذائية لسكنة الثغور المجاهدين^(٥) ، رداً على سياسة الارض المحترقة التي سبق ان اتبعها الامبراطور هرقل عند انتقاله من انطاكية الى القسطنطينية^(٦) ((لنلا يسير المسلمون في عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم^(٧))) ، فضلاً عن ذلك قام الامويون باحضار ((خوابي الخل والزيت^(٨))) الى طرنده لحفظ هاتين المادتين الغذائييتين المهمتين بالنسبة للمقاتلة المرابطين لفترات طويلة في مناطق اتسمت بقساوة البرد وتساقط الثلوج شتاءً .

وفي هذا السياق روى ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أن أحدهم سأل عمراً بن معاوية العقيلي^(١) ، وكان صاحب صوائف أيام الخليفة معاوية ((بم ضبطت الصوائف ؟ أي الثغور قال : بسمانة الظهر وكثرة الكعك والقديد^(٢))) .

وحرص الخلفاء الرشدون والامويون على تزويد الثغور بالركائب كعدة اساسية من عُد الجهاد وحرصوا كذلك على توفير العلوفة لها بحماية المروج الخضراء للرعي كما هو الحال مع مرج عبد الواحد في ضواحي الحدث الذي حماه عبد الواحد بن الحارث بن الحكم ابن عم الخليفة عبد الملك بن مروان لخيول المسلمين^(٣) ، وأشار ابن العديم في رواية له بهذا الخصوص الى ان ما ورد من التعبير برسم العُشر في ثغر طرسوس كان

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ ؛ ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ص ١٦٢ .

(٦) Bosworth , Opcit , PP 119,124 .

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦ ؛ زاكية محمد رشدي ، ميخائيل السرياني وتاريخه الكبير لعصر صدر الاسلام والعصر الاموي ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٦١م ، ص ١٢٠-١٢١ .

(١) عمرو بن معاوية العقيلي من جند دمشق سمع معاوية بن ابي سفيان وأمره على الصوائف ويقال أن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ولاه ارمينية . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٣٦١ .

(٢) عيون الاخبار ، ج ١ ، ص ١١٦ . الكعك : الخبز اليابس وقيل : الكعك الخبز ، فارسي معرب . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٤٨١ . القديد : اللحم المشروح والمقعد أو ما قطع منه طوالاً ، الفيروز ابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٦هـ) ، القاموس المحيط ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٣٠م) ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨١ ، ١٩١ .

يطلق ((للدلاء المؤلفة قلوبهم رسماً على مقدار كراهم قضيماً لها في كل سنة وحمل سائرة لقضيم بغال الساقة اولاً اولاً^(٤))).

بل ان في بعض الثغور خصصت داراً احتوت لوازم خيول الجهاد وعدتها كما هو الحال في طرسوس التي وصفها ابن العديم بقوله^(٥) : ((وهذه الدار بيوت سفالي واصطبلات ومخازن وعلالي أما الحوانيت فهي وقف على سبعة أفراس تكون في مرتبط هذه الدار بسروجها وآلاتها وجلالاتها ويقام بقضيمها وانعالها ومساميرها وأجره بباطرتها واجرة ساستها وقد رسمت هذه الافراس السبعة كل فرس منها بقائد من قواد طرسوس)) . واقامت مخازن لحفظ الاسلحة وعدد القتال الاخرى في المدن الثغرية ، كما هو الحال في المصيصة ، ففي هذا الشأن انفرد ابن العديم برواية مهمة نقلها عن تاريخ ((ابي محمد عبد الله بن احمد الفرغاني)) جاء فيها انه سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م وجد تحت مسجد المصيصة الجامع واحدا من هذه المخازن مبنيا على هيئة طابقين ((وفيه صناديق كثيرة فيها خمسة الاف درع يغطي الفارس كل درع ببرنس معمول منه وبه ، وخمسة الاف جوشن وخمسة الاف خوذة وخمسة الاف ساعد حديد وخفاف حديد بساقات وخمسة الاف رمح بأسنتها ونفط ودهن بلسان وقسي كثيرة للرجل ونشاب وخوابي فيها كبود قد طبخت وجففت وطيبت للقوت في الحصار يقات بها)) ، ويرجع تاريخ اقامة هذه المخزن وما يحتويه الى ايام الخليفة عبد الملك بن مروان^(١) .

ويتضح من هذه الراوية التاريخية المستوى العالي للتسليح والتجهيز الذي بلغه المقاتل المسلم في الثغور في العصر الاموي ، وهذا الاهتمام المنقطع النظير بالمدن والحصون الثغرية وتجهيزها بكل ما يحتاجه المقاتلة يؤكد مرة اخرى دورها الكبير ليس فقط في الدفاع والتصدي وانما في رفد الجيوش الاسلامية القادمة اليها من دمشق وغيرها من الامصار والمتجهة الى بلاد الروم برسم الجهاد ، ويعد هذا بحد ذاته رداً عملياً على واحد من الاساليب التي عمل بها البيزنطيون أنفسهم في حروبهم السابقة ، اذ شيّدوا محطات عدة على طول الطرق الحربية المهمة شحنت بالمقاتلة الذين جمعوا من

(٤) بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٥ ، ص ٢٠٦٨ . ينظر ايضا ، ص ص ٢٠٣٧-٢٠٣٨ .

المقاطعات التي تمر بها هذه الطرق لأجل رقد ومساعدة الجيش الامبراطوري في حروبه ضد الفرس الساسانيين وضد العرب المسلمين من بعدهم^(٢) .

ومما تقدم يمكن القول أن العرب المسلمين في صدر الاسلام والعصر الاموي على الرغم من ان عقيدتهم العسكرية كانت عقيدة هجومية ،فانهم حرصوا أشد الحرص على وضع وتنفيذ خطة تعبوية دفاعية في الثغور محكمة بكل التفاصيل لمجابهة الروم البيزنطيين ، ذلك العدو الذي استمر يمثل خطراً يهدد قلب دولة الاسلام في العصر الاموي حتى كانت الحرب جراء ذلك سجلاً بين الطرفين .

الفصل الرابع

الصوائف والشواتي

- مفهوم الصوائف والشواتي في اللغة والاصطلاح
- البدايات التاريخية الأولى للصوائف والشواتي
- دواعي اعتماد أسلوب الصوائف والشواتي
- تنظيمات مقاتلة الصوائف والشواتي
- إعداد مقاتلة الصوائف والشواتي وتجهيزهم
- علاقة مقاتلة الصوائف والشواتي فيما بينهم
- التعبئة القتالية في الصوائف والشواتي
- أهداف حملات الصوائف والشواتي

مفهوم الصوائف والشواتي في اللغة والاصطلاح

اتسمت العقيدة العسكرية العربية الاسلامية في صدر الاسلام والعصر الاموي بانها تعرضية وليست دفاعية ، إذ تطلب الجهاد في سبيل الله تعالى نشرًا للإسلام وذوداً عنه خوض الكثير من المعارك ، وما حملات الصوائف والشواتي السنوية إلا تجسيد عملي لهذا المبدأ وتطبيق فعلي لخطة الدفاع السيار الذي عمل به المسلمون في صراعهم الحربي مع الروم البيزنطيين في العصرين الراشدي والأموي انطلاقاً من مضمون قول الخليفة ابي بكر (رضي الله عنه) ((لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ^(١))) ومن قول الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : ((..ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ...)) ^(٢) .

فالصوائف (لغة) من الفعل صَيَّفَ : الصيف من الأزمنة معروف وجمعه أصيافٌ وصيوفٌ ويومٌ صائفٌ أي حارٌ وليلةٌ صائفةٌ ... وتصيِّفُ : من الصيف كما يقال تشتّى من الشتاء . وأصاف القوم : دخلوا في الصيف وأصافوا بمكانٍ كذا : أقاموا فيه صيفهم

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ص ٥٣ - ٥٤ .

وصفتُ بمكان كذا وكذا وصفته وتصيفته وصيّفته ... والصائفة : اوان الصيف والصائفةُ الغزوة في الصيف .. والصائفة والصيفية : الميرة قبل الصيف . وسميت غزوة الروم الصائفة لأن سنتهم أن يغزوا صيفاً ويقفل عنهم قبل الشتاء لمكان البرد والتلج^(٣) .

أما الشتاتية من الفعل شتا ، والشتاء اسم مفرد لاجمع بمنزلة الصيف لأنه أحد الفصول الأربعة ويدلك على ذلك قول اهل اللغة أشتينا دخلنا في الشتاء وأصفنا دخلنا في الصيف ، وأما الشتوه فإنما هي مصدر شتا بالمكان شتواً وشتوة للمرة الواحدة ، كما نقول: شتا بالمكان شتواً وشتوه للمرة الواحدة ، كما نقول صاف بالمكان صيفاً وصيفةً واحدة والنسبة الى الشتاء شتوي .. وتشتى المكان : أقام به في الشتوة .. وشتوت بموضع كذا قمت به الشتاء^(٤) .

والصوائف من حيث الاصطلاح - ومفردها صائفة - هي العمليات الحربية السنوية التي كانت تنظمها الدولة العربية الإسلامية بهيئة جيوش مختلفة العدد والعدة يتم ارسالها صوب العمق البيزنطي لأداء مهمات قتالية معينة في فصل الصيف ، وتبدأ عادة من أواسط شهر تموز وتستمر لمدة سنتين يوماً أو يزيد على حد وصف قدامة بن جعفر^(١) (ت ٣١٠هـ) الذي لم يختلف مع الشيباني (ت ١٨١هـ) في ذلك والذي عرف الصائفة بأنها ((اسم للجيش العظيم الذي يجتمعون في الصيف ثم يغزون إذا دخل الخريف وطاب الهواء^(٢))) .

اما الشتواتي فهي الاخرى حملات سنوية توجه صوب أرض الروم في فصل الشتاء لغرض تنفيذ عمليات عسكرية محددة ، وهذه الحملات أيضاً تتفاوت من حيث العدد والعدة حسب طبيعة تلك العمليات المراد أنجازها ، وقد قدم قدامة بن جعفر وصفاً لما

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٩ ، ص ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٤٢١ ، ينظر أيضاً : ابن فارس ، أبو أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، ط ٣ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده (مصر ١٩٧٠) ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ . (مادة شتّى) .

(١) الخراج وصناعة الكتابة ، ص ص ١٩٢ - ١٩٣ ، بسام العسلي ، فن الحرب ، ص ٢٢٤ ، إبراهيم أحمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون في البحر المتوسط ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة (د ٠ ت) ص ص ١٠٤ - ١٠٧ .

(٢) الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، ج ١ ، ص ٣١ ، ينظر أيضاً : المنذري ، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد (ت ٦٥٦هـ) ، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، تحقيق إبراهيم شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٤١٧هـ) ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

يجب ان تكون عليه هذه الحملات الشتوية السنوية جاء فيه ((ان كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون ذلك في آخر شباط فيقيم الغزاة الى ايام تمضي من آذار فانهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواً ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون))^(٣).

ويبدو ان هذا وصف افتراضي لما يجب أن تقضيه قوة الشتاتية من زمن لا ينطبق على جميع شواتي المسلمين في العصر الأموي فقد أستمريت بعض الشواتي مقيمة في عمق بلاد الروم لمدة سنتين تشتو وتصيف على التوالي بناءً على ضرورات ومقتضيات المجابهة ، كما حصل ذلك في خلافة معاوية بن ابي سفيان الذي شتاً عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد سنتين في جيش مقيم بأرض الروم يدخل عليه القواد سنة سنة يصيف ويشتو عنده لم يغفل عنه حتى مات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأرض الروم .^(٤)

البدايات التاريخية الأولى للصوائف والشواتي

ترجع البدايات التاريخية الأولى لأتباع هذا الأسلوب في المجابهة الحربية مع الروم إلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما زار الشام سنة ١٧هـ / ٦٣٨م اذ كانت الصوائف والشواتي من الإجراءات العسكرية الإدارية التي اتخذها هناك إذ ((قسم الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف وسدّ فروج الشام ومسالحتها^(١))) وفعلاً بدأت أولى عمليات المسلمين التعرضية على الروم بهيئة صوائف في تلك السنة ، والتي كانت في الوقت ذاته ركناً مكملاً لخطة المسلمين الدفاعية في الثغور المواجهة للروم ، اذ توجه خالد بن الوليد وعياض بن غنم من الجابية سنة ١٧هـ / ٦٣٨م ((فخرجوا في دروب الروم فأصابا أموالاً عظيمة وسلموا^(٢))) وهي أول مدربة كانت في الإسلام على حد قول ابن العديم^(٣) ، ويروى ان ميسرة بن مسروق العبسي دخل غازياً بارض الروم سنة ٢٠هـ / ٦٤١م فغنم وسلم^(٤) ، وفي سنة ٣٢هـ / ٧٥٢م قاد معاوية بن أبي سفيان الصائفة

(٣) الخراج وصناعة الكتابة ، ١٩٣ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٩ ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٦٦ - ٦٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ص ٥٥٩ - ٥٦٢

(٢) الطبري تاريخ ، ج ٤ ، ص ٦٦ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ٢٦٥ ، ابن الجوزي ،

المنتظم ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦١ ، ص ٣٢٠ .

حتى بلغ عمورية ومعه جمع من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)^(٥) ، وقد شهدت هذه الصائفة البدايات الاولى للتعاون الجاد بين المقاتلة المسلمين على جبهتي مصر والشام في عمليات الصوائف والشواتي لدحر الروم وردعهم^(٦) ، وأشار ابن الاثير من جانبه الى ان هذه الغزوة كانت سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م^(٧) .

أما عن البدايات الاولى لعمليات الشواتي فعلى الرغم من الاشارة التاريخية الصريحة آنفة الذكر ان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان قد سمى الشواتي وحددها سنة ١٧هـ / ٦٣٨م فان ابن سعد^(٨) (ت ٢٣٠هـ) وابن عساکر^(٩) (ت ٥٧١هـ) اشارا الى ان المسلمين شتوا بأرض الروم سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م ((وهو أول مشتی شتوه بها)) ، وبهذا تكون هذه الشتاتية اسبق تاريخياً من شتاتية بسر بن أبي أرطأة^(١) التي انفذها الخليفة معاوية سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م الى بلاد الروم^(٢) ، والتي عدت أول شتاتية للمسلمين في أرض الروم حسب إحدى الدراسات الحديثة ذات الصلة بالموضوع^(٣) .

دواعي اعتماد اسلوب الصوائف والشواتي

قبل البحث في كل ما يتعلق بمقاتلة الصوائف والشواتي من حيث أعدادهم ونوعية تجهيزاتهم وتعبئتهم في المسير والتعسكر والقتال ، ومدى تطبيقهم لمبادئ الحرب الاساسية في هذه الفعاليات واي نوع من الرجال كان يصطفى لقيادتها وللجهاد فيها ، ووصايا الخلفاء ورعايتهم لجند الصوائف والشواتي ، وما الاهداف الآتية والمستقبلية المؤمل تحقيقها من هذه الفعاليات الحربية .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٦) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٥٧ .

(٧) الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(٨) الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٢٢٤ .

(٩) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٧ ، ص ١١٤ .

(١) بسر بن أبي أرطأة : عمير بن عويمر ... ابن عامر بن لؤي ، كان فارساً شجاعاً وفي صحبته تردد ، كان له نكاية بالروم بقي حياً الى خلافة عبد الملك بن مروان ، ينظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ص ٤٠٩ ؛ الذهبي ، سير اعلام ، ج ٤ ، ص ٤٩٢ .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ج ١ ، ص ٢٣٨ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

(٣) صالح حسن عبد عيسى الشمري ، العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي ٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ٦٧ .

قبل البحث في كل هذه الامور الجوهرية التي لم اجد لها ذكراً في الدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع والتي تسنى لي الاطلاع عليها ، لابد من بيان اهم الاسباب التي كانت وراء انتهاج المسلمين لهذا الأسلوب التعبوي بالذات أكثر من غيره حتى غدا سمة مميزة من سمات الحرب بين العرب المسلمين والروم حتى نهاية العصر الاموي ، تلك الاسباب التي يمكن استنباطها في ضوء المعطيات التاريخية .

والظاهر ان عامل الارض والمناخ كان له ابعد الأثر في اعتماد هذا الاسلوب ، فالأرض تعد واحداً من العوامل الرئيسية التي تحدد شكل أو طريقة استخدام القوات وحجمها وأسلوب انفتاحها ونوعية التجهيزات والأسلحة الواجب توفرها^(٤)، وإذا ما علمنا ان ارض الروم كانت قد اتسمت بالتضرس الشديد والمناخ القاسي ، ((جلّها جبال وقلاع وحصون ومطامير وقرى في الجبال منحوتة وتحت الارض منقوبة ،^(١))) أدركنا جانباً من هذه الاسباب ، لأن طبيعة تلك التضاريس (من جبال ومرتفعات ووديان) قد تفرض تأثيرها على المواقف الهجومية بطرق مختلفة ، إذ تعيق قدرات ومناورات المهاجم ، وتعطي المدافع مواضع مشرفة يستفاد منها في المراقبة والدفاع معاً ، وتساعد على القيام بالحركات التراجعية بالإفادة من العوائق الطبيعية لحماية الأجنحة وتعطيل محاولات العدو الهجومية ، وتؤدي وعورة تلك المناطق الى تباعد الطرق عن بعضها والتوائها وتحدد طاقتها ، وعلى الرغم من ذلك فإنها تساعد بصورة عامة على حركات الدفاع ، لاسيما لقوات المشاة (الرجال) الصغيرة ، ولاتساعد كثيراً على الحركات التعرضية باستخدام القوات الكبيرة الحجم على نطاق واسع ، وفي هذه التضاريس تكون المواضع الدفاعية المعادية قوية ومستندة الأجنحة في الغالب ويصعب القيام بمناورة ضرب الأجنحة والاحاطة ويتعذر القضاء على العدو بمعركة حاسمة ، لأن مثل هذه الأراضي تسهل الانسحاب وتيسر إيجاد مواضع دفاعية لقتال التعويق ولفقتال المؤخرات ، وهنا يصعب التعاون التام بين أقسام الجيش المهاجم العامل بمثل هذه التضاريس إذا ما كان كبير الحجم ، لاسيما في المضائق والمنعطفات الصخرية ، وتتعرض خطوط ومواصلات المهاجم في هذه المناطق لخطر الانقطاع وهذا ما يستلزم تخصيص قوات كبيرة الاعداد لحماية هذه الخطوط ، وإذا ما كانت هذه التضاريس في بلاد المدافع فانه يستفيد منها كثيراً ؛ لأنه

(٤) قصي فالح عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية في الفتوحات الاسلامية ١١هـ / ٦٣٢م - ١٣٢هـ / ٧٤٩م ،

دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ١٩٩٧م) ، ص ٦٧ .

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٨١ .

يعرفها جيداً" ، وإن السكان المحليين يقدمون له مساعدات ثمينة وبذلك يستطيع شن حرب العصابات لمقاومة الجيش المهاجم^(٢) .

ويبدو أن هذه الأمور كانت تنطبق الى حدٍ ما على ساحة الحركات الحربية التي بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، وكانت نصب أعين المسلمين الذين لا بد أنهم عقلوا شيئاً منها بارسالهم سرايا الاستطلاع الى العمق الرومي خلف الدروب منذ وقت مبكر من الحرب معهم .

فضلاً عن ذلك فإن سعة ميدان المجابهة الحربية مع الروم من حيث الطول والعمق وتنوع تضاريسه وصعوبة تغطيتها بأكملها بقطعات مقاتلة لقصور حجم وقدرات جيش المسلمين عن تنفيذ مثل هذا الامر آنذاك ، لأن عليه أيضاً مجابهة أعداء الأسلام الآخرين على الجبهات الاخرى ليس فقط الروم ، وصعوبات إبقاء الجند لأزمان طويلة (تجميرهم) في ثكنات عبارة عن قلاع وحصون تحت وطأة الظروف الجوية والتضاريس المعروفة لبلاد الروم ، مما قد يؤدي الى إثارة امتعاض أولئك الجند وسخطهم على الخلافة وينعكس سلباً على دقة ومستوى ادائهم القتالي وصدق نواياهم الجهادية ، هذه الأمور كانت على ما يبدو من جملة الأسباب التي دفعت المسلمين لأتباع اسلوب الصوائف والشواتي في قتال الروم منذ وقت مبكر من المجابهة معهم .

و فضلاً عن هذا فقد كان للمناخ السائد هناك أثر بالغ الاهمية، و لاسيما ان الامكانيات المتيسرة للمسلمين وقتذاك قد لا تستطيع تأمين حماية الجيوش الكبيرة من التقلبات الجوية بصورة كافية ومضبوطة ، فضلاً عن صعوبة تنقل القطعات الكبيرة وانفتاحها في الأيام الموحلة والمتلجة شتاءً ، يضاف الى ذلك صعوبة الحركة المستمرة بسبب طبيعة الأرض الوعرة لما في ذلك من جهد ، لذا كان عليهم تحديد حجم قواتهم المهاجمة واسلوب القتال في ضوء ذلك ، وقد كانت الصوائف والشواتي من حيث وقت انطلاقها وزمن بقائها في ارض الروم خير اسلوب للتغلب على هذه المشكلة السوقية والتعبوية .

وكانت قوة العدو وحجم التهديد الذي يشكله ونوع التحصينات والتدابير الدفاعية المتخذة من قبله وتنظيمه وتسليحه لها الاثر البالغ في تحديد اسلوب التعبئة الواجب على

(٢) بلنير وبيرسي ، لويس سي بلنير وجي . أيزل بيرسي ، الجغرافية العسكرية ، ترجمة : د. عبد الرزاق عباس حسن مراجعة اللواء الركن عبد المطلب أمين ، دار الحرية ، (بغداد ١٩٧٥ م) ، ص ٦٣ ؛ وليد يونس خيرى ، الجغرافية العسكرية ، دار الحرية ، (بغداد ١٩٧٦ م) ، ص ٤٢ .

المسلمين تطبيقها وقتئذ ، فقد حذق الروم بأعمال الهندسة والابنية واتخاذ الحصون وعقد القناطر والجسور وكان لهم فيها حظ وافر على حد تعبير ابن الفقيه^(١) ، واعتمدوا منذ سنين سبقت الحرب مع العرب نظاماً دفاعياً فعالاً ومتميزاً وهو نظام الثيمات (البنود)^(٢) Themes فلأجل حماية آسيا الصغرى كان لابد من وضعها في حالة دفاع دائم ، وقد أقتضى ذلك توزيع فيالق من الجيش (Themata) على جبهات من تلك البلاد تعسكر فيها بصفة دائمة ، ولترغيب الجند بالاستقرار بأماكنهم تلك وشحذ هممهم للدفاع عن تلك المناطق التي استوطنوها منحتهم الامبراطورية قطعاً من الارض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها وليس لهم بيعها ، لأن منحها كان يتضمن إلزاماً بالخدمة في الجيش يرثه الابن عن أبيه^(١) ، ومنحت قائد الفيلق في الاقاليم سلطات مدنية وعسكرية مطلقة وبذا غدت آسيا الصغرى مقسمة على اقاليم حربية ، وبالتدريج أعطت تلك الفيالق أسماءها للأقاليم التي أقامت بها ، وكان الفيلق مقسماً على فرق Turma وهذه مقسمة الى الوية Moirai وتلك مقسمة على آليات Tagmata وقد قسمت الاخيرة ايضاً الى بنود Banda وهذه التسمية التالية هي التي اختارتها المصادر العربية للدلالة على ما أسماه الروم الثيمات Themata^(٢) .

واهم تلك الثيمات (البنود) في القرن السابع الميلادي وما تلاه هي الثيما أو البند الارميني ، (Armeniakon) في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى مجاور لأرمينية وثيما أنتولي كون (Anatolikon) ويشمل الجزء الجنوبي الاوسط من آسيا الصغرى من كبدوكيا غرباً الى بحر أيجه جنوباً حتى سيلوسيا والمتوسط ، وكان واجب هذين البندين حماية قلب آسيا الصغرى من الهجمات العربية ، أما البند الثالث فهو بند الأوبسكيون Opsikion المسمى بالحرس الامبراطوري وكان يغطي المنطقة الشمالية المركزية والشمالية الغربية لآسيا الصغرى والمجاورة للبحر الأسود والمضايق ، وكان واجبه العمل

(١) كتاب البلدان ، ص ٥١٢ .

(٢)

Ostorogrosky, Opicet, pp226 – 229.

(١) بينز ، نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب : حسين مؤنس محمود محمد زايد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (د٠ ت) ص ص ١٧٨ – ١٧٩ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣ – ١٠٨١ م ، دار النهضة العربية (بيروت ١٩٨٢م) ، ص ص ١٢٠ – ١٢٣ .

(٢) إبراهيم أحمد العدوي ، دراسات في التاريخ البيزنطي ، المجلة التاريخية المصرية ، م ٢ ، ع ٢٤ ، اكتوبر ١٩٤٩م ، ص ص ٨٧ – ٨٨ . ينظر: المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ص ١٦٦ – ١٧٠ .

كدرع حصين للعاصمة القسطنطينية ، أما البند الرابع فهو بند سيبيريوت البحرية Cibgrrrhaeot على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى التي تضم جزيرة رودس وجزر بحر أيجه وكانت مهمة هذا البند حراسة وحماية تلك السواحل وسواحل البحر المتوسط من هجمات العرب المسلمين البحرية^(٢) .

وكانت عساكر هذه الثيمات تقوموا على حراسة البلاد ووقايتها من الغارات الخارجية ، فإذا حدث مثلاً أن اخترق المسلمون الحدود أبلغ القائد المحلي الأمر في الحال الى قائد اللواء فيرسل هذا بدوره في الحال تحذيراً الى الالوية المجاورة على حين تنطلق خيالاته لتعقب المغيرين ومواصلة ملاحقتهم في الاطراف بينما تحتل المشاة الثقيلة المسماة الكليسورات kleisouai^(١) الممرات التي لا بد لهم من المرور عبرها، اثناء عودتهم ، وفي الوقت ذاته تكون بقية الالوية قد عبأت قواتها الرئيسية واستعدت للأتجاه صوب احد المواقع التي يتوقع ان يكون العدو في طريقه اليها ، فان احسن توقيت تركيز الجند فربما امكن الإمساك بالمغيرين والإحاطة بهم والحاق الضرر بقواتهم^(٢) .

واعتمد الجيش البيزنطي على صنفى المشاة (الرجال) والخيالة (الفرسان) في حروبه ، وكانوا يقسمون على فرق خفيفة السلاح واخرى ثقيلة السلاح ، فكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة فولاذية ودرعاً من الزرد يكسوه من رقبتة الى فخذه وقفاً من الحديد واحذية من الفولاذ وكان يحمل عباءة خفيفة أو برنساً يرتديه فوق سلاحه أيام الصيف المحرقة وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها لتقيه من البرد والرطوبة وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجرأ ورمحاً وقوساً للرماية من على ظهور الخيل وجعبة للسهم ، واذا كان ممن يقفون في الصفوف الاولى ويقومون بالهجوم جعلت لحصانة دروع فولاذية على صدره وعصابات فولاذية على جبهته ، وكان الفارس ذو السلاح الخفيف عادة من الرماة فيلبس سترة من الزرد تغطي أنصافهم العليا وخوذة فولاذية وكانت اسلحتهم السيف والرمح وفأساً ذات نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من الناحية الاخرى ، وكان جندي

(٢) ينظر خريطة رقم (٧) باللغة الانكليزية ، ، Bosworth، Opcit p، 123 .

(١) Ramasy, Opcit , pp349 – 350 و Runciman, Steven Byzantine Civilization , University paper back , (London1961) , pp 140 – 141 .

إبراهيم أحمد العدوي ، دراسات في التاريخ البيزنطي ، ص ٨٦ .

(٢) رنسيما ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد راجعه زكي علي ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٦١ م) ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦ .

المشاة ذو السلاح الخفيف إما رامياً عن القوس أو قاذفاً بالحربة فكان يلبس قميصاً طويلاً من الزرد يصل الى ركبته أو درعاً خفيفاً في بعض الاحيان ويحمل جعبةً للسهم وفأساً في حزامه ، وكان يعلق خلفه ترساً صغيراً مستديراً^(٣) .

وتجهز الجيش البيزنطي بأسلحة الحصار الثقيلة التي كانت تحمل بجانب متاع الجند على الحيوانات او العجلات المسحوبة الى جانب بقية الصنوف الاخرى^(٤)، وكانوا يعتمدون في اساليبهم التعبوية الحيلة والحذر في قتالهم وقلما يبادرون الى اتخاذ الاساليب الخطرة في الحرب او المجازفة ، فالقائد كان عليه ان يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المشاركة في أي اشتباك حربي ، فالهرب المصطنع والمباغلة والهجوم الليلي والكمائن والمفاوضات الطويلة لكسب الوقت ، كل هذه الاساليب واشباهها كان معمولاً بها في الجيش البيزنطي ويجري التدريب عليها نظرياً وعملياً وممارستها ، وكان الجندي البيزنطي الذي يعتمد على القوة حيث يغني الدهاء في كسب النصر يعد أبله ولا كفاية به^(١) ، فالروم كما وصفهم الحسن بن عبد الله (ت ٧٠٩هـ) كانوا ((أهل صنائع وحرف وصبر وخدمة ولهم حيل في السياسات ووضع آلات حربية... وميلهم الى المكاييد في الحروب اكثر))^(٢) بلغ تعداد جيشهم في المدة المحصورة بين حكم جستنيان والقرن التاسع الميلادي ما بين (١٢٠ - ١٥٠) الف مقاتل^(٣) ، ما يقارب السبعين ألفاً من ألوية الثغور الشرقية والباقي من الألوية الغربية وفرق الجيش المركزي ولكن يجب ان نضيف اليهم العدد الهائل من ((متعقة المعسكرات)) الذين يرافقون كل جيش وكان

^(٣) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ٨٤ - ٨٥ . Runciman, Opcit, pp 139 – 149

^(٤) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ رنسيان ، الحضارة البيزنطية ، ص ص ١٧١ - ١٧٢ . ذكر ابن عساكر انهم استخدموا المجانيق والدبابات اثناء هجومهم الذي شنوه على مدينة طرابلس في الساحل الشامي في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) ، وأشار ابن كثير الى ان احد المقاتلة المسلمين تحت قيادة فضالة بن عبيد الانصاري استشهد في احدى الغزوات البحرية بفعل مقذوفة أحد مجانيق الروم . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣ ، ص ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ، ابن كثير ، ابو الفدا اسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن الكريم ، دار الفكر ، (بيروت ١٤٠١هـ) ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

^(١) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٨٢ - ١٨٣ .

^(٢) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر (ت ٧٠٩هـ) ، آثار الاول في ترتيب الدول ، مطبعة بلاق ، (مصر د . ت) ص ١٤٦ .

^(٣) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٦ ؛ رنسيان ، الحضارة البيزنطية ، ص ص ١٧١ - ١٧٢ .

مسموحاً للجند بان يصطحبوا معهم العبيد والخدم حتى لا يرهبهم الأعياء بسبب اضطرارهم الى اقامة خيامهم أو حفر الخنادق^(٤) .

بعد هذا العرض التاريخي الموجز عن حال الجند البيزنطي والنظام العسكري الذي يقاتل تحت مظلته ، كان على العرب المسلمين في منازلهم لمثل ذلك الجيش المدجج بأجود أنواع السلاح ، أن يتجرعوا عليه ويلحقوا به الهزائم ، بفضل ما تميزوا به من أيمن عميق وسخاء بالأنفس في ميادين النزال ، ولا يسعنا إلا أن نكبرهم أيما إكبار .

تنظيمات مقاتلة الصوائف والشواتي وسجايهم

أما عن أعداد مقاتلة الصوائف والشواتي فانها كانت متفاوتة وغير محددة بعدد معين ، وذلك تبعاً لنوع المهمات الحربية المنوط بهم انجازها وتبعاً لطبيعة الارض والمناخ السائدين في ميدان الجهاد وحجم العدو ونوعية استحضاراته الدفاعية من جانب آخر وهذا ما يمكن استنتاجه من النصوص التاريخية ذات الصلة ، فعلى سبيل المثال أشار ابن الاثير^(١) في كلامه عن احداث سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م الى ان والي الشام معاوية بن ابي سفيان دخل بلاد الروم مجاهداً في عشرة آلاف فارس من المسلمين ، وأشار الذهبي^(٢) هو الآخر الى ان الروم استجاشت سنة ٢٤هـ / ٦٤٤م حتى استمد امراء الشام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فامدهم بثمانية آلاف من العراق فمضوا حتى دخلوا ارض الروم مع اهل الشام ((فشتوا وسبوا وافتتحوها حصوناً كثيرة)) ، وهذا يعني ايغالهم في بلاد الروم وخوضهم معارك ضارية مع الروم كانت نتيجتها فتح عدد من حصونهم وأسر

Rnciman , Opcit , pp.146 – 147

^(٤) رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ص ١٧١ – ١٧٢ ؛

^(١) الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

^(٢) تاريخ الاسلام (الخلفاء الراشدون) ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ،

(بيروت ، ١٩٨٧م) ، ٣٠٩ .

أعداد منهم ، وكانت بعض الصوائف أيام الخليفة معاوية بن ابي سفيان من حيث عددها على شكل سرايا صغيرة من الخيالة يبلغ تعدادها اربعين فارساً أو يزيد بقليل ، هدفها الإغارة على مواضع محددة وتنفيذ واجبات استطلاعية معينة ^(٣)، وقد يزداد عدد مقاتلة الصوائف الى الف مقاتل ^(٤) في بعض الاحيان والى الف وخمسمائة مقاتل في أحيان أخرى ^(٥) ويبدو ان جهات أخرى من ميدان الجهاد كانت تضاريسها تسمح بتقدم وانفتاح اعداد اكثر من الجند ، إضافة الى ضرورات مجابهة قوة العدو واستحضاراته الدفاعية بزخم عددي هائل ، ولتعدد أهداف تلك الحملات التي يؤمل تحقيقها ، كل تلك الامور اوجبت ارسال صوائف كبيرة العدد تصل مقدمة بعض منها احياناً الى ثمانية آلاف مقاتل ، كما حصل ذلك في إحدى الصوائف التي قادها الامير سليمان ابن هشام بن عبد الملك ^(١)، وقاد عمرو بن الواضح ^(٢) إحدى الصوائف في نحو من عشرين ألفاً فوغل في أرض الروم وخاض عدداً من المعارك معهم ووقع خسائر كبيرة في صفوفهم ^(٣) ، وسير الخليفة عمر بن عبد العزيز صائفتين صوب أرض الروم اختار لقيادة احدهما الوليد بن هشام المعيطي ^(٤)، والثانية عمراً بن قيس السكوني ^(٥) في ما يقرب من اربعين ألفاً من الجند - حسب رواية ابن عساكر - ^(٦) لمساعدة المقاتلة المسلمين الذين كانوا مع القائد مسلمة بن عبد الملك والذين ضربوا الحصار على العاصمة البيزنطية لما اصابهم من ضيق وشدة هناك ولستر انسحابهم وحمل ما يلزمهم من ميرة وعدة على ما يبدو .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ١٥٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٧ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ٤٥٩ .

(٢) عمرو بن الواضح : صاحب الواضاحية وهو قائد من قواد بني أمية كان مروان محمد بعثه لقتال الذين خلعه بدمشق أيام زامل بن عمرو السكسكي . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٤٤٥ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٤٤٥ .

(٤) الوليد بن هشام المعيطي ابو يعيث روى عن ام الدرداء وعبد الله بن محيريز .. كان شريفاً وهو صاحب الصوائف زمن الوليد كان حياً في خلافة مروان بن محمد . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٣ ، ص ٣٠٩ .

(٥) عمرو بن قيس السكوني : عمرو بن قيس بن ثور بن مازن السكوني الكندي ، شيخ اهل حمص مات سنة

١٤٠ هـ . الذهبي ، سير اعلام ، ج ٦ ، ص ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٣١٩ .

وكان على الخلافة اختيار القادة الكفاء والاشداء اختياراً صائباً ومتأنياً من شأنه تذليل صعوبات تلك المهمات وانجاحها ، فقد روي في هذا الشأن ان القائد سفيان بن عوف الغامدي^(٧) . كان قد أخذ في كل جنده من اجناد الشام رجلاً ((أهل فروسية وعفاف وسياسة للحرب وكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به))^(٨) ، وفي هذا التدبير اشارة واضحة الى أن أهمية الأهداف المراد تحقيقها والصعوبات الجمة التي تقترن بها ولاسيما شراسة العدو وطبيعة الأرض الوعرة ، والمناخ البارد خاصة في فصل الشتاء تتطلب هكذا رجالاً برزوا من بين صفوف المجاهدين يحملون مواصفات وخصالا أهلتهن لنيل شرف الجهاد ومواجهة عدو صعب المراس وهم الروم ، كما ان في هذا النص بيانا للدور الذي اضطلعت به اجناد الشام - الى جانب امصار الدولة العربية الاخرى - في رقد ساحات الحرب مع الروم بالرجال الاشداء ذوي المواصفات الخاصة ، وبعدد الحرب اللازمة ، في اجراء يشابه ما كانت تقوم به الثيمات (البنود) البيزنطية على الجبهة المقابلة لساحة الحرب .

ولم يكن اختيار قادة الصوائف و الشواتي اختياراً عشوائياً ، إنما بناءً على رؤية بعيدة المدى من قبل الخلفاء وتقدير صائب يتناسب والمهام التي سينفذونها وقوة وشراسة العدو الذي سيواجهونه ، ففي هذا السياق اورد الواقدي (ت ٢٠٧هـ) في كتاب ((الصوائف)) اكثر من رواية تؤكد ذلك ، منها ان الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كتب الى معاوية بن ابي سفيان والي الشام ((ان أغز الصائفة رجلاً مأموناً على المسلمين رفيقاً بسياستهم ، فعقد لأبي بحرية عبد الله بن قيس الكندي ، وكان ناسكاً فقيهاً يحمل عنه الحديث)) ، وكان معاوية وخلفاء بني امية يعظمونه^(٩) ، وفي سنة ٢٦هـ / ٦٤٦م كتب الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الى معاوية ايضاً ((ان اغز الروم رجلاً حازماً أديباً ذا سن وحنكة فاغزا يزيد بن الحر العبسي و كان من خيار المسلمين

(٧) سفيان بن عوف بن المغفل بن عوف ... ابن سعد بن مناة بن غامد ، استعمله معاوية على الصوائف قبل ان توفي سنة ٥٢هـ وقيل سنة ٥٤هـ . ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢١ ، ص ٣٤٧ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٣ ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٢٩٦ .

(٩) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٢ ، ص ١٤ ؛ الذهبي ، سير اعلام ، ج ٥ ، ص ٤٨٧ ، المزي ، جمال الدين ابو الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) ، تهذيب الكمال في اسماء الرجال وبهامشه نيل الوطر من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ، راجعه وقدم له : د. سهيل زكار ، تحقيق الشيخ احمد علي عبيد وحسن احمد الاغا ، دار الفكر (بيروت ١٩٩٤م) ج ١٠ ، ص ٤٣٢ .

من أهل دمشق وعقد له على الصائفة فغزا^(٢)، وقد كان قادة الصوائف والشواتي وجندهم ممن تحلوا بسجايا الخير التي اهلتهم لمجاهدة الروم ، امتازوا بعمق الايمان بالله تعالى والاندفاع رغبة في الجهاد واتسموا بالعفاف عن المغنم والايثار على انفسهم ، فضلاً عن الذكاء الميداني الكبير وحسن التصرف في اصعب الظروف وادارة الحرب ، وقد زخرت المصادر بالكثير من النصوص الدالة على ذلك والتي لم يفتن لها العديد من الباحثين المحدثين الذين تناولوا الموضوع بالبحث والدراسة ، فمن الشواهد على اندفاع اولئك المقاتلة مارواه الواقدي عن عبد الوهاب بن بخت^(٣) (ت ١١٣ هـ) انه غزا مجاهداً مع عبد الله البطل^(٤) (ت ١٢٢ هـ) ((وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي إن لم اسفك دمك ثم ألقى ببضته عن رأسه وصاح انا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ؟ ثم تقدم في نحور العدو ، قال: فمر برجل وهو يقول واعطشاه فقال : تقدم الري أمامك قال : فخالط القوم فقتل وقتل فرسه ((^(١) .

واجتاز اولئك القادة الافاذ اختبارات الخلافة لهم في قوة ايمانهم ومدى تمسكهم بتعاليم الشرع الحنيف بنجاح منقطع النضير ، فقد روي في هذا الصدد ان الخليفة معاوية بن ابي سفيان كتب الى مالك بن عبد الله الخثعمي وعبد الله بن قيس الفزاري يصطفيان له من الخمس ، فأما عبد الله فأنفذ كتابه وأما مالك فلم ينفذه ، فلما قدما على معاوية بدأه بالأذن وفضله في الجائزة فقال : ((ان مالكا عصاني وأطاع الله وإنك عصيت الله واطعتني فلما دخل عليه مالك قال : ما منعك ان تنفذ كتابي ؟ قال : ما كان أقبح بك وبني ان تكون في زاوية من زوايا جهنم تلعنني والعنك وتلومني والومك وتقول لي هذا عملك واقول لك هذا عملك^(٢)، وقد كان مالك هذا يسمى ((مالك السرايا ... من ابطال الاسلام

^(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٥ ، ص ١٥١ .

^(٣) عبد الوهاب بن بخت ابو عبيدة ويقال ابو بكر مولى آل مروان مكي سكن الشام ثم تحول الى المدينة روى

عن ابن عمر وانس بن مالك ، استشهد في بلاد الروم سنة ١١٣ هـ . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٧ ، ص ٣٠٣ .

^(٤) ينظر ترجمته بالتفصيل : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

^(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٧ ، ص ٣٠٩ . ينظر ايضا : مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

^(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

قاد جيوش الصوائف اربعين سنة ^(٣)، وسمي مالك الصوائف ومالك الروم لكثرة دخوله بلادهم مجاهداً في سبيل الله تعالى .

وتكرر الامر ذاته مع عمرو بن معاوية العقيلي أحد قادة الصوائف زمن الخليفة معاوية الذي أجاب الاخير بأبيات من الشعر تحمل أسمى المعاني الجهادية النبيلة التي تحلى بها هذا الطراز من المجاهدين ^(٤).

وعف مقاتلة الصوائف والشواتي عن الغلول وتناهوا فيما بينهم عنها ، لئلا يدينسوا جهادهم ويشوبوا أيمانهم وكانوا يتذكرون أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشأن ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : ((من وجدتموه غلّ فاضربوه واحرقوا متاعه)) ^(١) الذي رواه سالم بن عبد الله بن عمر (ت ١٠٦هـ) لمسلمة بن عبد الملك في إحدى الغزوات بأرض الروم لما غلّ أحد مقاتلته فأحرق مسلمة متاعه ، وفعل الامير الوليد بن هشام بن عبد الملك الشيء نفسه مع رجل من جنده غلّ فحرق متاعه وضربه ولم يعطه سهمه من المغنم ^(٢)، وذكر ان رجلاً نفقت دابته فأتى مالك بن عبد الله الخثعمي وبين يديه برزون من المغنم ((فقال : احملني أيها الامير على هذا البرزون فقال : ما استطيع حمله فقال الرجل : اني لم اسالك حمله وانما سالتك ان تحملني عليه قال مالك : إنه من المغنم والله يقول : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) ^(٣) فما اطيع حمله ولكن سل جميع الجيش حظوظهم فان اعطوكها فحظي لك)) ^(٤) . بهذا الطراز من الرجال الذين آمنوا بالله تعالى وبكتابه الكريم وسنة نبيه الرحيم (صلى الله عليه وسلم) قولاً وفعلاً

^(٣) الذهبي ، سير اعلام ، ج ٥ ، ص ١٣٦ .

^(٤) قال عمرو بن معاوية العقيلي :

وأترك أصحابي فما ذاك بالعدل
ولأبتغي طول الامارة بالبخل
فلست على مالي بمستغلق قفلي

تهادي قریش في دمشق غنيمتي
ولست أميراً أجمع الناس تاجراً
فان يمسك الشيخ الدمشقي ماله

ينظر : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٣٦١ .

^(١) احمد بن حنبل ، المسند ، ج ١ ، ص ٢٢ ؛ ابو داود ، سليمان بن الأشعث ابو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) سنن ابي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، د ٣٠ ، ج ٣ ، ص ٦٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٢ ، ص ٣٧٣ .

^(٢) ابو داود ، سنن ابي داود ، ج ٣ ، ص ٦٩ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١١٥ .

^(٣) سورة آل عمران آية ١٦١ .

^(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

كانت الدولة العربية الاسلامية في صدر الاسلام والعصر الاموي تجابه دولة الروم القوية وتخوض غمار الحرب معها جهاداً في سبيل الله تعالى .

فضلاً عن تلك السجايا والخلال فقد كان قادة ورجال الصوائف والشواتي على درجة عالية من الذكاء الميداني والحس الامني والاستخباري، وخير شاهد على ذلك ان عمراً بن الوضاح قاد الصائفة سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م في نحو من عشرين ألفاً ومعه الامير معاوية بن هشام بن عبد الملك وفي طريق عودته بالغنائم ((سمع منشداً ينشد : الا من دل على بغلة كذا يتبعها إليها برذون كذا فدعا به عمرو فقال : ما تقول ؟ فاخبره بما ينشد ، فقال انما البغال تتبع الفها من البراذين ولا يعرف برذونا يتبع البغال، فما انت ومن اين انت ومن بعث بك ؟ قال فذهب ينسب فلجلج وعرف انه قد لجلج فقال : ليخني الامير فأخلاه فاخبره انه عين للروم وانه خلف اهل الرساتيق والكور قد حشروا الى عقبة الركاب ليأخذوا عليك بها ويستقذوا ما غنمت))^(٥).

ونظراً لقدسية الجهاد في الصوائف والشواتي فقد استبعد الخلفاء الامويون الظلمة وعمال السوء من النفير للقتال فيها، ومن ذلك ما حدث مع عبيد الله بن يزيد بن ابي مسلم الثقفي سياف الحجاج الذي رده الخليفة عمر بن عبد العزيز من الدرب^(١) وعقب على ذلك بالقول : ((ليس بمثله يستعين المسلمون في قتال عدوهم وكان عطاؤه الفين فرده عمر الى ثلاثين فرجع من دابق))^(٢) وفي هذا تجسيد آخر للأبعاد الايمانية والجهادية للحرب مع الروم البيزنطيين .

اما عن الاستنفار وتحشيد قدرات الامة المادية والبشرية فقد اشارت المصادر الى ان العرب في العصر الاموي كانوا قد اتخذوا من منطقة دابق في الشام معسكراً تجتمع فيه المقاتلة وتتطلق نحو اهدافها في الجبهة البيزنطية لقربها من الثغور^(٣)، منذ عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان إذ كانت دابق ((مجمعاً لعساكر الاسلام في الصائفة من

(٥) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٤٤٥ .

(١) البسوي ، ابو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) ، المعرفة والتاريخ ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، تحقيق : اكرم ضياء العمري ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٩٨١م) ، ج ١ ، ص ٦٠٧ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ١٤٨ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ١٤٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٦٢٢ . دابق : قرية قرب حلب من اعمال عراز بينها وبين حلب اربعة فراسخ عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان اذا غزوا الطائفة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) ينظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ١٩٧ ، ج ٢١ ، ص ٢١٧ ، ج ٤٥ ، ص ١٥٨ .

زمن معاوية بن ابي سفيان ، فكانوا يجتمعون بها فأذا تكامل العسكر وقبضوا عطاءهم دخلوا حينئذ من الثغور الى جهاد العدو واستمر ذلك في ايام بني أمية)) (٤) .

وهب الجند من جميع الامصار والاجناد تلبية لنداء الخلافة ورغبة في جهاد الروم فقد اسهم مقاتلة مصر وافريقية الى جانب اخوانهم مقاتلة الشام في الصوائف والشواتي البرية والبحرية على حد سواء (٥) وقاتل جموع من اهل المدينة المنورة في الجبهة الرومية رديفاً لأخوانهم من اهل الشام (٦) وكذا الحال بالنسبة للموالي الذين نفروا وجاهدوا جنباً الى جنب مع اخوانهم العرب المسلمين لاسيما في الصوائف والشواتي البحرية (٧) .

وما ان يتم التحشد في منطقة الاجتماع حتى يأخذ الخلفاء بوصفهم قادة الجهاد بتحديد واجبات الجند وأولويات العمل التعرضي بوصايا موجزة توجه لهم ، تجسدت فيها مبادئ الحرب تلك المبادئ التي غدت من اساسيات الحرب في العصر الحديث ، فقد روي ان الخليفة معاوية بن ابي سفيان ولّى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على الصائفة حين استجاشت الروم في أحد الأيام ، وكتب له عهداً ثم قال له : ((ما انت صانع بعهدي ؟ - (قاصداً بذلك اختباره) - قال : ساتخذه اماماً ومثلاً فلا اتجاوزه فقال : رد علي عهدي فقال : اتعزلني ولم تخبرني ... ثم بعث الى سفيان بن عوف الغامدي من الازد فقال له : ولينك صائفة وهذا عهدي فما انت صانع ؟ قال : اتخذه اماماً ما أم الحزم ، فاذا خالفه أعملت رأيي وسألت الله التوفيق ، فقال معاوية : أنت لها فلما ودعه قال معاوية : هذا والله الذي لا يدفع عن بطاء ، ولا يكفكف من عجلة ، ولا يضرب على الامور ضرب الجمال الثقال ، فغزا الصائفة)) (١) .

وفي هذا النص اشارة بيّنة الى حرص الخليفة معاوية على تطبيق ((مبدأ (المرونة)) (٢) في تنفيذ خطة الحرب التعرضية وحرصه على شحذ قدرات قادته الابداعية

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، ج ٥٧ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٤٨ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ٣٤٧ .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٥٦ ، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(١) البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ١ ق ٤ ، ص ص ٨٣ - ٨٤ ؛ جمل من كتاب انساب الإشراف ، ج ١٠ ، ص ٢٠٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ٣٤٧ .

(٢) مبدأ المرونة : ((وهي القابلية على رد الفعل السريع بالاعتماد على الصفات الفكرية وسرعة اتخاذ القرار في الوقت المطلوب ..)) يونس محمد الذرب ، السوق العسكري ، ص ٢٠ .

على مواجهة مستجدات الحرب وتطوراتها الآنية ، ذلك لأن القائد في الميدان يرى ما لا يراه الغائب عنه ، وعليه ان يقدر الموقف ويتصرف حسب ما يتطلبه أمر النزاع ، فالتنظيم الحربي واسلوب التعبئة وشكل انفتاح القطعات وتحركها والتخطيط للمعارك ليس له قاعدة ثابتة يسير عليها القائد ولا يحدد الى سواها وانما هي قواعد اجتهادية يغلب تطبيقها ويكثر تبديلها أو تعديلها في المعارك ، لهذا لما لمس الخليفة معاوية حالة الجمود والالتزام الحرفي بما كتب له عند عبد الرحمن بن خالد عزله وولى مكانه قائداً آخر اكثر مرونة منه واهلاً لمثل هذا الامر شجاعاً عند اللقاء ، وثيداً متأنياً في الملمات والمواقف الصعبة ، لا يعتريه الوهن ولا التثاقل اذا ما حمى الوطيس .

ان مثل هذه الاعتبارات كانت حاضرة في ذهن الخليفة معاوية ومثله الخليفة عبد الملك بن مروان الذي وجه أحد قادته حين أرسله على رأس قوة الصائفة الى أرض الروم بتطبيق مبدأ آخر من مبادئ الحرب وهو ((الاقتصاد بالجهد))^(٣) حفاظاً على سلامة المقاتلة ولئلا تنتشت قواهم في اكثر من محور من محاور القتال هناك كما يفهم من وصيته : ((أنت تاجر الله لعباده فكن كالمضارب الكيس إن وجد ربحاً تجر والا تحفظ برأس المال ..))^(١) .

وقد كانت هذه المبادئ نصب أعين قادة الصوائف أمثال مالك بن عبد الله الخثعمي الذي أجاب أحد أعضاء وفد الروم الذين قدموا على الخليفة معاوية بن ابي سفيان لما سألته ((كيف تصنع إذا دخلت بلاد الروم ؟ قال : أكون بمنزلة التاجر الذي يخرج ، فيلتمس وليس له هم إلا رأس ماله ، فإذا أحرزه فما أصاب من شيء فهو فضل))^(٢) ، ووجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عمراً " بن قيس السكوني ، حين ولاه قيادة الصائفة مرة على التحلي بالخلق الطيب مع الجند واحكام قيادته في الوقت ذاته لئلا ينفطر عقدهم وتذهب ريحهم ويفشلوا وهم في نحر العدو ((اقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ولا تكن في اولهم فتقتل ولا في آخرهم فتفشل ، ولكن كن وسطاً حيث يرى مكانك ويسمع صوتك))^(٣)

^(٣) الاقتصاد بالجهد : ((وهو تخطيط الانفتاح المتوازن جنباً الى جنب مع التخصيص المتعقل للموارد حيث لا

يمكن ان تكون لدينا القدرة الفائقة في كل مكان)) يونس محمد الذرب ، السوق العسكري ، ص ٢٠ .

^(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٣٢ ؛ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، (مصر د ٠ ت) ، السفر السادس ، ص ١٠٧ .

^(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .

^(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ .

وحدث المقاتلة اهل الصائفة في وصية أخرى يوماً ما على ضرورة تقوى الله تعالى واخلص النية في الجهاد^(٤) .

ودأبت الخلافة على متابعة أولئك المقاتلة وتقصي اخبارهم ورفدهم بكل ما من شأنه تيسير العمليات الحربية وديمومتها ذوداً عن الدين واهله منذ عهد مبكر من عمر الاسلام فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد عبر عن ذلك بقوله : ((لأمير جيش من جيوش المسلمين أهم اليّ من أمير مصر من الامصار ، لأن صاحب مصر يريد الامر فيراجعي وصاحب الجيش لا يستطيع ان يراجعي))^(٥) ، وقد أقتدى الخلفاء الامويون بهذا النهج كالخليفة معاوية بن ابي سفيان ، فقد روي ان مقاتلة الشاتية في احد الايام أصابهم برد شديد في الدروب ، فقال احدهم ويدعي جرير لعبيد الله بن رباح أمير الجند ((سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)) ^(١) قال : فكتب عبيد الله الى معاوية اليّ بجرير . قال : فبعثت فقدم على معاوية فقال : ما حديث ترويه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : نعم سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)) قال : انت سمعته ؟ قال : نعم انا سمعته قال : لاجرم لأوسعنهم طعاماً ولحماً ولا يشتوا لي جيش وراء الدرب بعدها ابداً . قال : فبعث اليهم القطائف والاكسية والثياب))^(٢) .

وتحرى الخليفة عمر بن عبد العزيز اخبار الجند وحوائجهم بدقة متناهية شأنه في ذلك شأن سلفه الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فيوماً ما لما بعث اليه جعونه بن الحارث ^(٣) وكان اميراً له على غزاة رسولاً سأل الخليفة عمر بن عبد العزيز ذلك الرسول ((أسلم المسلمون ؟ قال : نعم ، قال : كلهم ؟ قال : نعم إلا رجلاً واحداً عدلت به دابته فساح في الثلج ، قال : فصنع ماذا ؟ قال : فهلك . قال : لقد اطلقتها غير

(٤) ((اتقوا الله وقاتلوا اعداءه ابتغاء ثواب الآخرة فان الأجر للصابرين (في البأساء والضراء) وحين البأس))

البلاذري، جمل من كتاب انساب الاشراف ، ج ٨ ، ص ١٤٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣١٦ .

(١) القضاعي ، محمد بن سلامة بن جعفر ابو عبد الله القضاعي (ت ٤٥٤هـ) ، مسند الشهاب ، تحقيق حمدي بن عبد

المجيد السلفي ، ط ٢ ، (بيروت ١٩٨٦م) ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٧ ، ص ٤٢٧ .

(٣) جعونة بن الحارث بن خالد العامري روى عن عمر بن عبد العزيز والزهري ، واستعمله عمر بن عبد العزيز على

الدروب . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١١ ، ص ٢٤٢ .

مكررث عليّ بفلان - كاتبه - ، فكتب الى عامله جعونه : إياك وغارات الشتاء فوالله
لرجل من المسلمين أحبُّ إليّ من الروم وما حوت))^(٤) .

مما تقدم وفي ضوء النصوص بيان لمقدار المعاناة والصعوبات التي واجهت
المقاتلة العرب في أرض الروم تحت مثل تلك الظروف المناخية وهم يجالدون عدواً خبر
الأرض والمناخ السائد في بلده وهي مسألة ادركها الخلفاء الامويون واهل الدراية بالحرب
من عمالهم ، تلك الظروف التي حجت فعاليات المجاهدين الحربية وحصرتها بالرباط
والحراسة أحيانا ، والتي لم تكن بالأمر الهين تحت وطأة برد الشتاء وغزارة الامطار في
أرض الروم ^(٥) ، اذ كانت هذه الامطار الغزيرة مما يزيد في معاناة المجاهدين فضلا عما
يلاقونه من قوة الروم ، ففي سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م غزا المسلمون الروم وافتتحوا ارقلة ^(٦)
فلما قفلوا ((اصابهم مطر شديد من وراء درب الحدث فأصيب فيه ناس كثيرة))^(٧) .

إعداد مقاتلة الصوائف والشواتي وتجهيزهم

حظيت عملية إعداد مقاتلة الصوائف والشواتي وتجهيزهم بالتجهيزات المناسبة
لطبيعة مهماتهم القتالية باهتمام الخلفاء الراشدين والامويين على حد سواء ، بغية ديمومة
الجهاد وانزال الضربات بالاعداء ، وحرصوا على جودة الادارة ودقتها لأنها مطلب
أساسي لنجاح أي عمل عسكري ، إذ أشارت المصادر في هذا السياق الى ان الخليفة عمر
بن الخطاب (رضي الله عنه) كان قد أعد الركائب للمقاتلة وكان يحمل في العام الواحد
على اربعين الف بغير على حد تعبير البلاذري^(١) ، وارتبط خيلاً موسومة ((حبس في
سبيل الله))^(٢) وكان يصلح بنفسه ادوات الابل التي يحمل عليها في سبيل الله تعالى براذعها
واقتابها، فاذا حمل رجلاً على بغير جعل معه اداته^(٣) ، وحذا حذوه في ارتباط الخيل
وتجهيزها الخلفاء الامويون ومنهم على سبيل المثال سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد

(٤) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٧ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، ج ٦٠ ، ص ٣١٠ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٣٥٥ .

(٥) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٥ ، ص ٨٣ .

(٦) أرقلة : لم أعثر على ترجمة لها .

(٧) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٧ ، ص ٧٩ .

(١) جمل من كتاب انساب الاشراف ، ج ١٠ ، ص ٣٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٥٥ .

العزیز وهشام بن عبد الملك الذين كانوا يجرونها في الحلبة لانتقاء الاجود منها عدة للجهاد^(٤)، وشجعوا المسلمين على ذلك بأن جعل بعض قادة الصوائف للهجين^(٥) سهماً من المغنم كما فعل ذلك الوليد بن هشام في خلافة عمر بن عبد العزيز^(٦).

ولاريب في ان اهداف المهمات الحربية وغاياتها الى جانب عاملي الارض وقوة العدو ، كان لها اكبر الأثر في تحديد حجم ونوعية العدد والتجهيزات التي وجب على المقاتلة التزود بها ، ففي الصوائف الاستطلاعية المبكرة ايام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اتسمت تلك التجهيزات بالبساطة والخفة^(٧) ، وتطورت هذه العدد والتجهيزات وتعقدت بتطور وسائل الحرب واساليبها وبدوام رعاية الخلفاء الامويين وتواصلها ، فقد لبس الجند كعادتهم العمائم^(٨) وستر بعضهم راسه بالخوذ الفولاذية الواقية^(٩) وتجهزوا بالسيوف الصقيلة والخيول الاصيلة والدروع الحصينة وحملوا النبال عتاد القسي^(١٠) والسكاكين^(١١) وتزودوا حتى بالابر والخيوط^(١٢) وتابع بعض القادة في العصر الاموي أدق التفاصيل في تجهيزات جندهم المتوجهين الى الصوائف والشواتي مثل سفيان بن عوف الغامدي الذي كان ((لايجيز في العرض رجلاً الا بفرس ورمح ومخصف ومسلة وبرنس وخيوط كتان ومخلاة ومبضع))^(١٣).

(٤) ينظر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ، ج ١ ، ص ٦١٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٩ ، ص

(٥) الهجنة في الناس والخيول انما تكون من قبل الام فاذا كان الاب عتيقاً أي كريماً والام ليست كذلك كان الولد

هجيناً . الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٦٩١ .

(٦) ابو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٣ .

(٧) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٢ ، ص ١١٥ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٩ ، ص ٣٠٣ .

(٩) مجهول ، العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، مكتبة المثنى ، (بغداد د . ت) ، ج ٣ ، ص ٩٠ ، ابن

عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٧ ، ص ٣٠٩ .

(١٠) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦١ ، ص ٣٥٠ .

(١١) المصدر نفسه ، ج ٤٩ ، ص ٣٠٣ .

(١٢) عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٣٤٣ .

(١٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢١ ، ص ٣٥٠ .

وركب المقاتلة فضلاً عن الخيول الاصيلة الهجائن من البغال والبراذين وكذلك الحمير لأغراض شتى كالمناورة وتنقل القطعات وانفتاحها في المناطق الوعرة كالشعاب والجبال^(٧) وقد عرفوا مزية وفائدة كل واحدة من تلك الركائب بشكل دقيق^(٨).

وفي ضوء تطور متطلبات الموقف الجهادي ضد البيزنطيين اضطر المسلمون الى ابتداع وسائل جديدة واساليب في التموين والنقل كان من شأنها تخفيف معاناة المقاتلة الناجمة عن صعوبات الحركة والتنقل في بلاد متنوعة التضاريس وتغطيها الثلوج في فصل الشتاء وكانت استجابة فعالة لتحديات تلك الظروف من قبلهم ، ففي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٤ م) جهز خيلاً وأبلاً وبغلاً وحميراً وحملها بالميرة ووجهها لجيشه الذي بعثه مع مسلمة بن عبد الملك لفتح الطوانة سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م وولى عليها رجلاً من أهل قنسرين ، فسار حتى بلغ ما منعه من المضي في طريقه من الثلج فكتب الى الخليفة الوليد يخبره بأن الدرب قد أنغلق ولم يجد فيه منفذاً ، فعزله الوليد واستعمل رجلاً آخر يدعى رباح الغساني وامره ان يقتحم الثلج بالجواميس والبقر ، فمضى ثم فعل ذلك^(٩) ويبدو ان استعمال هذا الصنف من الحيوانات ناجم عن قدرتها لتحمل برودة الثلج لكونها ذات اضلاع قوية ، ولخبرة العرب المتكونة بفعل التجارب التي مروا بها اثناء ملايسات الفتوح ، يؤكد ذلك ما رواه ميخائيل السرياني في تاريخه لصدر الاسلام والعصر الاموي من أن المسلمين كانوا قد استخدموا مثل هذا الاسلوب اثناء فتوح ارمينية سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م من قبل حبيب بن مسلمة الفهري إذ انهم لما وصلوا ارمينية ((وجدوا ان المكان مليء ثلجاً تحايلاوا واحضروا ثيراناً سيروها امامهم فعبد لهم الطريق ودخلوا ولم يعقهم الثلج^(١٠))) ومن هذا يتجلى للباحث بعد النظر ومقدار الذكاء الميداني الذي كان وراء استقدام الخليفة الوليد بن عبد الملك لقطعان من الجاموس مع رعاتها ووضعها في المدن الثغرية للاستفادة منها بأستخدامها في مثل تلك الامور ولاسيما انها لها القدرة على حمل الاثقال والسير تحت مثل تلك الظروف التضاريسية والجوية المذكورة سابقا .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٢٧ ، ص ٢٢٩ ، ج ٣٢ ، ص ١١٥ ، ج ٤٦ ، ص ٣٦٣ ، ج ٦٣ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ . ينظر ايضاً : القرطبي ، محمد بن أحمد بن ابي بكر بن فرج القرطبي (ت ٦٧١ هـ) ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : احمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، دار الشعب ، (القاهرة ١٣٧٢ هـ) ، ج ٨ ، ص ١٦ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ١١

(٩) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٨ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١٠) زاكية محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٢٦ .

وتجهز المقاتلة المسلمون بأسلحة الحصار الثقيلة وادواته اللازمة ومنها المجانيق فضلاعن اسلحة الخيالة والمشاة الخفيفة المشار اليها سابقاً ، فعلى سبيل المثال انه في احدى صوائف المسلمين في خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) حاصر عثمان بن حيان احد قادة الصوائف وجنده عمورية حصاراً شديداً ووقف عليها ستة وثلاثين منجنيقاً وجد في حصارها^(٣) .

والى جانب توفير الركائب والاسلحة للمقاتلة وبقية عدد الحرب أولت الخلافة الاموية مسألة إطعام الجند وتموينهم أهتماً منقطع النظير ، لاسيما وهم ذاهبون لمقارعة الروم في عقر دارهم لمسافات بعيدة ولمدد زمنية قد تطول لعدة أشهر ، فقد روي ان الخليفة عبد الملك بن مروان كان قد بعث الى مقاتلة احدى الصوائف بجفان ملئت بالكحك والتمر والسويق^(١) ، وعمل المقاتلة من جانبهم على ادخار وحمل الاطعمة ذات القيمة الغذائية الكبيرة السهلة الحمل والتي من شأنها أن تقيم صلبهم وتمنحهم القدرة على مطاولة العدو تحت تأثير درجات الحرارة المتفاوتة في بلاد الروم كالتمر والزبد^(٢) .

والذي نود الإشارة اليه في هذا الصدد ان بعض الموسرين الخيرين قد أسهموا بأموالهم في جهاز الجند جهاداً منهم في سبيل الله تعالى باليد والمال وغيظاً للعدو ، فقد ذكر البلاذري^(٣) وابن عساكر^(٤) ان العرجي عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ١٤٠ . وقد أفادنا الشعر بمعلومات مهمة عن استخدام المسلمين لأسلحة الحصار اثناء غاراتهم على بلاد الروم ، ومنها المجانيق التي ترمي بالحجارة وبقية المقذوفات ، فقد وصف النابغة الشيباني حصار مسلمة بن عبد الملك لمدينة طرندة الرومية وضربه اياها بالمجانيق بقوله :

أخزى طرندة منه وابل برد	وعسكر لم تقده العزل الجوف
مازال مسلمة الميمون يحصرها	وركنها بثقال الصخر مقذوف
وقد احاطت بها ابطال ذي لجب	كما لحاظ برأس النخلة الليف
فأهلها بين مقتول ومستلب	ومنهم موثق في القيد مكتوف

ينظر : زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة ، دار المعارف ، (مصر ١٩٦١م) ، ص ١٣١ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٥ ، ص ٣٧ .

(٢) الشيباني ، احمد بن عمرو بن الضحاك ابو بكر الشيباني (ت ٢٨٧هـ) ، الأحاد والمثاني ، تحقيق : د. باسم فيصل أحمد الجوابرة ، ط ١ ، دار الراية ، (الرياض ١٩٩١م) ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ٩ .

(٣) انساب الاشراف ، ج ١ ق ٤ ، ص ٦٠٨ ، الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (ت ٣٦٥هـ) ، الاغاني ، شرحه وكتب هوامشه علي عبد مهنا وسمير جابر ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٨٦) ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(رضي الله عنه) غزا مع مسلمة بن عبد الملك في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك فخطب التجار قائلاً : ((يا معشر التجار من اراد من الغزاة المعدمين شيئاً فأعطوه إياه ، فأعطوهم عليه عشرين ألف دينار ، فلما أستخلف عمر بن عبد العزيز قال : بيت المال أولى بمال هؤلاء التجار من العرجي ، فقضى ذلك من بيت المال)) ، ومثل العرجي كان المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي الذي باع مالا له بفدك بعشرين ألف دينار فأطعم بها جند الصائفة الذين كانوا معه تحت قيادة أحد أبناء الخليفة هشام بن عبد الملك في خلافته والذين أصابتهم مجاعة بأرض الروم^(٥) .

وتكفلت الخلافة الاموية بمنح المقاتلة المنضوين تحت ألوية الصوائف والشواتي مبالغ من المال مع سداد جانب من ديونهم من بيت مال المسلمين ، وهو أمر صرح به الخليفة عمر بن عبد العزيز في حوار جرى بينه وبين أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لما أقبل اليه راغباً بالألتحاق للجهاد في إحدى الصوائف^(٦) .

فضلاً عن ذلك كان بعض المقاتلة ينفر للصائفة تطوعاً في سبيل الله تعالى مجهزاً نفسه من ماله الخاص بعدة الجهاد من سلاح وركائب وما يلزمها من عدد وأدوات^(١) ، واعتمدوا في تموينهم على موارد بلاد الروم - الى جانب ما ذكر - ذاتها من زرع^(٢) واشجار فواكه ودواب وغيرها ، وكان مثل هذا الشيء لامناس منه لاسيما اذا ما اوغلوا بعيداً في تلك النواحي مبتعدين عن مراكز تموينهم وامدادهم في مناطق الثغور ، ولادراك قادة الصوائف والشواتي الصعوبات الناجمة عن احتمالية انقطاع الامداد او انقطاع طرق المواصلات التي تربطهم بمقراتهم الخلفية في الثغور أو مع العاصمة دمشق لأي سبب نهوا المقاتلة عن تدمير اشجار الفواكه والزروع في بعض الصوائف ووجهوهم بالأقتيات عليها ، كما حصل ذلك مع مالك بن عبدالله الخثعمي الذي ندب جنده ((لاتقطعوا شجراً

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٧٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧ . ينظر ايضاً : ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ٢٠٢٦ .

- ٢٠٢٧ .

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٧ ، ص ٢٢٩ ، ج ٦١ ، ص ٣٥٠ ، عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ

مدينة دمشق ، ج ٦ ، ص ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) ينظر الفصل السابع ص .

مثمراً فإنه لكم منفعة في غزوكم))^(٣)، وقد أشار ابو يوسف (ت ١٨٢هـ) من جانبه الى هذا الامر ، إلا أنه رأى أن قطع وتخريب الاشجار والزررع أشد نكابة بالعدو وأخزى له وأنفع للمسلمين مما يتقوون به على القتال^(٤) وكانت الغنائم وماتتضمنه من أطعمة وأعلاف وأغنام ومواشي معيناً آخر يمون الجند ، ووصل بهم الامر في بعض الاحيان الى استهلاك كميات كبيرة من خمس بيت المال من تلك الغنائم سداداً لمتطلبات الحرب^(٥) .

واهتم الخلفاء الامويون بصحة المقاتلة وسلامتهم وامورهم الطبية اهتماماً كبيراً ولاغرابة في ذلك فهم ذراع الاسلام الضاربة داخل بلاد الروم وحماة الاهل والديار ، وعملوا على ارسال الادوية والمستلزمات الطبية المتيسرة الى اولئك الجند اذ كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعث بترىاق^(٦) ليوزع على الجند في ارض الروم^(٧) ، يضاف الى هذا نهيمهم الجند عن مباشرة القتال مع العدو ان لم يكونوا مضطرين الى ذلك جداً في الايام المطيرة والمثلجة^(٨) ، حرصاً على صحة المقاتلة وسلامتهم ، وهو نهج عمل به الخلفاء الامويون لاسيما معاوية بن ابي سفيان وعمر بن عبد العزيز تأسيساً بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) واقتصاداً بقدرات الامة البشرية والمادية التي عليها ان تجاهد اعداءها محيطين بها في اكثر من مكان .

علاقة مقاتلة الصوائف والشواتي فيما بينهم

تحلى جند الصوائف والشواتي بسجاياء وخلال جديرة بالذكر والثناء ، فقد واسى القادة الجند في السراء والضراء ، لاسيما وانهم جميعاً يجاهدون في نحر الروم لأعزاز الدين ونيل رضا رب العالمين ، فقد كان عمرو بن معاوية العقيلي - مثلاً - احد اشهر

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٥٦ ، ص ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٤) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) ، الرد على سير الاوزاعي ، عنى بتصحيحه : أبو الوفا

الافغاني ، ط ١ ، لجنة احياء المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، (الهند د ٠ ت) ، ص ٨٣ .

(٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص

ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ، ج ٥٩ ، ص ٤٣٣ .

(٦) الترياق : لفظ فارسي معرب هو دواء السموم . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٣٢ .

(٧) ابو زرعة الدمشقي ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٣ ، ص ص ٣١٤ -

٣١٥ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٧ ، ص ص ٩٤ - ٩٥ ، ج ٣٧ ، ص ٤٢٧ ، ج ٦٠ ، ص ٣١٠ .

قادة الخليفة معاوية على الجبهة الرومية وهو امير على احد الجيوش كان ينزل عن ركوبته ، فيواسي اصحابه في سوق السبي والجزور والرمك مشمراً عن ساقيه ^(٢) ، وواسى اولئك القادة الافذاذ الجند حتى في نحر الأضحية بوصفهم أولي أمر وآباء لهم ، وهذا ما فعله بسر بن ابي ارطئة الذي كان على شاتية في ارض الروم ، فوافق يوم الاضحى فالتمسوا الضحايا فلم يجدوها ، فقام في الناس فحمد الله تعالى واثى عليه ثم قال : ((ايها الناس انا قد التمسنا الضحايا اليوم والتمسوها فلم نقدر منها على شيء - قال : وكانت معه نجبية له يشرب لبنها لقوح ولم يجد شيئاً يضحى به الا هذه النجبية - وأنا مضح بها عني وعنكم فان الامام أب ووالد ثم قام فنحراها ثم قال : اللهم تقبل من بسر ومن بنيه ثم قسم لحمها بين الأجناد حتى صار له منها جزء من الاجزاء مع الناس)) ^(٣) . وكان اولئك القادة شديدي الحرص على سلامة مقاتلتهم ، قد ضربوا اروع الامثلة في مواساتهم ، كما هو الحال مع الصحابي الجليل ابي مسلم الخولاني ^(٤) الذي كان اذا غزا في ارض الروم فمر الجند بنهر قال : ((اجيزوا بسم الله ٠٠٠ ويمر بين ايديهم ٠٠ فيمرون بالنهر الغمر فربما لم يبلغ من الدواب الا الى الركب أو بعض ذلك أو قريباً من ذلك فإذا جاز قال للناس : هل ذهب لكم شيء ؟ من ذهب له شيء فأنا له ضامن)) ^(٥) ، وروى الاوزاعي عن أحد المجاهدين في هذا الشأن رواية مؤداها ان القائد مالك بن عبد الله الخثعمي فتح في احد الايام حصناً للروم بعد ان حاصره ، وأصيب احد المقاتلة فجعل اصحابه يهنئونه بالنصر وافتتاح الحصن وهو يقول : ((ياليت الرجل لم يقتل وياليت الحصن لم يفتح وكان صائماً لم يفطر واصبح صائماً والناس يعزونه وهو يقول : ياليت الرجل لم يقتل وياليت الحصن لم يفتح)) ^(٦) ، بل انه كانت رعاية الجند من معيته وادارة الجهاد شغله الشاغل حتى عن حوائجه الشخصية إذ روى ابن عساكر عن رجل كان يلزم مالكا الخثعمي ، وهو يقاتل في بلاد الروم انه لم يتطيب بشيء وهو هناك حتى

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ، ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٣٦٢ .

(٣) المزني ، تهذيب الكمال ج ٣ ، ص ٣٨ .

(٤) ابو مسلم الخولاني : عبد الله بن ثوب أدرك الجاهلية اسلم قبل وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم يره كان فاضلاً ناسكاً عابداً ذا كرامات وفضائل . ابن الاثير ، اسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٥) اللالكائي ، هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي (ت ٤١٨هـ) كرامات الاولياء ، تحقيق احمد سعد الحمان ، ط ١ ، دار طيبة ، (الرياض ١٤١٢هـ) ، ص ص ١٨٧ - ١٨٨ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٧ ، ص ٢١٠ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

جاز الدرب قافلاً ((فذكرت ذلك له فقال مالك : وحفظت مني ؟ قال : نعم ، قال : ما كان يسوغ لي ان اتطيب لما يهمني من أمر رعيتي حتى سلمهم الله فلما سلمهم وأمنت تطيبت^(٣))) ، وحظى المتميزون من مقاتلة الصوائف والشواتي في القتال بتكريم قادتهم بالثناء عليهم والحاقهم في شرف العطاء - يعني أعلى العطاء آنذاك - كما فعل ذلك الامير مسلمة بن عبد الملك مع احد الجند ويدعى جمال بن بشر العامري الكلابي^(٤) .

وطالت رحمة المجاهدين من اهل الصوائف والشواتي وانسانيتهم من وقع في أيديهم من اسرى العدو وسباياهم عملاً باحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشأن التي مافتأوا يذكرونها إذ لم تدفعهم فرحة النصر الى السفك والدمار كما تفعل الامم الاخرى ، ففي احدى غزواتهم البحرية صوب الروم بقيادة عبد الله بن قيس الفزاري مر ابو ايوب الانصاري (رضي الله عنه) بصاحب المقاسم وقد اقام السبي فإذا بأمرأة تبكي فسأل ما شأنها ؟ ((قالوا : فرق بينها وبين ولدها قال : فأخذ بيد ولدها حتى وضعه في يدها فانطلق صاحب المقاسم الى عبد الله بن قيس فأخبره فأرسل الى ابي ايوب : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين الاحبة يوم القيامة))^(١) .

وفي غزوة للمسلمين وراء الدروب بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أتى الاخير بأربعة أعلاج من الروم فامر بهم ان يصبروا ، فرموا بالنبل حتى قتلوا ، فقام أبو ايوب حتى اتى عبد الرحمن بن خالد فقال : ((أصبرتهم ؟ لقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينهى عن صبر الدابة وما أحب ان لي كذا وكذا واني صبرت دجاجة .. فدعا عبد الرحمن بن خالد بغلمان له اربعة فاعتقهم مكانهم))^(٢) . ومن الشواهد التاريخية على انسانية المقاتلة المسلمين في تعاملهم مع اسرى العدو بأرض الروم ، روي ان

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥٦ ، ص ٤٧٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٢ ، ص ص ١١٨ - ١١٩ . ينظر الحديث بلفظ آخر احمد بن حنبل ، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله (ت ٢٤١هـ) ، الورع تحقيق : د. زينب إبراهيم القاروط ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٨٣) ، ص ٣٩ .

(٢) ابن ابي شيبة ، ابو بكر عبد الله ابن محمد ابن ابي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥هـ) مصنف ابن ابي شيبة ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، ط ١ ، (الرياض ، ١٤٠٩هـ) ، ج ٥ ، ص ص ٤٥٥ - ٤٥٦ ؛ البيهقي ، احمد بن حسين ابن علي ابو بكر البيهقي ، (ت ٤٥٨هـ) ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، (مكة المكرمة ١٩٩٤م) ، ج ٩ ، ص ٧١ .

الحصين بن النمير السكوني أتي وهو يقود جند المسلمين مجاهداً بأسير وهو على غدائه فناوله احد الجند عرقاً من اللحم ، فرآه الحصين يأكل فقال كيف نقتله وطعامنا بين اسنانه ، فخلى سبيله^(٣) .

التعبئة القتالية في الصوائف والشواتي

اما عن تعبئة مقاتلة الصوائف والشواتي اثناء المسير والتعسكر والقتال ، فمما أثر عن اهل العلم والدراية بامور الحرب من المسلمين قولهم انه اذا كان المحارب على مسافة قريبة من عدوه ، فلايسير الا في مقدمة وميمنة وميسرة وقد اشهروا اسلحتهم ونشروا البنود والاعلام وعرف كل منهم مركزه وموضعه من العسكر سائرين تحت الويتهم ويكون رحيلهم ونزولهم على راياتهم واعلامهم وفي مراكزهم^(٤) ، وقد عرف مثل هذه المباديء مقاتلة الصوائف والشواتي في العصر الاموي وعملوا بها ، ففي إحدى حملات المسلمين السنوية الى بلاد الروم بقيادة مسلمة بن عبد الملك في زمن والده الخليفة عبد الملك بن مروان نفرت قبائل العرب تحت راياتها ، واخذوا اماكنهم المحددة لهم اذ نفرت تميم تحت راية محمد بن الاحنف بن قيس ، وربيعة نفرت تحت راية عبد الرحمن بن صعصعة ونفرت طي ولخم وجذام بزعامة عبدالله بن عدي بن حاتم الطائي ، وساروا جميعاً نحو الروم على نظام تعبوي يعرف بالخميس - أي تقسيم القطعات الى خمسة اقسام بغية تامين الحماية من جميع الجهات - ، فقد كان على المقدمة محمد بن الاحنف بن قيس وعلى الميمنة محمد بن مروان وعلى الميسرة عبد الرحمن بن صعصعة وعلى الساقة محمد بن عبد العزيز وفي القلب مسلمة بن عبد الملك بوصفه قائد الجيش^(١) .

ولتامين الحماية اللازمة لقطعات الجهاد اثناء سيرها كان القواد يرسلون مجموعات قتالية متقدمة بهيئة طلائع تستكشف الطرق والدروب وتأمينها من ارساد العدو وكمائنه ، وقد اوصى الخليفة عبد الملك ابنه مسلمة لما ارسله على راس الحملة أنفة الذكر بفعل هذا

^(٣) سعيد بن منصور ، ابو عثمان سعيد بن منصور الخراساني (ت ٢٧٧هـ) ، كتاب السنن ، تحقيق : حبيب

الرحمن الاعظمي ، ط ١ ، الدار السلفية ، (الهند ١٩٧٢م) ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

^(٤) قصي فالح عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية ، ص ١٤٧ .

^(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٩٢٢ - ١٩٢٣

ابن عربي ، محاضرة الابرار ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

الامر ((وصير على طلائعك البطل - (عبد الله البطل) - وأمره فليعس بالليل العسكر
فأنه أمين ثقة مقدم شجاع))^(٢) .

وكان قادة الصوائف والشواتي يسيرون بالجند سيراً رقيقاً لا يلحق الضرر بهم
أخذين في الحسبان حالتهم العامة فقد يوجد بينهم المتعب او المريض من المقاتلة أو
العجفاء والضعيفة أو المريضة من الدواب والركائب كما هو الحال في احدى الصوائف
التي قادها مالك بن عبد الله الخثعمي ^(٣) ، وزيادة في التحوطات الامنية وسترأً لأنسحاب
المقاتلة بعد تنفيذ واجباتهم كان بعض قادة الصوائف والشواتي يدور على جموع المقاتلة
القافلين ممطياً جواده ذاباً عنهم ، كبسر بن ابي أرطأة الذي غزا الروم في أحد الايام
((فجعلت ساقته لاتزال يصاب منها طرف ، فجعل يلتمس ان يصيب الذين يلتسون عورة
ساقته فيكمن لهم الكمائن))^(٤) أي يجعل لها الحماية المناسبة لأنها تحمل الاثقال من متاع
الحملة وغنائمها وجراحها وبقية العدد الثقيلة وليس لها القدرة القتالية الكبيرة على حماية
ركائبها وأعمالها .

اما عن تعبئتهم اثناء التعسكر فالمعروف في العمل العسكري ان للتعسكر اغراضاً
منها راحة الجند بعد طول المسير او تهيئة الاستحضارات النهائية للمعركة قبل الشروع
بالالتحام مع العدو الذي غدا قريباً منهم ، ويكون التعسكر اما ليلاً - فيسمى البيات - او
نهاراً ، ومهما يكن الغرض منه ووقته ، فان العرب المسلمين كانوا يتخذون كل
الاجراءات الكفيلة بحماية الجند من خطر مداهمة العدو ومنها استطلاع منطقة التعسكر
قبل التعسكر فيها ، وهذا ما اوصى به الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القائد
ابا عبيدة عامر بن الجراح عندما وجهه الى الشام ((لا تنزل منزلاً قبل ان تستريده لهم
وتعلم كيف مأتاه^(١))) وكان ترتيب الجند في التعسكر ، معلوماً اذ تخصص كل جهة من
جهات المعسكر لقائد من القواد ومعه جنده فيكون في موقع معروف إذا تطلب الامر
استدعائه مع مراعاة حرية المقاتلة في الحركة والتجوال اثناء النفير من خلال افساح
المنازل وترك الفرج وهذا ما بينه احد مقاتلة الصوائف بقوله: ((ان اهل الشام كانوا اذا

^(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ص ١٩٢٢ -

١٩٢٣ ، ابن عربي ، محاضرة الابرار ، ج ١ ، ص ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

^(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٦ ، ص ٤٧٤ .

^(٤) المزني ، تهذيب الكمال ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

^(١) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ٤٠ .

ساروا الى الشام ينزلون ارباعاً ٠٠ وكان بين كل جندين فرجة وطريق للعمامة ومجال للخيول ومركز لها ان كانت فزعة من ليل أونهار ، وكان والي الصائفة ينزل بخاصته ورهطه في القلب في اهل دمشق ثم ينزل أجناد الشام يمينة ويسرة^(٢) .

وقد نهى قادة الصوائف والشواتي الجند عن تضيق المنازل فيما بينهم إذا عسكروا في مكان ما كما فعل ذلك الامير عبد الله بن عبد الملك الذي نهى جنده حين نزلوا على حصن سنان - أحد الحصون في بلاد الروم - في صائفة من الصوائف عن تضيق المنازل على بعضهم وذكرهم بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له))^(٣) .

اما عن تعبئتهم في اثناء التماس ومباشرة القتال مع الروم فيبدو من الاشارات التاريخية الموجزة ذات الصلة ، انهم ابدعوا في معارك اقتحام القلاع والحصون ولاغربة في ذلك ، اذا ما علمنا ان القلاع والحصون - بحكم طبيعة بلاد الروم الجغرافية - كانت ابرز وسائل الروم الدفاعية المستخدمة حينذاك ، فروي ان القائد عثمان بن حيان لجأ الى اتباع اسلوب المطاولة والصبر وتضييق الخناق عندما حاصر عمورية في إحدى الصوائف في اثناء خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) واقام عليها ستة وثلاثين منجنيقاً^(١) ، وقد شجع الخليفة عمر بن عبد العزيز قبل هذا الوقت على اتباع الأسلوب ذاته ووجه احد قادته - الذي كان يعالج حصناً من حصون الروم في إحدى الحملات - باستخدام المنجنيق بوصفه سلاحاً فعالاً في حسم مثل هذا النوع من المعارك^(٢) ، وفي سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م قاد محمد بن مروان وهو على الجزيرة من قبل الخليفة هشام محمد بن عبد الملك الصائفة وافتتح حصناً يسمى مواسا عنوة بعد طول صبر وشدة حصار ورمي بالمجانيق^(٣) .

ولضرورات مجابهة العدو طور المسلمون في العصر الاموي اساليب تعبوية وقتالية جديدة لم تكن مألوفة من قبل في معارك القلاع والحصون حضيت برضا الخلفاء ومباركتهم كأستخدام الدخان وتوجيهه نحو تلك العمائر الحصينة لأجبار حامياتها على

(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

(٣) الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٢ ؛ ابو داود ، سنن ابي داود ، ج ٣ ، ص ٤٢ ،

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٨ ، ص ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ .

(٣) مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

الاستسلام بأسرع وقت وبأقل خسائر في صفوف المسلمين^(٤)، وهو أسلوب من شأنه إرباك العدو والتضييق عليه حتى يستسلم وينزل للمسلمين على شروطهم .

وأجاد المقاتلة استخدام التموية والخداع والمناورة تأسيساً برسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي قال بمبدأ ((الحرب خدعة)) وعمل به^(٥) ، لأرباك الروم وتضليل عيونهم (جواسيسهم) ولحرمانهم من فرصة الاستعداد المسبق لمجابهة المسلمين وزيادة في أمن قطعات المسلمين ، ففي هذا السياق روي أن الأمير معاوية بن هشام خطب الجند في إحدى الصوائف قائلاً : ((اللهم انصرنا على عمورية وهو يريد غيرها))^(٦) ، ولما عزم الخليفة الوليد بن عبد الملك على غزو الطوانة سنة ٨٨هـ / ٧٠٦م كاتب ملك الروم بكتب امر صاحب أرمينية - حليف العرب المسلمين - أن يكتب بها إليه بما عازمت عليه الخزر ((من غزوه وقلة من معه وكثرة من يتخوفه من خزر ومن تأشب إليهم من ملوك جبال أرمينية ومن فيها من الأمم المخالفة للأسلام ، ففعل ذلك صاحب أرمينية، وتابع كتبه ، وقطع الوليد البعث على أهل الشام إلى أرمينية واكتفه وجهزه وقواه واستعمل عليه مسلمة بن عبد الملك و أعانه بالعباس بن الوليد حتى يبلغ من جهازهم ما يريد ثم سيرهم إلى الجزيرة ثم اعطفهم إلى أرض الروم ثم أمرهم بالنزول على الطوانة))^(١) ففتحها المسلمون في السنة المذكورة .

وكان مالك بن عبد الله الخثعمي وهو على الصائفة ((يقوم في الناس إذا أراد أن يرحل فيحمد الله ويثني عليه ثم يقول : اني دارب بالغداة درب كذا فتفرق الجواسيس عنه بذلك فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها فكانت الروم تسميه الثعلب^(٢))). .

ومن الأساليب القتالية ذات الأبعاد الأمنية التي ابتدعها المسلمون وهم يقارعون الروم في عقر دارهم ولدرء مخاطر الثلوج المتساقطة عليهم هناك في فصل الشتاء واستجابة منهم لتلك التحديات لجأوا في أثناء حصارهم للطوانة إلى الاستتار والمبيت بالخنادق الشقية التي حفروها، فقد روي أن الشتاء اكب على مسلمة وجنده هناك حتى نفقت عامة الظهر وعرض لكثير منهم البطن - من أمراض الشتاء - وتهتكت الابنية من

(٤) ابن سعد الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ .

(٥) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ١١٠٢ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٣ ، ص ١٣٦١ - ١٣٦٢ .

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٦٩٠ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٨ ، ص ٤٤٣ ، ج ٢٦ ، ص ٤٤٣ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، السفر السادس ، ص ١٧٦ .

الجليد والثلج ، فحفر الجند لانفسهم الأسراب يبيتون بها ليلاً ويظهرون نهاراً حتى دعا ذلك اهل الطوانة بعد ان ياسوا من رحيل المقاتلة المسلمين في الكتابة الى ((طاغيتهم يخبرونه بحالهم وانهم ينتظرون مادة وميرة تاتيهم : فان كانت لك بناحاجة فالان قبل ان ياتيهم المدد والميرة^(٣)))

ومن هذه النصوص التاريخية المهمة وسواها تبرز قدرة القادة المسلمين على الابداع والتجديد والابتكار في الاساليب القتالية ، استجابة لضرورات المجابهة الحربية وهي من اهم العوامل الرئيسة المؤثرة في تحديد واختيار نمط التعبئة المناسب للقتال.

اهداف حملات الصوائف والشواتي

اما عن اهداف هذه الحملات السنوية فالمعروف ان لكل عملية قتالية هدفاً معيناً او غاية محددة تبتغي الحملة العسكرية المرسله تحقيقها ، وقد تدفع ملابسات المعركة ومداخلاتها وما يستجد اثناء صفحات القتال الى تحقيق اكثر من هدف او غاية في وقت واحد ، وهذا الامر ينطبق على الصوائف والشواتي واللافت للنظر ان المصادر التاريخية المعتمدة سواء اسلامية أم غير اسلامية لم تتوسع في بحث هذه المسألة او في اعطاء تفاصيل دقيقة عن ماكان يحدث اثناء اشتباك قطعات الصوائف والشواتي مع قوات النيمات البيزنطية ، ولكن على العموم يمكن الاشارة الى ابرز اهداف تلك الحملات من خلال جمع واستقراء الاشارات التاريخية الموجزة.

فمن الصوائف ماكان هدفها استطلاع واستكشاف الطرق والدروب المفضية الى بلاد الروم من حيث طبيعتها الجغرافية ومدى تواجد القوات البيزنطية واعدادها ومقدار الخطر الذي يمكن ان تشكله على قوات المسلمين النافذة الى العمق البيزنطي لاحقاً ، فعلى ضوء ما تجلبه تلك الصوائف من معلومات تجري القيادة العليا للجهاد تقديراً للموقف توضع على ضوءه خطتهم الحربية المستقبلية ، مثال ذلك حملات الصوائف المبكرة التي

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٢٦ ، ص ٤٤٣ .

خرجت ايام الخلفاء الراشدين سنة ١٧هـ / ٦٣٨م ومابعدھا ، اذ كان بعضها بهيئة سرايا صغيرة تنطلق نحو اهداف محددة بزمان ومكان معينين^(١) .

واستهدفت بعض تلك الحملات توجيه هجوم مقابل وخاطف على مواقع العدو المواجهة للمسلمين رداً على اعتداءاته المتواصلة التي ما فتأت تتكرر مستثمراً كل حالة ضعف او فتور قد تنتاب المسلمين لاي سبب ، ففي هذا السياق روي على سبيل المثال ان محمد بن مروان بن الحكم قاد الصائفة متوجهاً الى بلاد الروم سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م لردع الروم والرد على اعتداءاتهم على المسلمين من اهل ثغر مرعش وتخريبهم سورھا في ذلك العام^(٢) ، وفي سنة ٧٩هـ / ٦٩٨م هجم الروم على انطاكية وعرضوا اهلھا للاذى فجهاز الخليفة عبد الملك بن مروان حملة لطردھم والرد علیھم^(٣) ، وبهدف درء خطر الروم ورد اعتداءاتهم المتكررة ولاھمية ماضربوھ من حصون المسلمين الثغرية من النواحي التعبوية بعثت الخلافة الاموية بعض الصوائف لاعادة اعمار مادمرونها ، كما حصل ذلك سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م فقد ((غزا عبدالله بن عبدالمك بن مروان ارض الروم حتى بلغ طرندھ وفيھا بني المصيصة^(١))) وفي السنة التالية ٨٥هـ / ٧٠٤م ((بعث عبدالله بن عبد الملك وهو بالمصيصة يزيداً بن حنين فلقيته الروم في جمع كثير فأصيب الناس بميسوسنة واصيب ميمون الجرجماني في نحو من الف من اهل انطاكية عند طوانة^(٢))) وفي خلافة مروان بن محمد تكررت مثل هذه الاعتداءات على مدينة مرعش الثغرية ودمر الروم سورھا وهجروا سكانھا مستثمرين ما عصف بخلافتھ من مشاكلات داخلية بخروج اهل حمص وغيرھم علیھ ، مما اوجب على الخليفة مروان حال فراغه من امر اهل حمص ان يقطع على اهل الشام بعثاً للرد على الروم ولبنیان مرعش وشحنھا بالجند والسلاح مجدداً^(٣) .

وكانت الغاية من ارسال الصوائف والشواتي مجابهة البيزنطيين بحرب استنزاف لاهوادة فيها لاجل تكبيدھم اكبر قدر ممكن من الخسائر المادية والبشرية وتدمير اسباب

(١) ينظر ، ص من هذا البحث.

(٢) ينظر: خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٤٧ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٩ ، ص ٣٤٦ .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٧٩

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٩ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٣٩٥٣ .

قوتهم الرئيسة بحملات مباغطة في اكثر من اتجاه وعلى اوقات مختلفة ؛ لانهم كانوا مصدر الخطر الاساسي على الاسلام ودولته من بين امم الكفر الاخرى ، ولأعلامهم بحالة التوثب والاستنفار الدائمة في صفوف المسلمين انذاك ، فقد ذكر الطبري في حديثة عن وقائع سنة ٤٨هـ / ٦٦٨م واحداثها رواية مفادها ((وكان فيها شتى عبد الرحمن القيني انطاكية وصائفة عبدالله بن قيس الفزاري وغزوة مالك بن هبيرة السكوني للبحر وغزوة عقبة بن عامر الجهني باهل مصر البحر ، وباهل المدينة على المدينة المنذر بن الزهير وعلى جميعهم خالد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ^(٤))) ، وأشار ابن الاثير في حديثه عن وقائع سنة ٩٣هـ / ٧١١م الى انه في هذه السنة ((غزا العباس بن الوليد الروم ففتح سبسطية والمرزبانين وطرسوس وفيها غزا مروان بن الوليد فبلغ خنجره وفيها غزا مسلمة الروم ايضاً ففتح ماسيسة وحسن الحديد وغزاه من ناحية ملطية ^(٥))) . وفي سنة ٩٤هـ / ٧١٢م ((غزا العباس بن الوليد ارض الروم ففتح انطاكية وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزاة وبلغ الوليد بن هشام المعيطي برج الحمام ويزيد بن كبشة ارض سورية ^(١))) ، وكلها حصون في بلاد الروم ، وذكر ابن الكلبي ان الامير معاوية بن هشام بن عبد الملك غزا ارض الروم سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م فأوغل فيها ((وبعث الواضاح صاحب الواضاحية فحرق القرى والزروع وقطع الشجر)) ، لان الروم كانوا قد احرقوا مراعي المسلمين ^(٢) ، وفي السنة ذاتها اغزى الخليفة هشام بن عبد الملك الامير مسلمة الصائفة ((فادرب من ملطية فاناخ على قيسارية فافتتحها عنوة وذلك لاربع خلون من شهر رمضان سنة سبع ومائة ^(٣))) واغزى الخليفة هشام ابنة سعيد قيسارية من بلاد الروم وفتح ابراهيم بن هشام بن عبد الملك حصناً من حصون الروم ايضاً وفيها غزا اسيد بن عبيد الله القسري ... وفيها غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك ارض الروم وبعث البطل على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئاً كثير ^(٤))) .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٧٨ .

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤٤٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٨٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٠٠ .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ج ٥٩ ، ص ٢٨١ .

(٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٨ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢١ ، ص ٣١٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٠٠ .

وكان الهدف المرجو تحقيقه من ارسال بعض تلك الحملات الرباط والحراسة في مواضع الخطر من الثغور المواجهة للروم لاجل الدفاع ضد أي طارئ يحدث وتأكيداً لحالة التوثب والاستنفار المتواصلة عند المسلمين ، ففي هذا الصدد ذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ان بسر بن ابي ارطأة شتى بارض الروم مرابطاً سنة ٤٣هـ — ٦٦٣م^(٥) وغزاه مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد فرابطا في طوانة وشتوا عليها سنة ٨٨هـ^(٦) ٧٠٦ م وفي سنة ١١٣هـ — ٧٣١م ((غزا معاوية بن هشام ارض الروم فرابط من ناحية مرعش ثم رجع^(٧))) وفي سنة ١٢١هـ — ٧٣٨م اغزا الخليفة هشام بن عبد الملك ولديه مسلمة ويحيى ملطية فرابطا بها تلك السنة^(٨)، وذكر الواقدي (٢٠٧هـ) ان الروم خرجوا زهاء عشرين ألفاً منهم فنزلوا على ملطية سنة ١٢٣هـ — ٧٤٠م ((فاغلق اهلها ابوابها وخرج رسولهم مستغيثاً فلحق بهشام وهو بالرصافة فندب هشام الناس الى ملطية وتقلد سيفاً ثغرياً وركب يطوف على الناس بالرقعة واتاه الخبر بان الروم قد قفلوا فاخبر الرسول بذلك وبعث معه بشراً ليرابطوا بملطية^(٩))).

واستهدفت الخلافة الأموية من إنفاذ بعض الصوائف والشواتي التمهيد للحملات الكبرى المتجهة من الشام لفتح القسطنطينية باشغال العدو وإحداث الارتباك بين صفوفه وتسلط أكبر قدر ممكن من الضغط العسكري على قطعاته المتركة بازاء المسلمين ، فقد اشارت المصادر الى النشاط الحربي الكبير الذي سبق حملة مسلمة سنة ٩٨هـ — ٧١٨م ، ففي سنة ٩٥هـ — ٧١٣م كانت حملة الوليد بن عبد الملك الى ارض الروم فدخل مدينة (هرقلة) وحصن (طولس) و(المرزبانيين)^(١٠) ، وفي سنة ٩٦هـ — ٧١٤م كانت حملة مسلمة الى ارض الروم وقضى الصائفة فيها وطرد الروم من حصن عوف وكذلك كانت حملة العباس بن الوليد حيث هزم الروم في (طرسوس)^(١١) ، وفي ٩٧هـ — ٧١٥م ((امر الخليفة سليمان بن عبد الملك ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المراء ، قال الواقدي : وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك ارض الوضاحية... وفيها غزا مسلمة ايضاً برجمة ففتح

(٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦ ، ص ٤٤١ .

(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٧٦ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٨ ، ص ٦٨ .

(٩) البلاذري ، جمل من كتاب انساب الاشراف ، ج ٨ ، ص ٣٥٩ .

(١٠) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ٤٩٢ - ٤٩٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٧١ .

(١١) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

حصوناً وحصن الحديد وسردا وشتى بارض الروم وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر ارض الروم وشتا بها^(٤))). وارسل الخليفة سليمان حملة اخرى بقيادة ابنه داود ، ففتح حصن (المرأة) والمناطق المحيطة بملطية^(٥)، وتحدث ابن عساكر عن اهم العمليات الحربية التي مهدت لحملة مسلمة على القسطنطينية سنة ٩٨هـ / ٧١٧م قائلاً ((واغزى سليمان بن عبد الملك الصائفة مسلمة بن عبد الملك برجمة والحصين الذي افتتح الوضاح وهو حصن ابن عوف وافتتح مسلمة ايضاً حصن الحديد وسردا وشتا بضواحي الروم في سنة ثمان وتسعين شتا مسلمة بضواحي الروم وشتا عمر بن هبيرة في البحر والبرفجـاوز الخليج وافتتح مدينة السقالبـة..^(٦))).

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٩ ، ص ١٧٧ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ج٦ ، ٥٤٥؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٢٣٥ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٥٨ ، ص ٣٢ ، ج ١٧ ، ١٥٥ .

الفصل الخامس

المجابهة الحربية البحرية

المجابهة الحربية البحرية

لم يكد العرب المسلمون يتمون تحرير مدن الساحل الشامي^(١) ، حتى اخذ والى الشام معاوية بن أبي سفيان يتطلع الى ركوب البحر ومجابهة البيزنطيين فيه ، بعد أن تبين له جدوى مثل هذا الامر من النواحي السوقية والتعبوية على مجريات الحرب المستقبلية ، لا سيما بعد ملاحظته الدور الكبير الذي أدته السفن البيزنطية في إسناد المدن المحاصرة وامدادها ، بكل ما من شأنه ان يعزز صمودها وإفشال جهود العرب المسلمين الرامية لتحريرها ، ورأى ان البيزنطيين لم يكن ليسلموا بسرعة بخروج الساحل الشرقي للبحر المتوسط من أيديهم ، والذي كان لسنوات طويلة مورداً ومعبراً مهماً لتجارتهم ومرتكزاً لأساطيلهم وقوتهم البحرية في المنطقة ، وادرك الدور الخطير الذي اضطلعت به جزر ذلك البحر بوصفها قواعد تموين وانطلاق وإمداد للأساطيل الحربية البيزنطية أثناء غاراتها على السواحل الشامية ، لاجل هذا كله أيقن الوالي معاوية ومنذ وقت مبكر بضرورة قتال الروم في البحر ، مجارة لهم في أساليبهم الحربية وصداً لغاراتهم ومجابهتهم بالوسائل والأسلحة ذاتها التي استخدموها ضد العرب المسلمين .

فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يصف له حال السواحل وما غدت عليه بُعيد حروب التحرير ، ويستأذنه بالغزو في البحر^(٢) ، ويرغبه فيه^(٣) ، وجرياً على السياسة الحميدة التي انتهجها الخليفة عمر (رضي الله عنه) في التشاور مع المسلمين فيما يتعلق بشؤون الدولة العليا لاسيما الجهاد ، كتب الى عمرو بن العاص والي مصر أن يصف له حال البحر والإبحار في مياهه ، وقد جاء رد عمرو بن العاص يحمل وصفاً دقيقاً لما قد يلاقيه المرء من صعاب في أثناء ركوب البحر والقتال فيه ، لذلك فان هذا الوصف قد أضاف إلى ما وقر في نفس الخليفة عمر (رضي الله عنه) من أسباب

(١) ينظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١١٩-١٢١ ، ١٢٩-١٣١ ، ١٣٤-١٣٦ ، ١٤٤-١٤٥ ؛ ابن حبيش ، الغزوات ، ج ١ ، ص ٣٢٤-٣٢٨ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٠ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٢٥٨-٢٥٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٨ ، المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٤-٥ . قال عمرو بن العاص : ((يا أمير المؤمنين : اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ان ركذ أحزن القلوب وان زل ازاغ العقول يزداد فيه اليقين قلّة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وان نجا برق)) .

موجبة للرفض ، فكانت إجابته بالرفض^(١) والنهي عن طلب هذا الأمر مرة أخرى ، وكان رائده في ذلك حرصه الشديد على سلامة المسلمين ، لئلا يصابوا بأي أذى أو يُغرر بهم ، كما يرجع الى ما أتصف به الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من روية ورزانة يستهدي المنطق السليم في كبح جماح قواده عن التسرع في الغزوات التي قد يبدو له فيها ولو نزر يسير من المخاطرة بأرواح المسلمين^(٢) ، وكان هذا دأبه في الحروب البرية أيضا والى إدراكه قصور خبرات اكثر المسلمين وقتذاك بتعبئة البحر وأساليب القتال فيه ، بالقياس الى البيزنطيين ، وربما عدم امتلاكهم العدد الكافي من القطع البحرية الحربية ، مما يوفر ذلك كله غلبة لاعدائهم عليهم ، فضلا عن حاجة المسلمين الى الاستقرار وتنظيم أمور تلك النواحي الإدارية والدفاعية ، يضاف الى ذلك ضرورة إتمام تحرير بقية الأراضي العربية الساحلية والقضاء على جيوب المقاومة الرومية في الشام ومصر .

وليس السبب وراء رفض الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو عدم معرفة العرب بالبحر وركوبه ، كما ذهب الى ذلك العديد من الدراسات الحديثة^(٣) اعتماداً على نص أورده ابن خلدون في مقدمته^(٤) ، فالعرب أمة عرفت البحر وألفت الإبحار فيه لأغراض التجارة منذ زمن بعيد ، لاسيما أولئك الذين قطنوا السواحل في غرب وجنوب شبه الجزيرة العربية المطللة على مساحات مائية واسعة تتمثل - كما في التسميات الحديثة - بالبحر الأحمر والبحر العربي وخليج عُمان والخليج العربي ، وقد حوت إشعارهم العديد من الألفاظ والمفردات التي تؤكد ذلك ، وجاء ذكر البحر والسفن في

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٢٥٨-٢٥٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٨ ، المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ص ٤-٥ .

(٢) ينظر عن موقف الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من حملة العلاء بن الحضرمي من البحرية على بلاد فارس سنة ١٧هـ/٦٣٨م : الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ص ٧٩ - ٨٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ص ٥٣٨ - ٥٤٠ .

(٣) ينظر مثلاً : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة : احمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم : محمد شفيق غريال ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة د.ت) ، ص ٨٨ ، تمت مناقشة هذه القضية بالتفصيل من قبل : حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ط ١ ، دار العودة ، (بيروت ١٩٨٢م) ، ص ص ١٥-٣٥ ، سالم عبد علي العبيدي ، القوة البحرية العربية الإسلامية في العصر الأموي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل ١٩٩١م ، ص ص ٩-١٢ .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، المقدمة ، ط ١ ، دار القلم ، (بيروت ١٩٨٩) ، ص ٢٥٣ .

أكثر من موضع من سور القرآن الكريم^(١) ، بل إن بعض القبائل العربية اشتهرت بركوب أنبائها البحر كقبيلة الازد اليمنية حتى قال قائل بحقهم^(٢) :

إذا أزدية ولدت غلاماً فبشرها بملاح مجيد

وعيرهم القائد قتيبة بن مسلم الباهلي في أحد الأيام قائلاً : ((وأنتم يا معشر الازد تبدلتم بقلوس السفن أعنة الخيل ، وبالمرادي الرماح ، وبالمجاذيف السيوف^(٣))) ، بل إن اعتماد الخليفة معاوية على اليمنية في غزو الروم بحراً قد أثار حفيضة القيسية ، وهي إشارة الى معرفتهم بركوب البحر والقتال فيه أكثر من سواهم^(٤) ، ولا غرابة في هذا ، فقد حفظت دواوين الشعر بعض النصوص الدالة على معرفة بعض العرب القتال في البحر كقول عمرو بن كلثوم^(٥) :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

وفي قول النابغة الذبياني وهو يصف سفن الأنباط وهي تدخل في صراع مع البيزنطيين للذود عن الساحل العربي تجاه غزواتهم ما يؤكد ذلك^(٦) :

له بحر يقمص بالعدولي وبالخلج المحملة الثقال

مضر بالقصور يزود عنها قراقرير النبط الى التلال

ولعل من الخطأ التاريخي أخذ نص ابن خلدون آنف الذكر على الإطلاق ، لاسيما وانه مؤرخ متأخر عاش في القرن الثامن الهجري (٧٣٢-٨٠٨هـ / ١٣٣١-١٤٠٥هـ) ولم ينشأ في بيئة بحرية تجعله ضليعاً بمعرفة أسرار الحياة البحرية وحكماً في أمور

^(١) ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطابع الشعب ، (مصر ١٣٨٩هـ) ، ص ١١٤ .

^(٢) ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت د.ت) ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

^(٣) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ص ١٣-١٤ .

^(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٨ ، ص ص ١٤٦-١٤٧ . ينظر ايضاً : البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ١ ، ت ٤ ، ص ٩١ .

^(٥) الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن احمد بن الحسين ، شرح المعقات السبع ، (بيروت د.ت) ، ص ١٩٧ .

^(٦) قاسم راضي مهدي ، مظاهر البيئة البحرية في الشعر الجاهلي ، مجلة المورد ، ع ٣ سنة ١٩٨١م ، ص ١٣١ .

التاريخ البحري وفلسفته فأين مقامه وزمانه من القائد والخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي أسس أول أسطول عربي إسلامي غزا به جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م^(٧) .

ازاء ذلك كله أثر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اعتماد نظام دفاع ساحلي فعّال قائم على تحصين الثغور^(١) وجعلها على الالهبة لرد أي عادية على عجل ، كمرحلة تالية في عمليات التحرير ، وهذا ما تضمنه أمره لواليه معاوية حين كتب اليه الأخير يصف له حال السواحل وما هي عليه من خراب وافتقارها الى الوسائل الدفاعية ، لاسيما بعد ان شهدت تحصيناتها القديمة وقائع معارك التحرير ، فأمر الخليفة عمر (رضي الله عنه) بترميم حصونها وترتيب المقاتلة فيها وشحنها بالعدة والعتاد اللازمين وأقامة الحراسات على مناظرها واتخاذ المواقيد لغرض الإنذار والتنبيه فيها^(٢) .

واستمر العمل بالخطّة هذه بقية عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) ((إذ كان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد^(٣))) ، وقد روى في هذا السياق أن الوالي معاوية بن أبي سفيان لما انتهى من تحرير ثغر عسقلان سنة ١٩هـ / ٦٤٠م أسكنها الروابط ووكل حامية تحفظها^(٤) ، وقد استثمر معاوية أمر الخليفة عمر (رضي الله عنه) أنف الذكر واتخذة دليلاً عمل بموجبه وإساساً بنى عليه خططه الحربية البحرية اللاحقة ، فحصن الثغور البحرية وشحنها وأنشأ الربط^(٥) الحربية ، واعتنى بهذا النظام حتى غدا جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد ، إذ جذب الرباط

^(٧) خالد بن محمد القاسمي ، الملاحة البحرية في العصور الإسلامية ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، ع ٩١-٩٢ ، آيار - حزيران ١٩٨٦م ، ص ص ٦٥-٧٣ .

^(١) ينظر: خريطة رقم (٨) .

^(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٠ ؛ المنظرة وهي أبراج حراسة تبنى على الأماكن العالية المشرفة على البحر من أجل رؤية المراكب المعادية قبل اقترابها من الساحل ووسيلة اتصال عن طريق إيقاد النيران أُنذاراً بقنوم العدو . هاشم إسماعيل جاسم ، الخطة العسكرية ، ص ٤٣ .

^(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٠ .

^(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

^(٥) الربط : هي الأماكن التي تتجمع فيها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . ينظر: احمد إبراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ص ٧٥-٧٦ . في معنى الرباط ينظر : الطبري ، محمد بن جرير ابو جعفر الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، جامع البيان في معاني القرآن ، دار الفكر ، (بيروت ١٤٠٥ هـ) ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ .

الأتقياء المتحمسين للجهاد ونصرة الإسلام^(٦) ، وقد طبق نظام الرباط في ثغر الإسكندرية خير تطبيق منذ العصر الراشدي ، إذ كان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يبعث إليها في كل سنة جماعة من أهل المدينة المنورة ترابط هناك ((وكاتب الولاية لاتغفلها وتكتف رابطتها ولاتأمن العدو عليها^(١))) وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٣ م) ، تم السير على السياسة ذاتها ، فأمر أميرها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بتخصيص رابطة للإسكندرية وتحديد أمد إقامتها بستة اشهر من العام ، وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ / ٦٦١-٦٧٩م) وولاية عمرو بن العاص الثانية تعدى تنظيم الدفاع الساحلي الإسكندرية الى بقية السواحل المصرية ، فقد ذكر ابن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ) ان الوالي عمرا " بن العاص قطع من أصحابه للرباط في الإسكندرية ((ربع الناس خاصة ، الربع يقيمون ستة اشهر ، ثم يعقبها شاتية ستة اشهر ، ربع في السواحل ، والنصف الثاني مقيمون معه^(٢))) ، وقد تواصل الاهتمام بهذا الثغر البحري ، فقد تم تعيين حاكم خاص للإسكندرية وحامية دائمة إذ عقد عتبة بن أبي سفيان الذي ولي مصر سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م لعلقة بن يزيد الغطيفي سنة ٤٤هـ / ٦٦٤م عليها مع أثني عشر ألفا من أهل الديوان يكونون رابطة فيها ، ولكن أمير الإسكندرية هذا ما لبث ان كتب شاكياً قلة من معه من الجند ، وانه يتخوف عليهم من بأس العدو ، فكتب اليه الخليفة معاوية ((إني قد أمددتك بعبد الله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة ، وأمرت معن بن يزيد السلمي ان يكون بالرملة^(٣) في أربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك^(٤)))

وهكذا افقد استنفرت الخلافة في العصرين الراشدي والأموي قدرات الأمة وطاقاتها الجهادية في الأمصار والأجناد للدفاع والتصدي للخطر البيزنطي الذي لم يزل يهدد دار الإسلام بصور شتى .

واستمر العرب المسلمون يعملون بتلك السياسة الدفاعية حتى بعد ان ركبوا البحر وقاتلوا البيزنطيين في لجته ، بل إن اعتداءاتهم المتكررة على ثغور الشام ومصر البحرية

(٦) احمد إبراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ص ٧٥-٧٦ .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٨ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٥٨ .

(٣) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين كانت رباطاً للمسلمين . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٥٨ ؛ ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤١ ، ص ٢٠٢ .

وتصدي المقاتلة المرابطين لها ، أثبتت مرة أخرى فعالية هذه السياسة وجدوى العمل بها ، وعملت الخلافة على اعتماد كل الوسائل والأساليب الكفيلة بتعزيز ما سبق إقامته من استحكامات دفاعية هناك ، بما يؤكد الأهمية البالغة لهذه التحصينات بوصفها منافذ التماس الحربي مع الروم عبر البحر ، وقد أشار البلاذري^(١) الى انه في سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م غلبت الروم على بعض هذه الثغور الساحلية^(٢) فقصدهم والي معاوية بن أبي سفيان ففتحها مجدداً ولرممها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع لينفعوا بها في أسلوب مستحدث قصد من ورائه توطين المقاتلة هناك وزيادة في تمسكهم بالأرض والدفاع عنها بعد أن تغدو ملكاً لهم ، وفي الوقت الذي أذن فيه الخليفة عثمان (رضي الله عنه) للقائد معاوية بالجهاد في البحر أمره أن يعد في السواحل إذا غزا جيوشاً خلا من فيها من الرتب وان يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبني المساجد ويكبر ما بنى منها قبل خلافته مما كان لتنفيذ هذا الامر أبعد الأثر في انتقال المسلمين للجهاد والرباط في السواحل من كل ناحية^(٣) ، ولم يزل المسلمون في العصر الأموي يعملون بهدي تلك التوجيهات ، إذ كانت تخرج طالعة من المدينة المنورة عملها الحربي ملازمة السواحل والرباط فيها عند خروج قوات الصوائف والشواتي البرية والبحرية خشية انقضاء الأسطول البيزنطي على قواعد المسلمين في السواحل الشامية بهجوم معاكس^(٤) .

وحين تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١هـ / ٦٦١م ، واصل العمل بذات النهج الذي بدأ به مذ كان والياً وقائداً بالشام أيام الراشدين ، وأخذ يطوره حسب مقتضيات المرحلة وتداعياتها ، فاعاد تقويم وترميم بعض الحصون الثغرية المتهدمة وانشأ حصوناً جديدة وشحنها بالعدد والعتاد ، فقد بنى لجبله^(٥) حصناً خارج الحصن الرومي ، القديم وبنى حصن انطرطوس^(٦) الذي جلا أهله عنه ومصرها واقطع القطائع ، وكذلك فعل

(١) فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

(٢) لم يذكر البلاذري ماهي هذه الثغور .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٧ ، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٥) جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٦) انطرطوس : بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية واول أعمال حمص . المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

بمرقية وبلنيس واللاذقية^(٧) وهي حصون على ساحل بحر الشام^(٨) ووكّل بها الحفظة من الجند المرابطين الى انغلاق البحر وتوقف الغزوات البحرية فيه شتاء^(٩) ، ورمم عرقة^(١٠) بعد ان حررها ، أعاد أعمار جبيل^(١١) .

وعمد الخليفة معاوية الى تكثيف سكان الثغور البحرية بعد ان هجر تلك المناطق كثير من الروم عائدين الى بلادهم ، فقام الخليفة ومعاوية بإرسال جماعة من الفرس والاساورة^(١٢) ليسكنوا الساحل ويعمروه ، وفي ذلك يقول اليعقوبي^(١٣) ((وبعلبك وأهلها قوم من الفرس و في أطرافه قوم من اليمن ... ولبنان وصيدا وبها قوم من الفرس ناقلة ، وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة ومدينة طرابلس أهلها قوم من الفرس كان معاوية بن ابي سفيان نقلهم إليها ولهم مينا عجيب يحتمل ألف مركب وجبيل وصيدا أهل هذه الكور قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن ابي سفيان)) ، وإذا كان اليعقوبي قد اغفل تحديد تاريخ هذا الإجراء فإن البلاذري^(١٤) أشار الى ان هذا كان سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م ففيها نقل الخليفة معاوية جماعة من الفرس أهل بعلبك وحمص ومن المصريين (الكوفة والبصرة) الى إنطاكية ، وروى عن أحد الانطاكيين قوله أن الخليفة معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية الى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها في تلك السنة (٤٢هـ / ٦٦٢م) وقد برز العديد من المجاهدين من بين أولئك الفرس^(١٥) ممن اخلصوا في دينهم وطاعة الخلافة

^(٧) مرقية : قلعة حصينة في سواحل حمص : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٥١ .

بلنيس : كوره صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر . المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ .

اللاذقية : مدينة بساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص وهي غربي جبلة . المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٦٩ .

^(٨) ينظر خارطة رقم (٩) .

^(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١١٩-١٢٠ .

^(١٠) عرقة : بلدة في شرقي طرابلس ، وهي آخر عمل دمشق وهي في سفح جبل . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٩ .

^(١١) جبيل : بلد مشهور في شرقي بيروت . المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤ .

^(١٢) الاساورة : من الأسوار او السوار وهو أسوار من الاساورة : لرامي الحاذق والأصل اساورة الفرس قواها وكانوا رماة الحدق . الزمخشري ، جار الله ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، أساس البلاغة ، دار صادر دار بيروت ، (بيروت ١٩٦٥ م) ، ص ٣١٣ .

^(١٣) البلدان ، ص ٣٢٧ .

^(١٤) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

^(١٥) يبدو ان الفرس كانوا في بلاد الشام قبل الإسلام بدليل أن أبا عبيده بن الجراح كان قد صالح أهل بعلبك بان أمنهم على أنفسهم واموالهم وكنائسهم ((رومها وفرسها وعربها على أنفسهم واموالهم...)) ، البلاذري ، فتوح

بعد ان اصبحوا مواطنين صالحين في الدولة العربية الإسلامية منهم ((أبو خراسان الفارسي)) و ((سفيان الفارسي)) اللذان جاها في البحر في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان^(١) (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٧م) ، وفي خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٣-٧٤٢م) كان على مدينة صور الثغرية أمير فارسي الأصل هو خالد بن الحسفان الفارسي^(٢) ، واسهم الفرس من أهل بعلبك في الرباط بالسواحل في فصل الشتاء^(٣) .

وقد كانت سياسة حكيمة اتبعتها الخليفة ليعث الحياة - على الأقل - في الثغور البحرية ويعزز دفاعاتها بالإفادة من طاقات الأمة ورعاياها على مختلف مللهم ونحلهم ، فضلا عن ان معظم أولئك الفرس إن لم يكونوا جميعاً من أهل الخبرة في صناعة السفن وما يلزمها وفي ركوب البحر ، وبذلك لن يكون ثمة مانع من وجودهم باعتبارهم جماعة من الفنيين يعملون في الصناعة المستحدثة لإنشاء أسطول عربي يجابه أساطيل الروم ، وبذا فلا حرج من استخدام الخليفة معاوية لهؤلاء الفرس وغيرهم من بقايا الروم كأجراء في إنشاء الأسطول شأنهم شأن القبط الذين كان منهم جماعة يسكنون مدن الساحل^(٤) ، والذين اسهم بعضهم بدور مشهود في فتح جزيرة قبرص الى جانب المجاهدين المسلمين^(٥) .

وفي سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م أو ٥٠هـ / ٦٧٠م نقل الخليفة معاوية الى السواحل قوماً من زط البصرة السيابجة^(٦) ، وانزل بعضهم إنطاكية ، وقد كان لهم فيها محلة تعرف بالزط وببوقا من عمل إنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط^(٧) ، وحذا حذوه الخليفة

البلدان ، ص ١٣٢ . وذكر البلاذري ايضا ان معاوية اغزى ابنه يزيد بلاد الروم ومعه ((فرس)) إنطاكية وبعلبك وغيرهم . انساب الأشراف ، ق ٢ ح ٢ ص ٣ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢١ ، ص ٣٦٧ ، ج ٦٦ ، ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥٠ ، ص ٣٣٧ .

(٤) اشترك جمع من الأقباط في بيروت في تشييع جنازة الإمام الاوزاعي . ينظر : المصدر نفسه ، ج ، ص .

(٥) ينظر : الأصفهاني ، الحافظ ابو نعيم احمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٨٨م) ، ج ٥ ، ص ١٣٤ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ١٩٣ .

(٦) الزط : جبل اسود من السند اليهم تنسب الثياب الزطية .. وهم جيل من أهل الهند ، وقيل الزط والسيابجة قوم من السند بالبصرة . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٧ ، (مادة زط) .

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٢ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٩٠-٩١ .

الوليد بن عبد الملك (٦٨-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) الذي اقطع الجند بإنطاكية ارض سلوقية^(١) ، عند الساحل فعمروها أجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية زيادة في الاستحكامات الدفاعية الساحلية^(٢) .

وواصل الخلفاء الأمويون إحكام الدفاعات الساحلية وترميم المتشعث منها وتزويدها بالعدد والعدة طوال سنوات المجابهة ، لاسيما وان الحرب كانت سجالاتاً ، إذ كلما هاجم الروم تطور المسلمين البحرية وخربوا ما بلغوا منها ، مستفيدين من أي وهن ينتاب المسلمين لسبب أو لآخر ، عمد الخلفاء الأمويون من جانبهم حال استقرار أوضاع الدولة الداخلية الى استئناف العمل في حماية الساحل وهو أمر لا مناص منه ، كما حصل ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان حيث استغل الروم انشغاله بحركة عبد الله ابن الزبير (٦٤-٧٣هـ/٦٨٣-٦٩٢م) فهاجموا عسقلان وقيسارية وصور وعكا ودمروا مساجدها واسوارها ، فحال استتباب الأمور لصالح الخليفة عبد الملك أعاد ترميم قيسارية وبنى مسجدها وشحنها وبنى صوراً وعكا اللتين نالهما ما نال قيسارية وفعل الأمر ذاته بعسقلان ، إذ اقطع فيها القطائع مستهدفاً دفعهم الى الاستقرار بها وتعزيز حاميتها العسكرية لصد أي عادية رومية مستقبلاً^(٣) . وفي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) بإعادة بناء ثغر اللاذقية وتحسينها مجدداً - بعد ان أغارت الروم عليها وهدمت مدينتها وسبت أهلها - ولم يتم ذلك الأمر حتى توفي الخليفة عمر سنة ١٠١هـ/٧١٩م ، فأتته الخليفة يزيد بن عبد الملك فيما بعد (١٠١-١٠٥هـ/٧١٩-٧٢٣م)^(٤) ، وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بنى حصن المتقب^(٥) ، على ساحل البحر الشامي قرب المصيصة على يد حسان بن ماهويه الانطاكي وسمي المتقب لأنه ((كان في جبال كلها مثقبة^(٦))) ، ولا شك في أن بناءه كان لغايات دفاعية تحت ضغط ضرورات حربية أوجبتها أهمية المجابهة مع الروم .

(١) سلوقية : حصن بساحل إنطاكية . البغدادي ، مرصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٥) المتقب : حصن على البحر قرب المصيصة لأنه في جبال كلها مثقبة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٧ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

وإزاء مستجدات الصراع الحربي عمد العرب المسلمون الى اعتماد أسلوب حربي جديد لتعزيز الدفاع الساحلي والتصدي للبيزنطيين براً بالجوء الى مبدأ الهجوم افضل وسيلة للدفاع ((الدفاع السيار)) بحراً ، على اثر هجماتهم الخطرة على مصر والشام ما بين الأعوام (٢٣-٢٥هـ / ٦٤٣-٦٤٥ م)^(١) ، ذلك لان دفاعات المسلمين الساحلية هذه لم تعد تكفي وحدها تماماً لكبح جماح الروم وردعهم ، كما إن وقوف العرب المسلمين موقف المتلقى للضربات الرومية من شأنه إضعافهم والحاق الضرر بهم ووضع حد لجهودهم الهادفة الى نقل رسالة الإسلام وتواصل الفتوحات ، وهذا ما أظهرته الأحداث اللاحقة ، لهذا سمح الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) للوالي معاوية بن ابي سفيان وجنده بركوب البحر يدفعه الى ذلك - دون شك - مبدأ (ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا^(٢)) في إذن ملوئه الحذر والتحرز وقتذاك ، بعد أن طمانه معاوية وهو عليه الأمر فالبحر^(٣) ((قد ذل بعد صعوبته^(٤))) عقب انحسار الشتاء^(٥) . وبفضل جهاد العرب المسلمين بحراً ، تحول البحر المتوسط من (بحر الروم) الى بحيرة عربية إسلامية - كما سنرى في الصفحات التالية .

أذن الخليفة عثمان (رضي الله عنه) بمهاجمة جزيرة قبرص^(٦) سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م مشروطاً على واليه معاوية من باب الحيطة والحذر أن لا يجبر الناس على ركوب البحر وان لا يقرع بينهم^(٧) ، وان يحمل ويعين من اختار الجهاد طائعاً وان يصطحب معه أهله تأكيداً على صدق نيته وتهويناً للأمر على المسلمين ولرفع معنوياتهم^(٨) ، وقد أشار أحد الباحثين المحدثين^(٩) الى انه على مرّ التاريخ من أراد ان يصبح قوة يعتد بها في شرق

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ص ٢٣٦-٢٣٩ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ص ٥٣-٥٤ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٣ .

(٥) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٤ .

(٧) عن جغرافية قبرص بالتفصيل ينظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ص ١١٣-١٢٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ص ١٩٦-١٩٧ .

(٨) كان المبدأ الذي عمل به الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) لا يستفتح بمتكأره في أثناء المعارك . ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ص ٣٤٦-٣٤٧ .

(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٥٣-١٥٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ص ٩٥-٩٧ .

(٩) علي محمد فهمي شتا ، ظهور القوة البحرية الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد ١ ، الرياض مارس ١٩٧٥م ، ص ١١٠ .

البحر المتوسط عليه أن يسيطر على هذه الجزيرة ، وفي هذا بيان لسبب إصرار معاوية على فتحها ، لأنها كانت قاعدة انطلاق متقدمة للأساطيل البيزنطية وتهديدها السواحل العربية ، وقد أدرك المسلمون هذه المسألة مبكراً ، لاسيما وإنها ذات موقع تعبوي ممتاز فهي تمتد بطول ١٤٠ ميلاً من الشرق الى الغرب وبعرض ٦٠ ميلاً ، وتبعد عن ساحل آسيا الصغرى بمقدار ٤٠ ميلاً ، إذ تشاهد معالمه منها في وضوح النهار ، وتبعد عن الساحل المصري ٢٤٠ ميلاً^(١) ، وقد اسهبت كتب الفتوح^(٢) بوصفها تفصيلاً .

اتخذ معاوية من ثغر عكا قاعدة للانطلاق صوب قبرص بعد أن أمر أهل السواحل بإصلاح المراكب وجمعها فيها بعد تلقيه أذن الخليفة عثمان (رضي الله عنه) ، فأصلحت وجمعت واعطى المقاتلة الأرزاق والاعطيات^(٣) ، وخاض البحر بأسطول بالغ بعض المؤرخين في عدد سفنه بان جعلها (١٧٠٠) سفينة^(٤) ، وهو رقم مبالغ فيه لاسيما وانه أول أسطول عربي إسلامي يستخدمونه في غزواتهم البحرية ، كما إن الوقت لم يكن يسمح بإنشاء هذا العدد الهائل من السفن في المدة الوجيزة بين موافقة الخليفة عثمان (رضي الله عنه) وانطلاق الأسطول ، وعليه فان العدد الذي أعطاه ابن اعثم^(٥) - (٢٢٠) سفينة - هو الأكثر قبولاً ، وقد آزر الأسطول المصري بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأسطول الشامي في هذه الغزوة فأطبقا الهجوم على قبرص^(٦) .

أكدت بنود الصلح الذي عقده المسلمون مع أهل قبرص بعد الإغارة عليها ومحاصرة مدينتها قسطنطينا (Costantina) الغايات الدفاعية وراء تنفيذ العرب المسلمين لهذا العمل الحربي فقد نص الصلح على أن يدفع أهل قبرص جزية سنوية للمسلمين على نحو ما كانوا يؤدون للدولة البيزنطية وتعهدوا بالآساعداوا البيزنطيين في غاراتهم على سواحل الشام ، ولا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة ينوي البيزنطيون شنها على دار الإسلام ، وان على أهل قبرص التزام الحياد التام في الحرب بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين إذا لم يطلب منهم العرب

(١) مؤيد كيلاني ، قبرص جزيرة السحر والجمال ، ١٩٦٠م ، ص ٦-٧ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٤ ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٣) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٤) المنبجي ، اغابوس بن قسطنطين المنبجي ، (من القرن ٤هـ) ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، انتخبه وصنفه : د. عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، دار المنصور ، (لبنان ١٩٥٦م) ، ص ٥٥ .

(٥) الفتوح ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

المسلمون تقديم أية مساعدة لهم في حال اغاراتهم على البيزنطيين ((فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم^(١))) .

عدت هذه الحملة أول تماس حربي فعلي في البحر مع البيزنطيين وعلى أثرها تشجع المسلمون أكثر لركوب البحر ، فأخذت سفنهم تنود عن سواحل الشام ومصر بحزم ، فحينما نقض أهل قبرص صلحهم المذكور سابقا بمساعدتهم الروم بمراكب أعطوهم اياها سنة ٣٢هـ/٦٥٢م قصدها معاوية وجنده مجدداً بنحو (٥٠٠) سفينة حربية سنة ٣٣هـ/٦٥٣م ، عازماً هذه المرة على إنهاء السيطرة الرومية بقبرص بصورة تامة ، وجعلها ثغراً بحرياً عربياً متقدماً ، فحررها واسكنها (١٢) ألف مقاتل أقاموا في ليبيتوس (Lepithos) على الساحل الشمالي للجزيرة^(٢))) (كلهم أهل ديوان فبنوا المساجد^(٣))) ، تأكيداً منهم على عزمهم على الاستقرار فيها بشكل نهائي قاطعين بذلك أي رجاء للروم بالعودة إليها ، أو أي أمل للقبارصة بمساعدة أسيادهم السابقين (الروم) ، فشيّد معاوية للمرابطين مدينة جديدة هناك وأسس لهم مسجداً جامعاً ، ولم تزل قبرص محل اهتمام العرب بوصفها ثغراً بحرياً متقدماً ، فقد عزز معاوية بعد توليه الخلافة حاميتها - سالفة الذكر - بأن نقل إليها جماعة من أهل بعلبك ومنحهم الأعطيات تشجيعاً لهم على الرباط هناك^(٤) ، ووجه موسى بن نصير بعد ان ولاء البحر الى قبرص فبنى بها حصوناً وموانئ ((منها يانس وال عوصه^(٥))) واستمر بإرسال الصوائف البحرية إليها تأكيداً منه على سيادة المسلمين المطلقة على هذا الثغر البحري المهم^(٦) .

أكدت الأحداث التاريخية اللاحقة رجاحة فكر القائد والخليفة معاوية بن ابي سفيان العسكري ، فبعد انسحاب الحامية الإسلامية المرابطة في قبرص أيام الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣م) ، ربما بسبب الأحداث التي عصفت بخلافته ، اظهر أهل قبرص عدة مؤشرات على تذبذب ولائهم السياسي للعرب المسلمين ، مما دفع ذلك الأمويين لقصدتهم أكثر من مرة وزيادة الجزية المفروضة عليهم سابقاً تارة أو إعادتها

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٤ ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٠ ، ص ٣٣٧ .

(٢) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٩٠ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٤ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٤ ؛ إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٨٥ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦١ ، ص ٢١٢-٢١٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٢٩ .

الى ما كانت عليه تارة أخرى^(١) ، بل إن الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل أحد قادته سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م لغزوها ومعاقبة أهلها على مساعدتهم للروم في هجماتهم المتكررة على الثغور البحرية الإسلامية وأمره ان يخبرهم بين المسير الى الشام إن شاءوا ، وان شاءوا الى الروم فاختار قسم منهم جوار المسلمين فنقلوا الى الشام واختار آخرون جوار الروم فرحلوا اليهم^(٢) ، وذكر المنبجي^(٣) ان الأمر تكرر في خلافة الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ/٧٤٢-٧٤٣م) فأمر الخليفة الوليد ان يجلوا مرة أخرى ويسكنوا في الساحل الشامي ما بين صور وصيدا ، ثم رد الخليفة يزيد بن الوليد هؤلاء إلى قبرص فيما بعد .

وفي هذه الأحداث مؤشرات على الأهمية الكبيرة لهذه الجزيرة التي سعى الروم بكل الوسائل ولاكثر من مرة لمعاودة السيطرة عليها بغية ضرب القواعد الساحلية والحد من نشاط المسلمين البحري ، لاسيما بعد ان غدت بحريتهم تدك معقل الروم في القسطنطينية وعلى السواحل وفي الجزر القريبة منها .

ولا بد من الإشارة - إلى ما نوهنا به سابقاً - ان الانتصار الإسلامي في قبرص قد تعزز أكثر بفتح المسلمين لجزيرة ارواد الشامية (Aratus) الواقعة بين جبلة وطرابلس أمام مدينة انطربوس بعد حملتين بحريتين أعقبتا فتح قبرص في شتاء سنة ٢٨هـ/٦٤٩م وربيع سنة ٢٩هـ/٦٥٠م ، وهي آخر أقوى حصن للروم البيزنطيين على السواحل الشامية^(٤) .

وبعد قبرص وأرواد الشامية توجه الأسطول العربي بأمر القائد معاوية وبأذن الخليفة عثمان (رضي الله عنه) لفتح جزيرة رودس ، تلك الجزيرة التي تعد أهم جزر بحر ايجة أعلاها مكانة لدى الروم من حيث نشاطها البحري ونشاط صناعة السفن فيها ، فهي أول حلقة في سلسلة ارخبيل بحر ايجة^(٥) ، وتعد حلقة وصل بين القسطنطينية والثغور البيزنطية في السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ، تمتد من الجنوب الغربي الى

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٥٥-١٥٧ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٠ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٥٨٥ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ . أحداث السنوات ٩٥ ، ١٠٧ ، ١٢٠هـ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ص ٦٧-٦٨ .

(٣) المنتخب ، ص ٩٥ . ينظر ايضا : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٥ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ص ٦٧-٦٨ .

(٤) المزيد من التفاصيل ينظر : إبراهيم محمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ص ٨٨-٨٩ ؛ ارشيبالد

لويس ، القوى البحرية ، ص ٩٠ .

(٥) ينظر: خريطة رقم (١٠) .

الشمال الشرقي على بعد (١٢) ميلاً تقريباً من ساحل آسيا الصغرى^(١) ، وصفها البلاذري^(٢) بأنها غيضة في البحر وهي من اخصب الجزر وفيها مساحات مزروعة بالزيتون والكرم وفيها مياه عذبة ، تقع الى الشمال الغربي من جزيرة قبرص والى الشمال الشرقي من جزيرة كريت (اقريطش)^(٣) ، ونظراً لموقعها هذا ولأنها خطر على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، أرسل إليها معاوية حملة بقيادة جنادة بن أمية الازدي انطلقت من ثغر صيدا البحري ، وقد دارت معركة بحرية بين العرب المسلمين والروم بالقرب من ساحل رودس ((حتى كثر القتلى بينهم ثم رزق المسلمون الظفر عليهم فهزموهم وفضوا أمرهم ومراكبهم حتى ساروا الى الجزيرة ، فدخلوها عنوة وقتلوا فيها من قتلوا^(٤))) ، ثم انسحب القوة الإسلامية على ما يبدو تحت ضغط الظروف الطبيعية والصعوبات التي اعترضتهم بسبب المقاومة أثناء عملية الفتح ، لكن هذا الانسحاب تم بعد إلحاق الهزيمة بالحامية البيزنطية في رودس^(٥) .

كان للانتصارات الإسلامية البحرية - آفة الذكر - الأثر الأكبر في تشجيعهم على توجيه المزيد من الضربات المباشرة الى المعازل البحرية البيزنطية في ساحل آسيا الصغرى ليكيا (Lycia) المطل على البحر المتوسط وبحر ايجة في إطار تنفيذ خطة الدفاع البحري السيّار ، وتمهيداً لضرب مكنم الخطر البيزنطي (القسطنطينية) بتعاون القوة البحرية مع القوات البرية ، وضرب المزيد من الحاميات والقواعد الرومية في الجزر الايجية^(٦) القريبة من ذلك الساحل ، لأنها محطات حيوية ومهمة من النواحي التعبوية في الطريق الى القسطنطينية اتخذتها الأساطيل التابعة لتلك المقاطعات قواعد لها كخط دفاع أول عن القسطنطينية^(٧) ، فضلاً عن ذلك قد يكون الحصول على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن الحربية من مناطق ليكيا (Lycia) الغنية بأخشابها سبباً آخر

(١) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٠ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ .

(٣) ينظر : خريطة رقم (١١) .

(٤) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٥) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٠-٩١ ؛ سالم عبد علي العبيدي ، القوة البحرية ، ص ٨٩-٩٠ .

(٦) عن الجزر الايجية ينظر : Baskin Oran , Turk – Yunan Liskilerind Baiti Trakay Sorunu : the Westren Thrace Question on Greek – Turkish Relation , 1986 , PP 6-9 .

(٧) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ص ٩٣-٩٥ .

يضاف الى ما تقدم ذكره من الأسباب التعبوية و ((السوقية)) التي دفعت المسلمين الى خوض معركة ذات الصواري ٣٤هـ/٦٥٥م التي أسفرت عن هزيمة الأسطول البيزنطي العريق^(١) .

وضع الوالي معاوية بن ابي سفيان خطته الحربية على أساس تعاون الأسطول البحري مع القوات البرية - لأول مرة - لأجل تحقيق الأهداف آنفة الذكر ، إذ استخدم الجيش البري بهدف الخديعة وجذب الروم بعيداً عن العاصمة ، وفي الوقت نفسه يقطع خط الهجوم الرومي المعاكس في حال تفكيرهم بالإغارة على القواعد الإسلامية الساحلية في مصر والشام وقت انشغال الجيش العربي الإسلامي بحملته ، فضلاً عن عزل الجيش البيزنطي عن العاصمة بعملية إنزال جيوش إسلامية خلف القوات القادمة لملاقاة الجيش الإسلامي البري في منطقة ليكيا Lycia^(٢) لهذا توجه جيش إسلامي بري نحو مطية فوطاً أرض الروم وافتتح في طريق مدناً صغيرة ووصل الى حصن المردة بباب مطية وحقق النصر على أهلها بعد قتالهم^(٣) ، وفي الوقت ذاته تحرك الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح من الشواطئ المصرية الذي قام بإنزال نصف قواته على ساحل ليكيا بقيادة بسر بن ابي ارطأة ، لقطع الطريق على القوات البيزنطية في حال انسحابها باتجاه القسطنطينية للدفاع عنها^(٤) ، فدخلت القوة البحرية العربية العربية ميناء فونيقيّة (Pheonix) ، ولا شك في ان الإمبراطور البيزنطي كونسطنز الثاني (Contans II) (٦٤١ - ٦٦٨ م) أدرك مقدار الخطر الذي باتت تشكله القوات العربية الإسلامية ، ليس

^(١) تناولت الكثير من الدراسات التاريخية هذه الواقعة بالبحث ، إلا إن أغلبها ركز على الجانب البحري بالاعتماد على روايات المصادر المتقدمة وأهملت الجانب البري فيها ، والذي يعد بداية التعاون بين القوات البرية والبحرية الإسلامية وقد اعتمدت دراسة عبد المنعم مختار الموسومة (أضواء على معركة ذات الصواري) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، كانون الثاني ١٩٦٦م ، ج ١ ، ص ٣٢٥-٣٣٦ . من هذه الدراسات : ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٩١ ، علي حسين الخربوطلي ، الإسلام في حوض البحر المتوسط ، دار العلم للملايين ، (بيروت د.ت) ، ص ١١ ، سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكتاب العربي ، د.ت ، ص ٨٣-٨٤ .

^(٢) المنبجي ، المنتخب ، ص ٥٩-٦١ ؛ عبد المنعم مختار ، أضواء ، ص ٣٣٢-٣٣٣ .

^(٣) ينظر : المنبجي ، المنتخب ، ص ٥٩-٦١ ، كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح في حقائق المعرفة ، مط الآباء اليسوعيين ، (بيروت ١٩٠٧م) ، ص ٣٤٧-٣٤٨ . جعل الطبري هذه الغزوة سنة ٣٣هـ/٦٥٤م ونقلها عنه ابن الأثير : ينظر : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٤ ، ص ٣١٧ ؛ الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

^(٤) ينظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٥ .

فقط على قواعد الروم البحرية في سواحل آسيا الصغرى والجزر الايجية ، بل على القسطنطينية نفسها ، بعد أن حفزت العرب المسلمين على ما يبدو نتائج حملتهم هذه على التفكير في مهاجمتها ، لذا رأى الإمبراطور أن يتصدى لهم ويفاجئهم بأسطول يفوق أسطولهم بالعدد والعدة بعد أن بلغته أنباء حملتهم ، فخرج ((في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام)) على حد وصف الطبري^(١) ، تألف من خمسمائة سفينة وفي رواية ثانية ألف سفينة^(٢) ، مزودة بالآلات الحرب مما راع منظرها المقاتلة المسلمين الذين لم يكن لقائدهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بدّ إلا ان استنفروهم لمجابهة سفن الروم ، فاستنفروا مؤمنين بقوله عز وجل ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين^(٣))) ، لذا قاتلوا الروم بكل أسلحتهم وتراموا معهم بالحجر وربطوا سفنهم بسفن الأعداء واصطفوا فوق السفن في تعبئة تشبه تعبئتهم في الحروب البرية ، مما كان لها بعد الأثر في حسم المعركة لصالح المسلمين والحاق الهزيمة بأسطول الروم^(٤) ، فما لبث إمبراطورهم ان فرّ باتجاه جزيرة صقلية بعد ان دفعت أمواج البحر والرياح قطع أسطوله المتبقية الى قبالة شواطئ الإسكندرية لتشهد افدح هزيمة لها على يد مقاتلة الأسطول العربي ((ورجعت مراكب المسلمين الى الساحل فأرسيته بعكا وكتب عبد الله بن سعد ومعوية الى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يخبرانه بهزيمة الكفار ...^(٥))) .

عُدّت هذه الواقعة البحرية الحاسمة نقطة تحول كبرى في مسار المجابهة الحربية البحرية مع الروم فهي بحق يرموك ثانية عليهم كما وصفها المؤرخ الإغريقي ثيوفانتس (ت ٨١٨)^(٦) ، وحد فاصل في تاريخ البحر المتوسط جعلت منه بحرا إسلامي^(٧) ، وغدا المسلمون قوة لا يستهان بها حتى ان الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل في سيادة

(١) تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ، ص ص ٦٩-٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٥٦ ؛ المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٩ . ينظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ص ٢٥٥-٢٥٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ص ٦٩-٧٠ ، ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ص ١٢٨-١٢٩ .

(٥) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . كان ذلك ما بين سنة ٣٤هـ/٦٥٥م وبداية سنة ٣٥هـ/٦٥٥م حتى أن الأوائل لكتابتهم التاريخ على المنهج الحولي جعلوا من هذه الحادثة حادثتين ، مما جعل بعض الباحثين المحدثين يقع في الخطأ ذاته . ينظر : عبد المنعم مختار ، أضواء ، ص ص ٣٣٥-٣٣٦ .

(٦) علي حسين الخربوطلي ، الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ص ١١ .

(٧) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

ذلك البحر وانتزاعه نهائياً من قبضتهم ، فما ان استتبت أحوال الدولة الأموية بعد سنة ٤١هـ / ٦٦١م عام الجماعة ، حتى أخذ الخليفة معاوية يرنو ببصره تجاه القسطنطينية ، لأنها مصدر الخطر البيزنطي على المسلمين ، وهي حقيقة أدركها منذ كان والياً وقائداً أيام الخلفاء الراشدين ، لذا واصل الخليفة معاوية تعزيز الدفاعات الساحلية بمختلف الوسائل والأساليب ، وأرسل الصوائف^(١) البحرية الى المعقل البيزنطية في جزر البحر المتوسط الشرقية والغربية على حد سواء ، لان الإمبراطور كونستانتز الثاني بعد هزيمته في ذات الصواري نقل مقره الى مدينة سرقوسة في جزيرة صقلية وفي نفسه عدة مآرب^(٢) يبغي تحقيقها ، منها تحويل نشاطه الحربي ضد العرب المسلمين الى غرب البحر المتوسط أملاً في التثبيت بما بقي تحت نفوذه من أراضي في شمال أفريقية وضرب الجيوش العربية الإسلامية التي كانت تتقدم ظافرةً لدك المعقل البيزنطية هناك^(٣) .

إذ وجه الخليفة معاوية القائد معاوية بن حديج على رأس جيش للتقدم في إفريقية سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م ، فتصدت لجنده حملة بيزنطية بحراً من صقلية^(٤) ، لهذا قرر معاوية بن حديج توجيه ضربة قوية الى قاعدة الروم البحرية في صقلية^(٥) لما تشكل هذه القاعدة الحربية المهمة من خطر على المقاتلة المسلمين إذا ما تواصلوا بفتوحهم في شمال أفريقية وهو أمر أكدته الأحداث التالية من سفر المجابهة ، لذا بعث حملة إليها سنة ٤٧هـ / ٦٦٧م مؤلفة من مائتي مركب اشتبكت مع القوات البيزنطية هناك ((فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا الى أفريقية^(٦))) مؤكدين للروم بهذا الفعل حالة التوثب والاستنفار لديهم لردعهم في أي وقت ومكان ، على الرغم من حالات الوهن والفتور التي قد تتناهبهم لسبب أو لآخر ، ولأسباب ذاتها وجه الخليفة معاوية حملة بحرية ثانية بقيادة ربيعة بن ثابت الأنصاري الذي كان يلي طرابلس من قبل سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م الى جزيرة جربة الواقعة

(١) ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ان الخليفة اغزى عقبة بن عامر الجهني وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد قبرص سنة ٤٧هـ / ٦٦٧م ، ج ٤ ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابراهيم احمد العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٩٨-١٠٠ ؛ ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٩٢-٩٥ .

(٣) ينظر : خريطة رقم (٤ ، ٥) .

(٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٣٤-٣٥ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ .

(٦) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦-١٧ ؛ فازيليف ، العرب والروم ، ص ٦٢-٦٣ .

قبالة ساحل قابس وتمت هذه الغزوة سنة ٤٧هـ / ٦٧٠م^(١) ، وذكر الطبري ان فضالة بن عبيد الأنصاري (ت ٥٣هـ) غزاها مرة أخرى سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م وشتا بها ((وفتحت على يديه وأصاب منها سبباً كثيراً^(٢))) ، بعد قتال ومقاومة من قبل الروم فيها واحكم المسلمون قبضتهم على جزيرة قوصرة (بانتلاريا حالياً) الواقعة على بعد ستين ميلاً الى الجنوب من صقلية واربعين ميلاً من أفريقية والتي كانت بمثابة القنطرة التي قفzوا منها الى صقلية على حد تعبير فازيليف^(٣) وفتحوها مجملة موفقة قادها فضالة بن عبيد الأنصاري^(٤) .

لم ينقطع نشاط المسلمين الحربي البحري في شرق البحر المتوسط الى جانب عملياتهم الحربية الموفقة في شمال أفريقيا وغرب البحر المتوسط ، فقد أنفذوا صائفة بحرية نحو جزيرة رودس التي تقلبت في ولائها بين العرب والروم ، قادها جنادة بن أمية الأزدي فاعاد فتحها ثانية سنة ٥٢هـ / ٦٧٢م بأمر من الخليفة معاوية وفرض السيادة الإسلامية المطلقة عليها عن طريق إسكان المقاتلة فيها وأقامة القلاع والحصون لهم هناك ، ومعاينة المقاتلة إليها سنوياً والذين زرعوا واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها ، وأقاموا على الشاطئ الحرس والنواطير للإنذار والتخدير من الروم ، فكان أولئك المرابطون أشد شيء على الروم يعترضون سفنهم في البحر ، حتى أخافوهم و أمدهم الخليفة معاوية بالأرزاق والعطايا ، فقاموا بها سبع سنين ومعهم مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن^(٥) ، وما زالت توجيهات الخليفة معاوية ومعاوناته تترى اليهم في هذا الثغر المهم حتى أقفلهم الخليفة يزيد بن معاوية بعد وفاة والده^(٦) .

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٥٣ ؛ ابن ابي دينار ، ابي عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني المعروف بابن ابي دينار ، المؤنس في أخبار أفريقية ومؤنس ، تحقيق : محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، د.ت ، ص ٢٨ .

(٢) تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ .

(٣) العرب والروم ، ص ٦٣ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٢م ، ص ١١١- ١١٢ ، سالم عبد علي العبيدي ، القوة البحرية ، ص ٩٩ .

(٥) ينظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٨٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، المنجي ، المنتخب ، ص ٧١ ، كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح في حقائق المعرفة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، (بيروت ١٩٠٧م) ، ص ٣٤٧ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١١ ، ص ٣٢- ٣٣ .

ورداً على إنجازات المسلمين آنفة الذكر هاجمت أساطيل الروم البحرية سنة ٥٣هـ/٦٧٢م شواطئ البرلس^(١) في مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري لضرب قواعد الأسطول المصري الذي كان مصدر خطر دائم على القواعد البيزنطية منذ وقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٥م الى جانب أسطول الشام ، فتصدى لهم المسلمون في البر والبحر حتى تمكنوا من ردعهم بعد معركة حامية سقط فيها عدد كبير من الشهداء في صفوف المسلمين^(٢) ، إزاء ذلك لم يكن أمام الخلافة الأموية من سبيل الا تعزيز الروضة سنة ٥٤هـ/٦٧٣م^(٣) ، مجارةً للروم في قوتهم ولإحداث نوع من توازن القوى معهم واستجابة للضرورات الحربية الدفاعية واستعداداً لشن الهجوم البحري - البري المرتقب على القسطنطينية الذي تم في تلك السنة ، والذي مهد له المسلمون بفتحهم جزيرة ارواد (كزيكوس) في مياه القسطنطينية في تلك السنة ٥٤هـ/٦٧٣م على يد جنادة بن أمية الأزدي واسكنها الخليفة معاوية المسلمين ، واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته البحرية على القسطنطينية أثناء حصار السنوات السبعة ٥٤-٦٠هـ/٦٧٣-٦٧٩م فكانت سفن الأسطول الإسلامي تنقل الجنود من هذه الجزيرة الى البر لمحاصرة العاصمة^(٤) .

عقب انسحاب المسلمين من حصارهم الأول للقسطنطينية (٥٤-٦٠هـ/٦٧٣-٦٧٩) وما لبد الأجواء السياسية للدولة العربية الإسلامية من اضطرابات بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية (٦٤هـ/٦٨٣م) وما تعرضت له ثغور المسلمين البحرية الشامية - نتيجة لذلك - من هجمات بيزنطية متكررة أسفر عنها تدمير أسوارها ومساجدها كعسقلان وقيسارية وطرابلس ، عاد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) بعد استقرار لصالحه بعد سنة ٧٣هـ/٦٩٢م الى استئناف الجهاد ضد البيزنطيين في البر والبحر ، لاسيما في جبهة شمال أفريقيا وغرب البحر المتوسط في أجراء وقائي استهدف

(١) البرلس : بليدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ) ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، مصححاً بقلم : رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، (بيروت ١٩٠٨م) ، ص ٣٨ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٢ ، ص ٤٤٣-٤٤٤ .

(٣) الكندي ، كتاب الولاة ، ص ٣٨ ؛ الاضطخري ، الأقاليم ، ٢٦ ، علي حسني الخربوطلي ، الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ص ١٩ .

(٤) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٦٥ ؛ احمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ص ٢٣-٢٤ .

أحكام السيطرة العربية الإسلامية على هذا البحر شرقاً وغرباً ورداً على الاعتداءات الرومية المتمثلة باحتلال مدينة القيروان العربية في المغرب ، واستشهاد القائد عقبة بن نافع الفهري^(١) على يد الروم البيزنطيين وحلفائهم البربر سنة ٦٥هـ/٦٨٤م ، وضربهم مؤخرة الجيش العربي الإسلامي في ضواحي برقة وقتلهم القائد زهير بن قيس الفزاري هو الآخر سنة ٣١هـ/٦٩٠م^(٢) ، هذه الاعتداءات التي كانت تجسداً عملياً لتحول النشاط الحربي البيزنطي الى تلك الأقاليم بعد ان يؤسوا من تدمير القواعد الإسلامية الثغرية في الشام ومصر ومن إخراج العرب المسلمين نهائياً من تلك الأصقاع ومن فرض سيادتهم المطلقة على شرق البحر المتوسط .

ازاء ذلك جهز الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً قوامه اربعون ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام وعهد بقيادته الى حسان بن النعمان الغساني^(٣) (ت ٨٠هـ) أطلق يديه في أموال مصر تحفيزاً له ولجنده على النفير وسداً لنفقاتهم ، وبعد أن تم له النصر على البيزنطيين وحلفائهم البربر في الميدان البري ما بين السنوات ٧٤-٨٢هـ/٦٩٤-٧٠١م^(٤) ، ولما كان الخطر البيزنطي يأتي من جهة البحر ويسعى البيزنطيون الى التثبيت بالحصون الساحلية - كقرطاجنة^(٥) مثلاً - بكل الوسائل قرر القائد حسان بناء مدينة جديدة تكون ثغراً ساحلياً دفاعياً ودار صناعة لبناء المزيد من السفن الحربية التي من شأنها إنهاء السيادة البيزنطية على الركن الغربي من البحر المتوسط ، ولتكمل مع دار الصناعة بالشام ومصر السور الدفاعي البحري العربي عن دار الإسلام ، فأختار لهذا موضعاً قديماً يقال له ترشيش^(٦) ، أرسل وفداً الى الخليفة عبد الملك اطلعه على ما يعانيه المسلمون هناك من

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، ٢٧٢-٢٧٣ ، الرقيق القيرواني ، تاريخ

أفريقية ، ص ٤٤-٤٧ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٠٦-١١٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، ٢٧٢-٢٧٣ ، الرقيق القيرواني ، تاريخ

أفريقية ، ص ٤٤-٤٧ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٠٦-١١٠ .

(٣) الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ٥٣-٥٥ ؛ ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ١٠٠ . حسان بن النعمان الغساني امير المغرب افتتح فيها بلاداً .. وحكمها نيافاً وعشرين سنة قيل انه توفي سنة ثمانين الذهبي ، سير اعلام ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ . ينظر ايضاً ص ١٥٩ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص ٢٦٩-٢٧٢ ؛ الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية ، ص ٥٥-٦١ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٦٩-٣٧٢ .

(٥) ابراهيم احمد العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٢٢٦-٢٢٨ .

(٦) ترشيش : قرية صغيرة بجوار بحيرة الى الجنوب من رادس على بعد نحو اثني عشر ميلاً شرقي قرطاجنة . ينظر : البكري ، المغرب ، ص ٣٧-٣٨ .

غارات الروم البحرية ، وكتب اليه معهم رسالة وضح له فيها أهمية وجدوى إنشاء دار صناعة بتونس لشهرة الأقباط في صناعة السفن وقيادتها^(١) ، فكتب الخليفة عبد الملك الى أخيه عبد العزيز بن مروان (ت ٨٥هـ) عامله على مصر ((أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا ترشيش وهي تونس ، وكتب الى ابن النعمان يأمر أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يجعل على البربر جرّ الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم الى آخر الدهر، وان يصنع بها المراكب، ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منه على ساحل الروم فيشتغلوا عن القبروان نظراً للمسلمين وحصيناً لشأنهم^(٢))) .

وفي هذا الإجراء إبراز لقوة المسلمين المتجددة عقب كل حالة وهن وفتور ينتابها في إطار سياسة يمكن وصفها بتوازن القوة والرعب مع العدو - إن صح التعبير - كما إن تمصير هذا الثغر ومن قبله القبروان سيعزز الأمن والاستقرار هناك ، من خلال إسكان العرب المسلمين وبقية رعايا الدولة العربية الإسلامية على مختلف أصولهم ونحلهم - سيراً على النهج الذي اختطه القائد والخليفة معاوية بن ابي سفيان من قبل في ثغور الشام البحرية - وجعلها مواطن جهاد يقصدها المجاهدون ، ومن شأنه أيضاً أضعاف مكانة مدينة قرطاجنة البيزنطية التي كانت تمثل مركز السيادة البيزنطية على شمال أفريقيا والتي طالما تكررت محاولات الروم لاعادة السيطرة عليها ، فوفد القبط عليه، فجعل معظمهم في رادس^(٣)، ووزع البقية في مراسي أفريقية ثم أجرى البحر من رادس الى موضع دار صناعة السفن وأمر القبط بعمارتها في الميناء المتصل بالبحيرة، أصبحت البحيرة متصلة بالبحر ، وتحولت تونس على هذا النحو الى قاعدة بحرية مهمة ومنطلقاً لمهاجمة الجزر البيزنطية وفي مقدمتها صقلية وسردانية وميناء تأوي إليها السفن الحربية الإسلامية^(٤) .

(١) عن معرفة المصريين بصناعة السفن عبر التاريخ ينظر : د. علي مظهر ، السفن والملاحة بمصر ، مجلة المقتطف ، يناير ١٩٣٤م ، ج ١ ، مج ٣٤ ، ص ٦٢-٦٤ .

(٢) البكري ، المغرب ، ص ٣٧-٣٨ ؛ ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص ١٥ .

(٣) رادس : قال عبيد البكري : البحر على ساحله تونس بأفريقية يقال له رادس وبذلك سمي ميناءها ميناء رادس . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٤) البكري ، المغرب ، ص ٣٧-٣٨ ؛ احمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط . البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الإسكندرية د . ت) ، ص ٣٢-٣٣ .

وبعد أن أصبح للمسلمين أسطول ثالث مقره تونس انصب اهتمامهم الى توجيه ضربات المركزة الى قواعد الروم غرب البحر المتوسط ، ففي سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م أرسل موسى بن نصير الذي ولي المغرب بعد حسان بن النعمان حملة بحرية بقيادة ابنه عبد الله ابن موسى الى جزيرة صقلية فاستطاع فتح إحدى مدنها ثم قفل عائداً من إذ انطلق^(١) ، وفي السنة ذاتها اغزى الخليفة عبد الملك ، عبد الملك بن قطن في البحر ، ففتح ما كان هناك من الجزر ومنها قوصرة (بانتلاريا) الواقعة بين صقلية وساحل شمال أفريقية^(٢) ، وائفذ موسى بن نصير شاتية بحرية الى صقلية سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م ، فاصاب المقاتلة المسلمون مدينة سرقوسة وقفلوا عائدين^(٣) ، ولا بد انه قصد من هذه الشاتية مفاجأة الحاميات الرومية هناك ، لان المعتاد أن تتوقف الحملات البحرية العربية شتاءً او فيما يسمى بانغلاق البحر ، وتستأنف في شهر نيسان لتستمر حتى شهر تشرين الثاني حيث يكون البحر اكثر سكونا والأنواء أصلح للإبحار والجهاد .

وفي سنة ٨٧هـ / ٧٠٥م أنفذ موسى بن نصير حملة بحرية بقيادة ابنه عبد الله الى جزيرة سرديانية فافتتح إحدى مدنها وتدعى أوله او قوله^(٤) ، وقاد عبد الله سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م حملة بحرية اخرى استهدفت فتح جزيرتي ميورقة ومنورقة الواقعتين ما بين جزيرة صقلية والأندلس^(٥) ، ولأهمية هذا الركن من جبهة المجابهة الحربية البحرية مع الروم البيزنطيين ودورها في رجحان كفة الحرب لصالح العرب المسلمين ، ولما لأسطول تونس من أهمية تعبوية على مجريات الصراع ، أصبح لبحر أفريقية خطة خاصة تولها محمد بن اوس الأنصاري منذ سنة ٩٣هـ / ٧١١م^(٦) لتنظيم أعمال الجهاد

(١) ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٦ .

(٢) البكري ، المغرب ، ص ٤٥ .

(٣) ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، (منسوب) ، الإمامة والسياسة علق عليه ووضع حواشيه : خليل المنصور ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٧م) ، ص ٢٣٥ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٤) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ؛ الذهبي ، الأمام محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) ، العبر في خبر من غير ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، (الكويت ١٩٦٠م) ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٧ ؛ الذهبي ، العبر ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٦) المقرئ ، احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ) ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار صادر ، (بيروت ١٩٩٧م) ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

في البحر الى جانب واجبات اتخاذ الحيلة والحذر في السواحل لحمايتها من أساطيل الروم .

ولم تنزل غارات المسلمين البحرية تتوالى على المعاقل الرومية في جزر البحر المتوسط الغربية حتى بعد فتح الأندلس سنة ٩٢هـ / ٧١٠م وبعد عودة الأساطيل الإسلامية من حصار القسطنطينية الثاني ٩٨هـ / ٧١٦م ، وغدت الغارات البحرية نشاطاً حربياً مستمراً ما بين السنوات ١٠٢-١٢٢هـ / ٧٢٠-٧٣٩م ، ففي السنة الأخيرة اغزى عبيد الله بن الحبحاب والي أفريقية حبيب بن ابي عبده بن عقبة بن نافع الى صقلية فاصطحب حبيب معه ابنه عبد الرحمن فلما نزل بأرضها اشتبك عبد الرحمن هذا في جماعة من المسلمين مع الروم وهزمهم ونزل على مدينة سرقوسة فقاتله الروم وانتصر عليهم فصالحوه على الجزية . وعاد عبد الرحمن الى القاعدة التي استقر بها جيش أبيه حبيب ، وكان الأخير قد عزم على المقام بصقلية حتى يستكمل افتتاحها ويقطع شأفة الروم بها فأتاه كتاب ابن الحبحاب يستدعيه الى أفريقية لما بلغه وثوب البربر في طنجة بعامله عمر بن عبد المرادي وإشغالهم نار الفتنة في المغرب^(١) .

وفي الوقت الذي كانت فيه هجمات المسلمين البحرية على اشدّها في غرب البحر المتوسط قام البيزنطيون بشن هجمات مقابلة على السواحل الإسلامية في مصر والشام بين الحين والآخر في محاولة ربما قصدوا من ورائها تخفيف الضغط الإسلامي المتواصل على قواعدهم في غرب البحر المتوسط واشغال العرب المسلمين في عقر دارهم ، وللدخول من الزخم الحربي الإسلامي المستمر والذي أصبح يهدد القسطنطينية ، ففي سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م أغار الروم على مدينة دمياط^(٢) الساحلية المصرية واسروا أمير بحرها خالد بن كيسان^(٣) ، رداً على مهاجمة المسلمين لصقلية وسردانية - على ما يبدو - ((فذهبوا به الى ملكهم فأهداه ملك الروم الى الوليد بن عبد الملك^(٤))) ، ولا يمكن تفسير مثل هذا الأمر على انه تحسن في العلاقات العربية - البيزنطية ، بقدر ما هو مناورة أراد

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٢) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم والنيل . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥٤ ، ص ٣١٤ .

(٣) خالد بن كيسان : ولي غزو البحر في أيام بني أمية . قال الواقدي سنة تسعين فيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر فذهبت به الى القسطنطينية . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ١٨ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٤١٢ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٦ ، ص ١٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

بها الروم إبلاغ المسلمين بنشاط قوتهم البحرية شرقي البحر المتوسط - ولا غرابة في ذلك فقد كانت الحرب سجلاً بين الطرفين - وان ذراعهم البحرية تطال أية قاعدة إسلامية على الساحل ، وهذا ما تكرر سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م عندما أغاروا على ثغر الإسكندرية^(١) ، واغاروا ايضاً على ثغر دمياط في سنة ١٢١هـ / ٧٣٨م^(٢) ، وعندما هجمت سفنهم الحربية في خلافة هشام بن عبد الملك على سفن التجار الراسية في ثغر بيروت تصدى لهم المقاتلة المسلمون بقيادة الأسود بن بلال المحاربي الذي قاد المراكب وردهم واستنقذ ما اخذوا^(٣) ، واستهدفوا بغارة بحرية اخرى ميناء عرض البحر^(٤) ، ليؤكد لهم بهذا الفعل الجهادي قدرة المسلمين على الذود عن سواحلهم وكبح جماح أعدائهم الذين ما اقدموا على مثل هذه الأفعال الا ليردوا بنفس الأسلوب على هجمات المسلمين الموجهة نحو القواعد البيزنطية في قبرص ورودرس وصقلية وسردانية وبقية جزر غرب البحر المتوسط التي أغارت عليها لأكثر من مرة ما بين السنوات ١٠٢ - ١٢٢هـ / ٧٢٠ - ٧٣٩م وقد أستمر الجهد الحربي العربي الإسلامي في غرب البحر المتوسط الى ما بعد سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م^(٥)

(٢) المقرئزي ، الخطط ، مج ١ ، ص ٣١١ .

(٣) المصدر نفسه ، مج ١ ، ص ٣٧٧ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ص ٦٦-٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٦٥ ، ص ٣١٧ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ص ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٥٦ ؛ ابن عذاري ،

البيان المغرب ، ج ١ ، ص ص ٤٩ ، ٥١ ، ٦٥ .

الفصل السادس

الحملة الحربية المباشرة صوب القسطنطينية

الحملة الحربية المباشرة صوب القسطنطينية

يعد توجيه الحملات الحربية الكبيرة المباشرة الى العاصمة البيزنطية واحداً من أهم الأساليب الحربية التي أتبعها المسلمون في حربهم الضروس مع البيزنطيين في العصر الأموي ، ذلك أن بقاء حالة الحرب سجلاً بين الطرفين ، وتواصل التهديدات الرومية للأراضي العربية التي حررت من احتلالهم ، كانت مرهونة ببقاء القسطنطينية بؤرة ومصدراً للخطر البيزنطي الدائم على دار الإسلام ، إذ ليس بالأمر الهين على الإمبراطورية ان تسلم للمسلمين تلك الأقاليم الغنية وترضخ للأمر الواقع ، وهي حقيقة أدركها العرب المسلمون مبكراً وعلى رأسهم الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، الذي سار باتجاه ضرب الروم في عقر دارهم بخطى راسخة ومتتالية أفصحت عن فكراً عسكري ثاقب قد تحلأ به ، كان أولها تأسيس قوى بحرية إسلامية تأخذ عنصر المبادأة من يد الروم بفتح الجزر والمعازل ذات التأثير المباشر والفعال في مجريات الحرب بين الطرفين ، والنفاد بعد ذلك الى المضائق والمسالك المهمة المفضية إلى قلب دولة الروم ، وتأسيس قواعد متقدمة (براً وبحراً) باتجاه القسطنطينية وتدريب المقاتلة المسلمين التدريب اللازم لكل المهام الصعبة بإرسالهم في سلسلة من حملات الصوائف والشواتي التي تعمل في الوقت ذاته على فتح الدروب وعقد المواصلات الرئيسة وسبر أغوارها بغية تيسير الوصول إلى الهدف الرئيس القسطنطينية^(١) .

فحالما استقرت أوضاع الدولة العربية الإسلامية لصالح الخليفة معاوية بن أبي سفيان على مختلف الصعد ، وبعد ان أصبحت القوة البحرية العربية أهلاً لضرب الروم في عقر دارهم عقب سلسلة الانتصارات التي حققها المسلمون على البيزنطيين في عدد من الصوافي والشواتي البرية والبحرية^(٢) في المدة ما بين سنة ٤٣-٤٩ هـ / ٦٦٣-٦٦٩ م ، التي مهدت السبيل بلا ريب أمام الخليفة معاوية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م لإرسال حملة كبيرة إلى عمق بلاد الروم بعد أن رأى ضرورة الإفادة من الأوضاع السياسية

(١) ذكرت المصادر ان معاوية بن أبي سفيان قاد حملة بحرية قصدت مضيق القسطنطينية سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م وعلى الرغم من عدم إفصاحها عن هدف هذه الغزوة فإنه يمكن تفسيرها على إنها عملية استطلاعية بحرية بعيدة المدى لاكتشاف الجزر الحيوية والدروب البحرية الموصلة إلى القسطنطينية . ينظر : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٧٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٢) ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ .

المتردية في الدولة البيزنطية والتي كان يتابعها عن كثب على ما يبدو بعد مقتل الإمبراطور كونستانز الثاني (Constans II) وثورة الطامعين في العرش البيزنطي وعلى رأسهم قائد بند الارميناق (Arminikon) الذي استجد بالخليفة معاوية لمساعدته في مسعاه^(١) ، إزاء ذلك أرسل الخليفة معاوية حملة برية كبيرة بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري لمساعدة الثائر البيزنطي وافتتاح المزيد من الأراضي الرومية ، لكن هذه الثورة سرعان ما أخمدت واستتبّت الأمور نوعاً ما لصالح ابن الإمبراطور القتل الإمبراطور الجديد قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٨)^(٢) ، ومع ذلك بلغت حملة فضالة هذه مدينة خرشنة (Kharsianon) من بند الارميناق وفتحت على يديه بعد ان الحق الهزيمة بالروم عندها^(٣) ، وواصل مسيره مكتسحاً المعازل الرومية التي أمامه حتى بلغ - كما يقال - خلقيونية صاحبة من ضواحي القسطنطينية التي قضى فصل الشتاء فيها^(٤) ، لاعادة تنظيم قواته وانتظار المزيد من الإمدادات ، وتجسد الجهد الحربي المكثف للمسلمين في هذه الأثناء بإرسال قوة أخرى بقيادة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر ومثلها حملة أخرى من أهل مصر بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

ولا شك في ان إنفاذ هذه الحملات البرية والبحرية وعلى أكثر من جبهة في فصل الشتاء كان الهدف منها ضرب الدفاعات البيزنطية في أكثر من مكان على حين غفلة منهم وإحداث المزيد من الإرباك بين صفوفهم ، لاسيما وان الروم ألفوا مهاجمة العرب المسلمين لهم في فصل الصيف بصورة أكثر ، أما ان يهاجموهم في الشتاء تحت وطأة المناخ القاسي لبلاد الروم في البر والبحر فهو ضرب من المخادعة الحربية ونوع من المرن استعداداً للحملات المباشرة على العاصمة البيزنطية لاحقاً ، وفي تلك السنة ٤٩هـ/٦٦٩م وقيل سنة ٥٠هـ/٦٧٠م أُرْدِف الخليفة معاوية حملة فضالة آنفة الذكر

(١) أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط ١ ، دار المكشوف ، (بيروت ١٩٥٥م) ، ج ١ ، ص ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ، ط ٥ ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة ١٩٧٦م) ، ص ص ٤٢-٤٣ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ص ٤٢-٤٣ .

(٣) تسميها المصادر الإسلامية خطأ في التصحيف (جربه) ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٨ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٤) فيليب حتي ، تاريخ العرب مطول ، ترجمة : د. إدوارد جرجي د. جبريل جبور ، دار الكشاف للنشر والتوزيع ١٩٥٠م ، ج ٢ ، ص ص ٢٦٤-٢٦٥ ؛ إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ص ١٥٤-١٥٥ .

بصائفة كبرى استنفر لقيادتها ابنه وولي عهده يزيداً" وارفه بسفيان بن عوف الغامدي الذي سبقه بالدخول مع طلائع الجند إلى بلاد الروم^(١)، فنال المسلمون هناك ((حمى وجدي)) ألحقت ضرراً كبيراً بهم^(٢) ، ونفر مع يزيد عدد من الصحابة (رضي الله عنه) منهم : أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير^(٣) والحسين بن علي ابن أبي طالب (رضي الله عنهم)^(٤) .

والجدير بالذكر ان بعض الرواة المغرضين ذوي الميول المعادية للأمويين – أمثال عوانه بن الحكم – حاولوا الطعن بشخصية القائد – والخليفة فيما بعد – يزيد بن معاوية والتكيل به والخط من سيرته الجهادية من خلال تصويره بصورة المتخاذل الكسول الذي لا يأبه بمصيبة إخوانه المجاهدين في عمق بلاد الروم ويشمت بهم ، بأبيات شعرية مفتعلة على لسانه^(٥) ، ولا ريب ان مثل هذه الراويات قائمة على ادعاء باطل لا يصمد أمام النقد التاريخي ، فما زعمه أولئك الاخباريون من ان يزيد تخلف عن الجند وعاد أدراجه الى دير مرّان^(٦) بعد ان استنفر وعقد له لواء أمر لا يعقل لانه يخالف بطبيعة الحال قواعد تنظيم الجيوش وإرسالها للقتال ويخالف أصول الجهاد التي عرفها المسلمون منذ عهد النبوة ، فكيف أذن يجروّ يزيد على العمل ؟ وأين الخليفة والصحابي الجليل معاوية من هذا السلوك لقائد عقد له اللواء على رأس الجيش الذي يحارب عدواً شديداً المراس كالروم لا ينفع معهم التقاعس والتخاذل في الحرب^(٧) ؟ .

بل ان ما يؤكد بطلان هذا الادعاء هو خروج مجموعة من الصحابة معه وقبولهم الائتثار بأمره ، فلو انهم علموا ان يزيداً ليس بأهل لما أوكل إليه لوقفوا من أمرته موقف

(١) ذكر المسعودي ان الخليفة معاوية اغزا سفيان بن عوف العامري بلاد الروم وأمره ان يبلغ الطوانة فاصيب معه خلف من الناس وقد جعل تاريخ هذه الغزوة سنة ٤٥هـ / ٦٦٥ م . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٣) أبو زرعة الدمشقي ، تاريخ أبو زرعة ، ج ١ ، ص ١٨٨ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٤ ، ص ١١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ١٥٣ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ؛ البلاذري ، انساب ، ق ٤ ج ١ ، ص ٨٦ (رواية عوانه بن الحكم) .

(٦) دير مرّان : بالقرب من دمشق على ثل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة بناؤه بالجص . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦١ .

(٧) فريال بنت عبد الله بن محمود الهديب ، صورة يزيد بن معاوية في الراويات الأدبية دراسة نقدية ، ط ١ ، دار اجاء ، (الرياض ١٩٩٥ م) ، ص ص ٤٧-٤٨ .

المتردد او المستنكر في أقل تقدير - وهو مالم تنشر إليه المصادر - لا بل ان قبولهم السير تحت رايته مؤشر كاف وصريح على كفاءته وقدرته الفكرية والعسكرية والبدنية على تنفيذ تلك المهمة الجهادية المنوطة به .

وعلى كل بعد ان قصدت حملة يزيد بن معاوية هذه مدينة خلدونيا المقر الحربي البري المتقدم الذي اتخذ فضالة لادارة أعمال الجهاد والهجوم على القسطنطينية بعد ان أخضعت المدن البيزنطية في طريقها الى هناك ، وعلى ضفاف مضيق البسفور انضم يزيد بقواته الى قوات فضالة بن عبيد وعبر مياه هذا المضيق الى الشاطئ الأوربي^(١) .

وعلى الرغم من ان أية محاولة جادة لاطباق الحصار الشامل على القسطنطينية توجب على الجيش الإسلامي محاصرتها من ناحية البحر ، فان المصادر التاريخية المتيسرة لم تشر الى دور الأسطول الإسلامي في هذه الحملة ، وهذا ما يجعل الباحث يذهب الى تفسير هذه الصائفة على انها حملة بعيدة المدى استهدفت اختبار الدفاعات البيزنطية في المناطق المحيطة بالعاصمة ، والتمهيد لحملات لاحقة هدفها فرض الحصار التام على القسطنطينية براً وبحراً وباستعدادات برية وبحرية تناسب مثل هذا الفعل العسكري العظيم ، و هذه الحملة كان الهدف منها أشعار البيزنطيين بقوة العرب المسلمين وقدرتهم على دك الحاضرة البيزنطية وانزالها من عليائها . فلو لم تكن هذه الحملة الا تمهيدية وكان القصد منها أطباق الحصار براً وبحراً لاسرع الخليفة معاوية بإرسال المزيد من الإمدادات لها بأسرع وقت ممكن ولمهد المسلمون لها بفتح الجزر والمعازل البحرية الهامة في بحر ايجة وبحر مرمره كما حصل ذلك فيما بعد .

واللافت للنظر انه على الرغم من الأهمية التاريخية لهذه الحملة التمهيدية ، فان المصادر صمتت عن إيراد تفاصيل اكثر عنها من حيث صفحات القتال والعدد والآلات الحربية التي استخدمها الطرفان وطبيعة الدفاعات الرومية والأساليب التعبوية الهجومية التي قابلها بها المسلمون وغير ذلك مما يحتاجه الباحث لتكوين تصور تاريخي شامل عن ما جرى ولكن مع هذا لم يغفل المؤرخون العرب عن ذكر بعض المواقف البطولية التي أبدائها المقاتلة العرب المسلمون ، فقد روي ان القائد يزيد بن معاوية حمل على الروم

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٤٣ ؛ إبراهيم لحمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٥٦ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٤٤ . الجدير بالذكر ان فيليب حتي قدر المسافة ما بين ثغر طرسوس الذي كانت تنطلق منه الجيوش الإسلامية والقسطنطينية بنحو ٤٥٠ ميلاً خطأ مستقيماً . تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ٤٥ ؛ تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

حملة هزمهم فيها واحجرهم في المدينة ، وضرب باب القسطنطينية بعمود حديد كان في يده فهشمه حتى انخرق وقيل ضربه بسيفه^(١) ، وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة في هذه الرواية ، فإنها تحمل دلالات أكيدة على هذا الفعل البطولي وسواه ما هو الا إشعار للروم بمقدار قوة العرب المسلمين وجرأتهم على ضربهم في قلب إمبراطوريتهم لما وقر في نفوسهم من رغبة بالجهاد في سبيل الله تعالى .

وقيل انه لما اشتد القتال بين الطرفين لم يزل عبد العزيز بن زرارة الكلابي – أحد المقاتلة الذين رافقوا يزيد في حملته تلك – يتعرض للشهادة فلم يقتل حتى حمل على الروم وانغمس بينهم فشجروه برماحهم حتى قتلوه ((فبلغ معاوية قتله فقال لأبيه (زرارة) : هلك والله فتى العرب فقال ابوه لمعاوية : ابني ام ابنك ؟ فقال : ابنك فأجرك الله فقال :

فان يكن الموت أودى به واصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه فأما صغيراً وأما كبيراً^(٢)

والمتتبع لحادثة وفاة الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه)^(٣) يجد إشارة واضحة الى مقدار ما بلغه العرب المسلمون من قوة - في هذه المرحلة التاريخية - وتمكن من اخذ زمام الأمور والمبادرة من يد عدوهم ، الى الحد الذي جعل القائد يزيد بن معاوية يهدد ملك الروم فيما إذا أمر بنبش قبر الصحابي الجليل أبي أيوب (رضي الله عنه) أن لا يدع نصرانياً في ارض العرب الا قتله ولا كنيسة الا هدمها ، مما اضطرهم للعدول عن ذلك والمحافظة عليه^(٤) .

رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية وآثروا الانسحاب نحو الشام بعد ان لقوا ما لقوا من شدة المقاومة من جانب الروم^(٥) ، ولكن مع ذلك فقد اثبتوا للبيزنطيين ان

(١) البلاذري ، انساب ، ق ٤ ج ١ ، ص ٨٦ ؛ الأصفهاني ، الاغانى ، ج ١٧ ، ص ٢١٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٥٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٣) اختلف المؤرخون في سنة وقوعها وقد شيع تشييعاً مهيباً أثار انتباه الروم وملكهم حيث دفن عند أسوار القسطنطينية . ينظر : ابن أبي شيبه ، مصنف ابن أبي شيبه ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ ، احمد بن حنبل ، المسند ، ج ٥ ، ص ٤١٩ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٦ ، ص ٢٨-٢٩ .

(٤) ينظر : ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٢ ، ص ١١٦-١١٨ ؛ ج ٦ ، ص ٢٨-٢٩ . ينظر ايضا : الحاكم ، محمد بن عبد الله ابو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٥٠ هـ) ، المستدرک على الصحيحين ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٠ م) ، ج ٣ ، ص ٥١٨ .

(٥) وصف أحد الجند الذين رافقوا يزيد تلك المقاومة بقصيدة موجهة الى الخليفة معاوية رواها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٧ ، ص ١٢٥-١٢٦ .

عاصمتهم ليس بعيدة المنال عن المسلمين الذين جاست قواتهم الطرق والمسالك المؤدية إليها وضربت بقبضة من حديد الدفاعات البيزنطية المقامة على طول تلك الطرق^(١) . وإتماماً لجهودهم آنفة الذكر ، رأى المسلمون بوصفهم أصحاب المبادرة في تلك المرحلة التاريخية ان يضربوا الحصار المباشر والمطبق على القسطنطينية براً وبحراً ، ولكن أمراً كهذا كان يوجب عليهم وضع المزيد من القوات المهاجمة لاضعاف دفاعات البيزنطيين وأحداث الخلل والإرباك في صفوفها ، ولاتمام السيطرة على الطرق والمضايق البحرية المفضية الى العاصمة البيزنطية ، مثلما تحتم عليهم في الوقت نفسه تشديد سيطرتهم على المدن والحصون المهمة الواقعة على الدروب البرية المؤدية الى العاصمة ، وضرب الدفاعات البيزنطية التي شهدت المزيد من التعزيزات بإقامة بنود جديدة (ثيمات Themes) في القرن السابع الميلادي ، على اثر حملة يزيد ابن معاوية سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م آنفة الذكر^(٢) .

لذا بادر الخليفة معاوية بن ابي سفيان ومن اجل فرض الحصار الى إرسال عدة حملات بحرية استهدفت فتح عدد من الجزر ذات الأهمية ((السوقية)) والتعبوية على مجريات الحرب مع الروم حينذاك ، فقد افتتحت حملة بحرية بقيادة جنادة بن أمية الأزدي جزيرة رودس مرة ثانية وبصورة ناجزة سنة ٥٢هـ / ٦٧٢م وفرض العرب المسلمون سيادتهم المطلقة عليها عن طريق توطين الجند فيها واقامة الترتيبات الدفاعية اللازمة لهم هناك^(٣) ، وفتحت سفن الامويين عدداً من القواعد البحرية في سواحل ليكيا (Lycia) وكيلىكيا (Cilicia) وأزمير^(٤) وعدداً من الجزر الايجية المهمة مثل كوس وخيوس^(٥) ، ولجل ضمان المزيد من الأمن للقوات الإسلامية الزاحفة باتجاه العاصمة تمكن الأسطول الإسلامي من افتتاح واحدة من أهم الجزر في بحر مرمرة وهي جزيرة (Cyzicus) او كما تسميها المصادر العربية باسم (ارواد) سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م على القائد جنادة بن أبي أمية الأزدي^(٦) ، وإنهاءً لأي أمل للروم في استعادتها اسكنها الخليفة معاوية الجند

(١) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٥٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٨-١٦٤ . ينظر الفصل الرابع من هذا البحث ص .

(٣) Ostorogrosky , Opcit , P.124 .

(٤) زاكية محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٣٣ .

(٥) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٩ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٥١ ، ابن اعثم ، الفتوح ، ص

Ostorogrosky , Opcit , P.124 .

ص ١٤٥-١٤٦ .

المسلمين متخذاً بذلك اياها قاعدة متقدمة لانطلاق الحملات الحربية باتجاه القسطنطينية ،
لا سيما وإنها تتحكم بخطوط المواصلات القادمة والذاهبة الى القسطنطينية.

وبهذا أمن العرب المسلمون ظهر قواتهم المرسله لحصار القسطنطينية ، لاسيما
وان جزر قبرص ورودرس - وكوس وخيوس وغيرها من القواعد البحرية الرومية في
سواحل آسيا الصغرى الغربية - أصبحت تحت السيادة العربية التامة مما حرم الروم من
هذه القواعد المهمة ، وفي الوقت ذاته غدت القواعد الرومية في سواحل آسيا الصغرى
التي تعرف بولاية كبير هايوت (Kibyrhaeots) ^(١) - تحت تأثير قوة الأساطيل
الإسلامية الراسية في قبرص ورودرس ورصدهم المستمر ، واستكمل المسلمون الجانب
البحري من خطتهم المتضمن إحكام السيطرة على كل الجزر المتحكمة بالممرات البحرية
الموصلة الى القسطنطينية بافتتاحهم جزيرة كريت (اكريطيش) سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م على
يد القائد جنادة بن أبي أمية الازدي ايضاً ^(٢)، تلك الجزيرة الحيوية التي تقع في قلب البحر
المتوسط والتي تعد بمثابة موضع القفل المسيطر على بحر ايجة وممره من جهة والبحر
المتوسط من الجهة الأخرى ، وتعد جسر اتصال بين شبه جزيرة المورة (البولوبونيزو)
وآسيا الصغرى وبين الشام ومصر وشمال أفريقيا وصقلية واليونان وإيطاليا ولقربها من
هذه السواحل أصبحت قاعدة بحرية مهمة تهدد بخطرها السواحل الأخرى إن أصبحت
بيد أحد الأطراف المتصارعة في البحر المتوسط وهي تمثل السور الذي يحمي الحدود
البيزنطية في أي وقت ^(٣) .

وعلى الرغم من الأهمية التاريخية لهذا الهجوم الإسلامي على قلب العالم البيزنطي
العدو الأكثر خطراً على دار الإسلام ، فان المصادر التاريخية العربية لم تقدم أية
تفصيلات او إشارات عن الكيفية التي حصل فيها الاستنفار وتحشيد القدرات المادية
والبشرية اللازمة لذلك ، لا بل انها لم تشر الى الجانب البري من هذا الحصار وما هي
الدروب والمسالك التي سلكها المقاتلة العرب في أثناء سيرهم براً نحو القسطنطينية ؟
وكيف تم لهم تأمينها ؟ وما هي المدن التي افتتحوها في أثناء زحفهم ؟ وماهي الصعوبات

^(١) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ١١٣ ؛ بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٨ .

^(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٣ ؛ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣٥١ .

^(٣) Pendelburg , J . D . S , The Archaeology of Crete , (Landon 1939) PP . 1-16

طه خضر عبيد، أمارة اكريطش العربية الإسلامية ٢١١-٣٥٠هـ، مجلة التربية والعلم، العدد ٢٣ لسنة

١٩٩٩م، ص ٦٨.

المناخية والتضاريسية والدفاعية التي اعترضت مسيرهم ؟ وهل ان صمت المصادر عن تقديم إجابات عن هذه التساؤلات وسواها ناجم عن عدم وجود روايات بهذا الخصوص ممن عاصروا الحرب ؟ - وهو أمر غير معقول - أم إن العرب بحملاتهم التمهيدية آنفة الذكر قد احكموا سيطرتهم الفعلية على المدن والطرق المؤدية الى العاصمة البيزنطية الى الحد الذي جعل مسيرهم الى هناك ميسراً وآمناً ؟ كل هذه التساؤلات لم تقدم لها المصادر إجابات شافية او حتى إشارات موجزة تفيد في تكوين صورة تاريخية متكاملة عن عمل حربي عظيم كهذا ، بل ان ما ركزت عليه المصادر هو إيراد أسماء قادة الصوائف والشواتي البرية والبحرية في المدة ما بين سنة ٥٤-٦٠هـ/٦٧٣-٦٧٩^(١) ، وعلى الرغم من عدم تحديد وجهة هذه الحملات الصيفية والشتوية بالضبط والهدف الأساسي لكل واحدة منها من قبل المصادر التاريخية المعتمدة ، الا انها عدت مؤشراً حقيقياً على النشاط الحربي المكثف ضد البيزنطيين طيلة هذه السنين ، والذي تزامن مع الحصار البحري الذي ضربه الأسطول الإسلامي على القسطنطينية فارضاً الحصار عليها لمدة سبع سنين ٥٤-٦٠هـ/٦٧٣-٦٧٩م بعد ان اتخذ من جزيرة سزيكوس (Cyzicus) (أرواد) في بحر مرمرة قاعدة متقدمة لإرسال الجند المحاصرين للقسطنطينية وامدادهم بما احتاجوا إليه من ميرة وسلاح ورجال ولقطع الطريق على السفن الرومية القاصدة فك الحصار عن عاصمتهم^(٢) .

وقد تكون هذه السلسلة المتواصلة من الصوائف والشواتي البرية والبحرية هي الأسلوب التعبوي المنظم الذي تم بواسطته فرض الحصار - وان لم تشر الى ذلك المصادر صراحة - وهو ما يتواءم مع ما ذكرته المصادر من ان العرب المسلمين كانوا ينطلقون من قاعدتهم المتقدمة سزيكوس (Cyzicus) (أرواد) في فصل الصيف فيفرضوا الحصار ويناوشوا الروم القتال ، ثم ينفقوا عائدين إليها في الخريف ومقدم الشتاء اتقاءً منهم للظروف المناخية القاسية السائدة في قلب بلاد الروم ، ثم يعاودون الحصار مجدداً في مقدم الربيع ومطلع الصيف ، وقد استمروا على هذا الحال لمدة سبع سنين دون

(١) ينظر مثلاً : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٧-٢٧٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨-٣٠٩ ، ٣١٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٩٥ ، ٥٠١ ، ٥١٤ ، ٥٢١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ٤٨ ،

الدخول في معركة برية او بحرية حاسمة تسفر عن تحقيق النصر الناجز لأي من الطرفين حتى اقبلهم الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩ م وعقد معاهدة صلح مع الروم أمدها ثلاثون عاماً^(١) .

وعلى الرغم من عدم تقديم المصادر لأية تفاصيل أخرى عن ما جرى في أثناء هذا الحصار الطويل ، فان ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) أشار الى ان القائد عبد الله بن قيس الفزاري^(٢) (ت ٥٣هـ) هاجم القسطنطينية في إحدى المرات بسفن سماها (المحرقات) فلقى في مسيره إليها ((بمحرقاته محرقات الروم على الخليج فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزمت محرقات المسلمين محرقات الروم وجاءوا بالأسارى من الروم فضرب أعناقهم يزيد بن معاوية والروم تنتظر إليهم ...))^(٣) .

ولا ريب في ان القائد يزيد بن معاوية قصد بفعله هذا إيقاع الرعب في قلوب الروم وبث الذعر والاضطراب في صفوفهم ، مما يؤدي الى أضعاف روحهم المعنوية ، وفقدانهم الثقة بقيادتهم وفي أسلحتهم ، فأسلوب إثارة الرعب في نفس العدو يعد من الأساليب الهامة في مجال الحرب النفسية ، و هذه الرواية فيها إشارة واضحة الى استخدام العرب لتقنية متقدمة في ميدان الحرب البحرية – في وقت مبكر كهذا من زمن المجابهة مع الروم – وهي استخدام نوع من أنواع السفن الحربية التي ترمي بالمقذوفات النارية على سفن الأعداء محدثة الحرائق والدمار فيها باثّة الفزع والاضطراب بين صفوفها في اقل تقدير ، وقد جاء بمثل هذه الرواية الامام الحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المكي المتوفى سنة ٢٧٧هـ/ ٨٤٢م في كتابه المسمى السنن بروايتين مهمتين لم تردا فيما سواه من المصادر التي تسنى الاطلاع عليها ، جاء في الأولى منها ((أن جنادة

(١) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، Ostorogrosky , Opcit , P . 124 , Vasiliev , P214 ، ص ١٥٠ ، احمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص ٣١-٣٣ .
(٢) عبد الله بن قيس الفزاري : عبد الله بن قيس الحارثي حليف بن فزارة امير البحر في صدر الاسلام كان مقيماً بالشام توفي سنة ٥٣هـ . الزركلي ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، (بيروت د.ت) ج ٤ ، ص ١١٤-١١٥ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٢ ، ص ١١٩ . هناك نوع من السفن الحربية استخدمت في هذا العصر تدعى الحراقة وجمعها حراقات او حراريق هي عبارة عن سفن كبيرة تملأ بمواد قابلة للاشتعال تطفو فوق سطح الماء ولا يمكن إطفائها وتحمل هذه السفن المجانيق لقذف هذه المواد . ينظر محمود عباد محمد الجبوري ، أسلحة الحصار عند العرب حتى نهاية العصر العباسي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٨٦م ، ص ١٠٢ .

ابن أبي أمية الأزدي وعبد الله بن قيس الفزاري وغيرهما من ولاية البحر من بعدهم كانوا يرمون العدو من الروم وغيرهم بالنار ويحرقونهم هؤلاء هؤلاء هؤلاء ((وروى عن مشايخه)) عن عبد الله بن قيس الفزاري انه كان يغزو على الناس في البحر على عهد معاوية وكان يرمي العدو بالنار ويرمونه ويحرقهم ويحرقونه وقال : لم يزل أمر المسلمين على ذلك^(١) .

ومن هذا يبدو أن العرب المسلمين كانوا قد استخدموا من الوسائل والأساليب ما يكافئ وسائل وأساليب عدوهم ، أثناء المجابهة ، وفيه إشارة ضمنية الى مدى نضج العقلية العسكرية العربية الى الحد الذي مكن القوات البحرية الإسلامية من ابتداء سلاح ناري يكافئ ما يسمى بـ ((النار اليونانية Greek Fire))^(٢) إن لم يكتشفوا سرّ صناعتها وهو ما ليس بالإمكان الجزم به لعدم توفر الأدلة في اقل تقدير .

وان من بين الأسباب التي دفعت بالمسلمين الى رفع الحصار والانسحاب هو طول مدة الحصار التي استمرت قرابة سبع سنوات حسبما تواتر في المصادر بحرب سجال لم تنته بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين ، تحت وطأة الظروف المناخية القاسية لبلاد الروم ، لاسيما في فصل الشتاء وربما تحت طائلة نقص التموين والسلاح والذخيرة في الشتاء ذلك الفصل الذي كانت تضطر فيه القوات العربية الإسلامية الى الجنوح صوب جزيرة (أرواد) سزيكوس لاعادة تنظيمها وانتظار انقضاء البرد ووصول الإمداد إليها عبر البحر ، مما كان يمنح الفرصة المناسبة لتعزيز دفاعاتهم والتزود بما يقيتهم ويعزز صمودهم من الأقاليم والبنود الرومية الغنية الأخرى ، فضلاً عن حصانة القسطنطينية طبيعياً^(٣) ومتانة أسوارها الى جانب طول خطوط الإمداد ما بين مقدمات الجيش العربي الإسلامي المحاصر و مقراته الخلفية في بلاد الشام او في الثغور على اقل تقدير تلك الخطوط التي تكون عرضة لخطر هجمات مقاتلي الثيمات البيزنطية كان هذا عاملاً آخر جعل مهمة المسلمين في ديمومة الزخم الهجومي اكثر صعوبة وعناء ، كما ان عدم إحكامهم الحصار

^(١) سعيد بن منصور ، السنن، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

^(٢) النار الإغريقية : هي مزيج معقد من تراكيب متعددة أهمها الجير الحي والنفط والكبريت وعندما تشتعل مكوناتها وتطلق بواسطة القذافات الانبوبية اليدوية (الزرافات) وتلامس الماء لا تنطفئ بل يشتد اشتعالها سائرة فوق الماء مع الرياح نحو سفن العدو فتحرقها . ينظر : محمود عباد محمد الجبوري ، أسلحة الحصار عند العرب ، ص ص ٧٩-٨٠ ، ١٦٦-١٦٧ .

^(٣) ينظر ص من هذا البحث .

على المدينة بصورة تامة ومطبقة - لأسباب لم توضحها المصادر - إذ بقيت على اتصال بالبحر الأسود والطرق البرية المؤدية إليها مفتوحة ((لذا فإنها كانت تحصل على كل ما تحتاج إليه من المؤن والإمداد^(١))) ، كان هذا عاملاً آخر يضاف الى ما سبق ، علاوة على المقاومة العنيفة التي أبدتها الروم في الدفاع عن رمز بقاء دولتهم القسطنطينية ، وقد يكون لطول زمن الحصار وانعكاساته السلبية على نفسية الجند المسلمين ، لاسيما أهل البحر منهم ؛ بسبب مجريات الحرب وإفرازاتها في ظل الظروف المناخية المعروفة هناك ، كان لها اثر في دفع الخليفة معاوية الى سحبهم ورفع الحصار عن القسطنطينية .

لم يزل فتح العاصمة البيزنطية هدف الخلافة الأموية الأسمى ومحور سياستها الحربية ، فقد استثمرت الخلافة الأوضاع السياسية المتردية في الإمبراطورية البيزنطية في العقدين الأخيرين من عهد الأسرة الهرقلية منذ سنة ٦٩٥م وما بعدها ، ولا سيما في المدة التي شهدت عودة جستين الثاني الى الحكم وما صاحبها من اضطرابات كبيرة وعلى مختلف الأصعدة^(٢) ، ففي هذا الوقت كانت الدولة العربية الإسلامية تشهد استقراراً ملحوظاً في الأوضاع السياسية وازدهاراً بيناً في الأحوال الاقتصادية رافقه نشاط كبير في الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٦٩٤-٧٠٥م^(٤)) الذي أثبتت له ولأسلافه سنوات المجابهة السابقة ان شن الحرب مباشرة على القسطنطينية هو الأسلوب الأكثر فاعلية والأجدى في صراع العرب المسلمين مع الروم ، لاسيما وان حملات الصوائف والشواتي البرية والبحرية التي لم تنقطع لم تضع حداً للخطر البيزنطي الذي ما زال يهدد كيان العرب المسلمين السياسي ، لذا أخذت مسألة مواصلة الزخم الهجومي التعرضي الكثيف على الأراضي البيزنطية حيزاً من نشاط الخليفة الوليد بن عبد الملك الحربي ، ممهداً بعدد من الصوائف والشواتي للهجوم الحاسم حالما تستكمل الخلافة متطلباته كافة ، وقد أوكل مهمة قيادة هذه الحملات الى خيرة أولاده من ذوي القدرات الحربية وقادته ذوي الكفاءات القيادية ، تلك الحملات التي كان الهدف

(١) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٩٦ .

(٢) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ص ١٦٧-١٧٨ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تاريخ الخلفاء : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، (مصر ١٩٥٢م) ، ص ٢٢٣ .

منها استطاع أهم الطرق المؤدية الى القسطنطينية أيسرها وتأمين تلك الطرق بفتح العديد من الحصون والمعقل الرومية الواقعة عليها وتوجيه الضربات المركزة والقوية الى التجمعات الدفاعية الرومية في البنود البيزنطية^(١) .

فقد كان فتح مدينة الطوانة (Tyana) الحصينة سنة ٨٨هـ / ٧٠٩م اهم هذه الأعمال الحربية ؛ ذلك لأنها تعد بوابة الطريق بين الشام والبسفور وهو الطريق الذي تسلكه الجيوش الإسلامية في زحفها نحو القسطنطينية^(٢) ، وهي من أهم معقل كبادوكيا تقع الى الجنوب من كيليكيا عند ممر طوروس^(٣) ، إذ وجه الخليفة الوليد إليها أخاه مسلمة وابنه العباس على رأس جيش كثيف أطبق الحصار عليها لمدة تسعة أشهر - حسب رواية ميخائيل السرياني^(٤) - ، لاقوا خلالها فضلاً عن المقاومة الشديدة من قبل القوات الرومية المتحصنة بالمدينة صعوبات مناخية قاسية بسبب تساقط الثلوج بغزارة أدت الى تهتك الأبنية واصابة الجند بالأمراض وفقدانهم الكثير من دوابهم^(٥) بسبب المناخ القارس ، إلا أنهم بعد طول صبر وشدة حصار تمكنوا من فتحها ودحر الروم في سنة ٨٨هـ / ٧٠٩م وتكبيدهم خسائر كبيرة^(٦) .

تزامنت الاستعدادات العربية الإسلامية لشن الهجوم الشامل على القسطنطينية مع النشاط الحربي الواسع النطاق المذكور سابقاً ، حتى طرقت أخباره مسامع الحكومة البيزنطية التي أوفدت سفارة برئاسة دانيال (Danial) حاكم مدينة سينوب الى دمشق ، كان هدفها المعلن عقد هدنة بين الطرفين ومقصدها الخفي التجسس وتقصي أخبار الهجوم

(١) ينظر الصوائف في سنة ٨٦-٩٦هـ في : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٤٠٩ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ ، ٤٤٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٣٩٢ ، ٤٨٣ ، ٤٦٩ - ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٧ ، ص ١٥٥ ، ج ٢٦ ، ص ٤٤١-٤٤٢ ، ٤٤٥-٤٤٦ ، ج ٥٨ ، ص ٣٠-٣١ .

(٢) ينظر :خريطة رقم (١٢) .

(٣) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٧٣ ؛ نبيه عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في التاريخ السياسي والحضاري ، جامعة دمشق ، د.ت ، ص ١٣٣ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٤) زاكبة محمد حسن ، ميخائيل السرياني ، ص ١٣٩ .

(٥) ينظر وصف مسلمة بن عبد الملك لتلك الصعوبات : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٤٤٣-٤٤٤ . ووصف أحد جنده الحال بأبيات من الشعر : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٤٧ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٤٤١-٤٤٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤١٧ ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣ ، زاكبة محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٣٩ .

الإسلامي المرتقب وبيان طبيعة ومستوى تحضيراته ، وقد عادت هذه البعثة بأخبار تؤكد ما عزم عليه المسلمون ، لذا كان رد فعل الإمبراطور البيزنطي أن ابلاغ أهل القسطنطينية بذلك ، أمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وإن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته ، وملاً المخازن الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح والمواد الضرورية للمدافعين تحسباً لأسوء الاحتمالات واخذ بتجديد أسوار المدينة ، لاسيما الجهات المطلّة منها على المياه ، ووضع على الأسوار البرية أسلحة دفاعية وعدة حربية لازمة لصد المهاجمين^(١) .

أما في الجانب العربي الإسلامي فإن وفاة الخليفة الوليد سنة ٩٦هـ/٧١٤م لم تكن لتوقف جهود المسلمين الرامية الى ضرب العاصمة البيزنطية التي تمثل مكن الخضر الرومي على الدولة العربية الإسلامية وممتلكاتها ، بل إن الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٨م) اخذ باتمام تلك التحضيرات والاستعدادات مستغفراً المسلمين ، حيث لبث نداء القبائل العربية^(٢) في اغلب أرجاء الدولة جهاداً في سبيل الله تعالى ، وبعد حشد المقاتلة اعد الحصار الحربي صيفاً وشتاءً آتته من أسلحة الحصار المعروفة كالمجانيق و (النفط)^(٣) وغير ذلك ، ومن ثم استشار أهل الدراية والخبرة بأمور الحرب من المسلمين في الخطة التي بإمكان الجند اعتمادها في هجومهم وحصارهم المرتقب مع الروم ، فأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دون القسطنطينية من المدن والرساتيق^(٤) والحصون حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قواتها ، وأضاف موسى بن نصير قائلاً : (فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد^(٥))) ، وفي رواية ثانية أشار موسى على الخليفة بأن يوجه مسلمة ((بمن معه فلا يمر بحصن إلا صير عليه عشرة الاف رجل حتى يفرق

(١) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٨٤ .

(٢) ينظر : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ، ج ١١ ، ص ١٩٨ ، ج ١٦ ، ص ١٧٩ ، ج ٢٢ ، ص ٣٣٥ ، ج ٢٤ ، ص ٣٦٨ ، ج ٢٧ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٩٢٢-١٩٢٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨٦ .

(٣) مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٢٤-٢٥ .

(٤) الرساتيق : جمع رستاق وهي كلمة فارسية وهو كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨٢ .

نصف جيشه ثم يمضي بالباقي من جيشه حتى يأتي القسطنطينية^(٦))) ، وفي ذلك إشارة مهمة إلى ضرورة ضرب الخطوط الدفاعية الرومية بإسقاط الحصون والقلاع ذات المواقع التعبوية الحيوية ووضع الحاميات المناسبة عندها ، ليكون الجند المحاصرون في مأمن من مغبة التفاف الروم عليهم وقطع طرق عودتهم وجعلهم في موقف دفاعي حرج ، وحرمان أهل القسطنطينية من إمدادات أهل هذه المدن والرساتيق ، لاسيما وإنها المعين الذي يرفد العاصمة بما تحتاج إليه ، فضلاً عن ذلك تأمين خطوط المواصلات والإمداد ما بين المقاتلة المسلمين المحاصرين وقواعدهم في دمشق والثغور المتقدمة في أقل تقدير ، لأجل ضمان ما يحتاجون إليه من توجيهات ومساعدات ، إذا ما اضطروا الى ذلك .

وعلى الرغم من اعتراض القائد مسلمة على ما جاء في مشورة موسى بن نصير ، وإيثاره ترك تلك القلاع والحصون وإصراره على فتح العاصمة عنوة على أمل أن تستسلم بعد ذلك ما دونها من الحصون^(١) ، فإنه رجع الى قول موسى فيما صنع بأرض الروم^(٢) وهو ما يوافق المنطق العسكري الصحيح ، وفيه تفسير آخر لعلية اصطحاب هذا العدد الكبير من الجند الذي بلغ زهاء (١٢٠) ألف مقاتل على ارجح الروايات^(٣) والذي بالغت بعض المصادر كثيراً فيه^(٤) .

ولمساندة الحملة البرية أبحرت من السواحل الشامية حملة عربية مؤلفة من (١٨٠٠) سفينة حربية من القواعد البحرية الإسلامية في الشام ومصر وأفريقية (تونس) بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري قاصدة القسطنطينية لأتمام الحصار عليها براً وبحراً^(٥) .

(٦) الإمامة والسياسة (منسوب) ابن قتيبة الدينوري ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨٢ .

(٢) الإمامة والسياسة (منسوب) ابن قتيبة الدينوري ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٣) الذهبي ، الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، دول الإسلام ، ط ٢ ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ١٣٦٤هـ ، ج ١ ، ص ص ٤٥-٤٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٦ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ص ١٩٨٩-١٩٩٠ .

(٤) الإمامة والسياسة (منسوب) ابن قتيبة الدينوري ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، زاكيه محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٤١ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ؛ المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٣٥ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٥٠ ، ص ٣٣٧ ، ج ٦٦ ، ص ١٥٩ ، إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ط ١ ، بولاق ١٣١٤هـ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ص ١٠٣-١٠٤ .

والجدير بالذكر أن المسلمين كانوا قد مهدوا لهذا الهجوم بعدد من الصوائف والشواتي البرية والبحرية التي اختبروا بها الدفاعات الرومية ، ووجهوا إليها ضربات أحدثت - بلا شك - الإرباك والتخريب فيها ، وفتحت عدداً من الحصون ذات المزايا التعبوية^(١) ، وهي رد على محاولة الروم الفاشلة لضرب الاستعدادات الحربية البحرية في الساحل الشامي سنة ٩٦هـ/٧١٥م حين اعد الإمبراطور انستاس (Anastasius) حملة في جزيرة رودس لمهاجمة الثغور البحرية الشامية ، ولكن ثورة حدثت ضده هناك أدت الى عزله وتولية ثيودسيوس (Theodosius) - بعده وفشل تلك المحاولة^(٢) ، بل إن حملات المسلمين تلك لم تقطع إذ تزامنت مع حصار مسلمة بن عبد الملك للقسطنطينية سنة ٩٨هـ/٧١٧م ، حيث بعث الخليفة سليمان من مقره في دابق ابنه داود وبصحبة أحد القادة على رأس جيش افتتح حصنين من حصون الروم^(٣) .

انطلقت حملة مسلمة البرية من منطقة التحشد في مرج دابق سنة ٩٨هـ/٧١٦م - ٧١٧م قاصدة قلب الروم وانضم إليه فيها جيش من المسلمين الذين كانوا هناك^(٤) ، وسلك طريق مرعش^(٥) وافتتح مدينة (الصقالبة^(٦)) الواقعة ما بين دابق وعمورية في جبال طوروس وهجم الشتاء ، فانحرف مسلمة بحملته الى مدينة تدعى افيق^(٧) وشتا بها ، وقد استبعد محمود شيت خطاب ان تكون هذه المدينة هي ذاتها التي أشار إليها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) في معجمه ، إذ ليس من المعقول أن يقفل القائد مسلمة عائداً بجيشه الجرار ليقضي الشتاء في الشام ثم يستأنف مسيره مجدداً في داخل بلاد الروم ، والراجح انها بلدة بسهول كيليكيا شمال جبال طوروس ، إذ تكون هذه السهول في الشتاء أدفاً من

^(١) ينظر أحداث سنة ٨٦-٩٨ هـ : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٤٢١ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٢-٥٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

^(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٢٤٥-٢٤٦ ؛ بنية عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٤ .

^(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٧ ، ص ١٥٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

^(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨١ .

^(٥) ينظر: خريطة رقم (١٢) .

^(٦) الصقالبة : جبل حمر الالوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزرج اعالي جبال الروم . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٧ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

^(٧) افيق : قرية من حوران في طريق الغور (الاردن) . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

قمم الجبال التي تغطيها الثلوج وقتذاك^(٨) وبانقضاء الشتاء استأنف القائد مسلمة وجنده المسير نحو الشمال موغلا في اقليم نحو القسطنطينية حتى بلغ مدينة عمورية عاصمة البند الأناضولي (Anantolikon) فحضر الحصار عليها^(٩) .

وفي عمورية تم الاتفاق بين القائد مسلمة وليو الايسوري^(١) ((ليو بن قسطنطين المرعشي^(٢))) قائد البند الأناضولي - ذلك القائد الطموح الذي كان يتربص الأحداث السياسية المضطربة في العاصمة البيزنطية على أمل الانقضاض على العرش - إذ رفع مسلمة وجنده الحصار عن عمورية مقابل ان يساعدهم ليو في مسيرهم الى القسطنطينية وفي فتحها^(٣) ، وبهذا الاتفاق يكون ليو قد أمّن ظهره من الخطر الإسلامي الزاحف وكسب حليفاً آخر يعينه في مسعاه للظفر بالعرش ، يضاف الى حليفه الآخر ارتاباسدوس (Artabasdos) قائد البند الأرمني (Arminikon) الذي اتفق معه على الثورة على الإمبراطور ثيودسيوس الذي كان يسانده جند ثغر الاوبسكيون (Opsikion) ، وبالفعل سار ليو الى بند الاوبسكيون والقي القبض على الإمبراطور البيزنطي وحاشيته في نيكوميديا (Nicomedia) وواصل سيره حتى بلغ كريسوبولس (Chrysopolis) ، ثم جرت المفاوضات بين الطرفين وانتهت بتنازل الإمبراطور ثيودسيوس عن العرش مقابل ضمان سلامته وأسرته، وامضى ما تبقى من حياته راهباً في إفسوس^(٤) وتم في آذار ٧١٧م تتويج ليو امبراطوراً في كنيسة القديسة صوفيا^(٥) .

والجدير بالذكر ان المسلمين كانوا قد فتحوا في زمن الإمبراطورين السابقين لليو كلا من ساردس (Sardis) وبرغاموم (Pergamum) الواقعتين بمحاذاة الشواطئ الأليجية^(٦) ، وقد يسرّ اتفاقهم - آنف الذكر - مع ليو باتجاه القسطنطينية ، إذ لم تشر

(٨) محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك بن مروان فاتح شطر الأناضول ومحاصر القسطنطينية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ٢٨ ، سنة ١٩٧٧م ، ق ١ ، ص ١٣١ .

(٩) مجهول ، العيون والحقائق ، ج ٣ ، ص ٢٤-٢٥ .

(١) عن ما قيل في اصل ليو ينظر : السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٦ ، نبيه عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤١ .

(٢) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٤١ ؛ مجهول ، العيون والحقائق ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٣) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٨٦-١٨٨ .

(٤) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٧ ، Ostorogrosky , Opcit , PP 155-156 .

(٥) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٧ ؛ Vasiliev , Opcit , P236 .

المصادر الموثوقة الى أية مقاومة تذكر كانت قد اعترضت مسيرهم ما بين عمورية والقسطنطينية .

وقد اعتمدت القوات العربية الإسلامية سياسة السير بخطى متأنية في مسيرها لحصار القسطنطينية هذه المرة لكي تتجاوز - قدر الإمكان - الهفوات السابقة ، مستغرة قرابة خمسة اشهر - ما بين تولية ليو العرش في القسطنطينية وبين أطباقها الحصار عليها في آب سنة ٩٨هـ/٧١٧م - في استكمال استعداداتها الحربية وتدعيم خطوط مواصلاتها وتأمين قواعدها الخلفية ، وفي ٩٨هـ/آب ٧١٧م وصلت القوات البرية العربية الى ابيدوس^(١) - ابدس في المصادر الإسلامية^(٢) - عند (الخليج) أي مضيق الدردنيل ، إذ التقى هناك القائد مسلمة وجنده بالأسطول الإسلامي البالغ عدد سفنه (١٨٠٠) سفينة مختلفة الأنواع^(٣) ، والذي كان يسير بخطى منسقة تتزامن مع سير الحملة البرية ، وهناك غدا المسلمون على مسافة قريبة من القسطنطينية قدرت بحدود ميل عربي (أي كيلومترين)^(٤) وتم نقل القوات البرية تلك بكامل تجهيزاتها الى الضفة الأوربية^(٥) تلك القوات التي زحفت على ضفاف بحر مرمرية وحاصرت القسطنطينية براً من جهة تراقيا في الشمال ، في الوقت الذي تمكن فيه الأسطول العربي الإسلامي من سدّ المنافذ البحرية الجنوبية واحكام سيطرته عليها^(٦) .

وقبل تناول ما جرى من أحداث أثناء الحصار لابد من الإشارة الى أن القسطنطينية كانت قد تميزت بمزايا سوقية وتعبوية مهمة مكنتها من الدفاع والمطاوله قد منحها إياها الموقع الجغرافي الذي شيدت عليه ، إذ بدت وكأنها مثلثة الشكل^(٧) ، جانب منها ذي تخوم عالية يطل على بحر مرمرية والبسفور لا تستطيع الأساطيل إنزال قواتها فيها ، وآخر يطل على خليج او ميناء القرن الذهبي ، ويمتد على طول كل من الجانبين

(١) فيليب حتي، تاريخ سورية، ج ٢، ص ٥٠؛ اومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٥ .

(٢) مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ٢٦ .

(٣) Vasiliev , Opcit , P236 .

(٤) محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ص ١٣٥-١٣٦ .

(٥) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٧ ، ص ١٩٤ ؛ محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، مجلة الهلال ، السنة ٣٤ ، يناير ١٩٢٦م ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ .

(٦) توفيق البرو ، الدولة العربية الكبرى صدر الإسلام والخلافة الأموية ، دار القلم العربي ، (حلب ١٩٧٣م) ، ص ٣٤٨ .

(٧) ينظر: خريطة رقم (١٣) .

سور واحد ، أما الجانب الثالث الذي يقع في الجهة الغربية (تراقيا) والذي يصلها بأوروبا برأ فكان قد تم تحصينه بزواج من الأسوار المنيعة طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرية إلى شاطئ القرن الذهبي مدعمتان بأبراج الحراسة العالية ، ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث أشبه ((بالمتراس)) وخندق واسع بمثابة الخط الدفاعي الأول عن المدينة وللصور الخارجي عدة أبواب^(٨) ، أما ميناء القرن الذهبي فكان يغلق بواسطة السلاسل الحديدية الطويلة (المآصر) ، والتي كانت تحول دون دخول السفن المعادية الى هذه المرفأ البحري المهم ، وقد أشار صاحب ((التاريخ السعدي^(١))) إلى أن هذا التدبير الدفاعي قد تم العمل به منذ أيام الإمبراطور قسطنطين الأكبر مؤسس المدينة ، وبهذا فقد تهيأ للروم أسباب الدفاع المديد عن عاصمتهم سواء أكانت أسبابا طبيعية أم بما أضافوه من تدابير دفاعية كالأسوار وما شابه ذلك من وسائل التحصين .

أما خطة المسلمين فقد كانت قائمة على إطباق الحصار بشدة على المدينة والوقوف أمام أسوارها بثبات وعزم مهما تكن مناعة الدفاعات الرومية حتى يستسلم الروم بعد ان تقطع عنهم جميع سبل ووسائل إدامة صمودهم برأ وبحراً ، وهذا ما اعد له الخليفة سليمان بن عبد الملك الأعداد المناسب من الناحية الإدارية والتسليحية يوم ندب المقاتلة واخرج لهم ألا عطيات والأرزاق ، وانفق في جهازهم الأموال الكثيرة وجمع لهم آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط^(٢) وسوى ذلك مما لزمهم من أسلحة الحصار وعدده^(٣) ، وقد أشار ميخائيل السرياني - في رواية وإن غلبت عليها صفة المبالغة - الى حجم هذه التجهيزات ومقدارها بقوله أن الخليفة سليمان قد ملأ خمسة آلاف سفينة بالجند والطعام وجمع اثني عشر الف عامل وستة الاف جمل وستة الاف حمار ليحملوا زاد

(٨) عبد السلام عبد العزيز فهمي ، فتح القسطنطينية ، دار الكتاب العربي ١٩٦٩م ، ص ص ٤٨-٤٩ ؛ توفيق البرو ، الدولة العربية ، ص ٣٤٨ .

(١) القس ادي شير ، التاريخ السعدي ، Turnhout / Belgque 1981 ، ج ١ ، ص ٢٨١ . عن جغرافية القسطنطينية ينظر : ابن خردادبه ، المسالك والممالك ، ص ص ١٠٤-١٠٥ ؛ ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ص ١١٩ وما بعدها ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ص ٤٩-٥٠ .

(٢) كان يرمى من قبل النفاطين او رماة النفط الذين اصبحوا من الصنوف الثابتة في الجيش العربي الإسلامي وكانوا يلبسون ثوباً خاصاً غير قابل للاحتراق يطلق عليه (لباس النفاطين) . محمود عباد الجبوري ، أسلحة الحصار عند العرب ، ص ١٦٧-١٦٨ .

(٣) مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٢٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨٢ .

الجمال وحمل على الجمال السلاح والمنجنيقيون ((وأعد لهم مؤونة لسنين كثيرة^(٤))) ، فضلاً عن ذلك فقد اهتم القائد مسلمة بتموينهم تمويناً كافياً يتناسب وتوقعات المهمة المنوطة بهم ، وقد ورد في المصادر الإسلامية أن القائد مسلمة أمر كل فارس أن يحمل على ظهر دابته مدين^(٥) من طعام حتى يأتي به القسطنطينية ، فأمر بالطعام فالقى في ناحية مثل الجبال^(١) في تدبير احترازي من جانبه لحصار قد يطول حتى حلول الشتاء مصحوباً بقتال الروم ومساجلتهم ، ووجه بضرورة الاقتصاد في إنفاق المقاتلة موادهم التموينية - بوصفها أحد أسباب قوتهم ومطاولتهم الرئيسة - وأوصى الجند بالاعتماد على موارد بلاد الروم الغذائية بقوله ((أغيروا في أرضهم وازدروا^(٢))) ، واستكمالاً لمتطلبات الحرب وأشعاراً للروم بعزم المسلمين هذه المرة على فتح القسطنطينية حتى وإن طال المقام عند أسوارها ، أقام مسلمة لجنده معسكراً محصناً^(٣) أسمته بعض المصادر الإسلامية^(٤) ((مدينة القهر)) وبحلول الشتاء سنة ٩٨هـ - كانون الأول ٧١٧م ورداً من المسلمين على تحديات المناخ القارس هناك عملوا بيوتاً من الخشب أمضوا شتاءهم فيها^(٥) .

بدأت أولى صفحات معركة الحصار التي سماها الأستاذ محمود شيت خطاب ((صفحة المبادرة)) بشن هجوم مرتين من قبل المسلمين أملاً في مباغتة الروم ، إذ حشد مسلمة في الأولى أربعة آلاف مقاتل وكان اتجاه هجومه منطقة ((باب الذهب) وفي

(٤) زاكية محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٤١ .

(٥) المد : من المكايل الإسلامية يختلف من بلد إسلامي الى آخر والمد السوري يساوي (٢.٨٤) كغم . هنتس ، فالترهنتس ، المكايل والأوزان الإسلامية ، ترجمة : كامل العسلي ، الجامعة الأردنية ، (عمان ١٩٧٠م) ، ص ص ٧٤-٧٧ .

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ؛ مسكويه ، ابو علي مسكويه الرازي (ت ٤٢١هـ) ، تجارب الأمم ، حققه وقدم له : د. ابو القاسم إمامي ، دار سروش للطباعة والنشر ، (طهران ١٩٨٧م) ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤٩٧ ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٣) اومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ ؛ محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٨ .

(٤) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .

(٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤٩٧ .

الثانية حشد ثلاثة الاف مقاتل ولكن لم ينجد في هذين الهجومين^(٦) ، وذلك لمناعة الأسوار ومهارة المدافعين الروم ووفرة الآت الدفاع من قاذفات النار والأحجار وغيرها^(٧) ، لذا عول القائد مسلمة وجنده على أخذها بالحصار الصارم المستمر ، فأقام مسلمة على القسطنطينية قاهراً لأهلها^(٨) مانعاً إياهم من كل مرفق براً وبحراً قدر الإمكان .

أما عن دور البحرية الإسلامية في صفحات معركة الحصار فان خطة المسلمين كانت تقضي بتعاون الأسطول مع القوات البرية وتنسيق العمل فيما بينه وتقديم الإسناد البحري لها الى جانب المهمة الأساسية وهي غلق المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة البيزنطية على الإمداد والمؤن وحصار أسوار المدينة أيضاً ، لذا سيطر الأسطول الإسلامي على مدخل مضيق البسفور الجنوبي بغية قطع الاتصال بين القسطنطينية من جهة وبين بحر مرمرة وبحر ايجه من جهة ثانية ، ثم انتهر أمير البحر (لعله سليمان بن معاذ الانطاكي أحد قادة الحملة) فرصة هبوب رياح جنوبية وبعث شطراً من أسطوله للسيطرة على مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول أية إمدادات تأتي القسطنطينية من البحر الأسود ، لاسيما ان شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التي تمون العاصمة بالغالل^(٩) ، وسارت السفن الإسلامية سيراً وثيداً على الرغم من الريح المواتية بسبب التيار البحري الذي يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور منحدرًا الى بحر مرمرة ، ثم غيرت الرياح اتجاهها فجأة شأن الأحوال الجوية في تلك المنطقة ، فاختل سير السفن لسوء الأحوال الجوية ورداءة الملاحة في هذه المياه ، إذ إن السفن الصاعدة ضد التيار لا تستطيع الاعتماد على تسخير الرياح في جانبها زمنًا طويلاً ، وهذا ما حصل للسفن الإسلامية إذ سارت ببطء شديد جرّاء التيارات المائية ثم لم تلبث الرياح ان غيرت اتجاهها فوق الاضطراب بين السفن التي ارتطمت بعضها ببعض وفقدت توازنها ، وفي ظل هذا الإرباك بعث الروم سفنهم التي أخفوها في خليج القرن الذهبي ، فأتمت حلقة الاضطراب في الأسطول الإسلامي بتوجيهه مقذوفاتها النارية الى سفن المسلمين حتى

(٦) محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ١٣٧-١٣٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٨ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٤ ، ص ٤٩٧ .

(٩) إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٨٩ .

حالت دون تنفيذهم لهذا الشطر من خطتهم^(٢) بغلق المدخل الشمالي للبسفور وبذلك لم تحاصر القسطنطينية حصاراً محكماً من تلك الناحية ، ثم اعتزم أمير البحر العربي ان ينتقم لتلك الهزيمة الجزئية بنصر كامل فحشد امنع سفنه وهياً كلاً منا بمائه من خيرة جنده شجاعة وأهبة ، وزحف على أسوار المدينة وبذل جهداً عنيفاً لاقتحامها ، ولكن الإمبراطور ليو الثالث (Leo III) كان على حذر وأهبة فرد المسلمين المهاجمين بسيل من النار الحامية وسحب أمير البحر المسلم أسطوله المرابط في الشاطئ الأوربي الى خليج سوستيان^(١) .

وفي مقابل هذا الزخم الهجومي البري - البحري الإسلامي كان الإمبراطور ليو الثالث (Leo III) الذي برزت مواهبه الحربية في الدفاع عن مدينته - قد اعدّ لامر الحصار عدته بأن كدس المواد الغذائية في مدينته وأمر كل أسرة أن تخرن من القمح كمية تكفي لمدة لا تقل عن سنتين وشحن أسوارها بالمقاتلة والأسلحة الدفاعية الذين بذلوا كل جهودهم لمنع المسلمين من اقتحام الأسوار ، واغلق ليو ميناء القرن الذهبي بسلسلة حديد (مأصرة) حالت دون دخول سفن المهاجمين المسلمين وحمت السفن البيزنطية الراسية خلفها من خطر الأسطول العربي الإسلامي المهاجم^(٢) .

وما لبث الشتاء أن حل (٩٨هـ / ٧١٧-٧١٨ م) ببرده القارس وتلوجه المتساقطة بكميات كبيرة ولمدة طويلة ، حتى غدا بمثابة خط دفاعي آخر عول عليه الروم في صمودهم إزاء الحصار العربي الإسلامي ، هذا البرد الذي فرض على الطرفين تحديد حركتهم وفعالياتهم القتالية^(٣) مؤقتاً ، واعتصم العرب بالصبر والمطولة والصمود أمام أسوار القسطنطينية وقساوة المناخ ، مؤكدين بذلك ان دافعهم الأول وراء هذه الحرب الضروس هو الجهاد في سبيل الله تعالى كبتاً لاعداء الإسلام الروم الذين لا سبيل للخلاص من خطرهم المتواصل ألا بفتح عاصمتهم ورمز بقاءهم كما فتحت المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية من قبل أيام الخلفاء الراشدين سنة ١٤هـ / ٦٣٥م، ولو

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ، مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

(١) ينظر : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، محمد عبدالله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٨ .

(٢) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ١٠٤ ؛ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ١٨٨ ، محمود

Vasiliev , Opcit , P236 .

شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ٤٤١ ،

(٣) اومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ .

لم يكن ألا الجهاد لاكتفوا بما فتحوا من المدن الرومية وبما نالوا من غنائم وعادوا أدرأجهم قبل أن يحل بهم ما حل ، لذا فقد جابهوا برد الشتاء بإقامة معسكر لهم من الخشب والخنادق الشقية التي انتقوا بها الجليد المتساقط^(٤) ، ويبدو أن بقاء المسلمين على هذه الحال حتى انقضاء الشتاء وهم بأعداد كبيرة ، أدى الى نفاذ مؤناتهم^(٥) إذ ليس لهم من مأكّل ولا لدوابهم من مرتع تحت وطأة البرد الشديد في ذلك الشتاء ، الا ما ادخروه ، أما ما ذهبت إليه روايات الإخباريين والقصاص من أن الإمبراطور البيزنطي ليو (Leo) قد خدع القائد مسلمة وكاد به وجعله يحرق ما جمع من مواد غذائية وعلف لجنده ولركائبهم او جعله يسلمه الى ليو في رواية أخرى^(١) ، فهي محض أساطير ليس ألا ، أو روايات مدسوسة القصد منها التقليل من شأن هذا الجهد العسكري الكبير الذي تكرر اكثر من مرة في العصر الأموي ، وهي محاولة للانتقاص والخط من السفر الجهادي الخالد لواحد من ابرز رجالات البيت الأموي وهو الأمير المقاتل مسلمة بن عبد الملك ، وإظهاره بمظهر البليد الذي يقع فريسة سهلة لحيلة ساذجة يطليها عليه الإمبراطور ليو ، وهذا ما يجانب الحقائق التاريخية ، إذ ليس من المعقول أن يسلم قائد مثل مسلمة مواد جيشه التموينية والتي تعد أهم عوامل صموده لعدوه او يحرقها بهذه السهولة وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويبيده زمام المبادأة فيذهب بعيداً تاركاً مؤن جيشه نهباً للعدو ، كما إن الحجج التي قدمها ليو لمسلمة – التي تناقلها الاخباريون – لاتقنع حصيماً ، إذ كيف يستسلم العدو لجيش إذا أحرقت المواد التموينية – أحد أهم مصادر قوته – لذلك الجيش ، ولكن الذي هو اقرب الى المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الأرزاق الكافية لإدامة حصار طويل ، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع ، ولا يمكن اعتبار إجماع المؤرخين وتناقلهم هذه الرواية حجة قاطعة على صحتها ، فالخلف ينقل عن السلف ، فلا يستبعد ان يفترى أحد الإخباريين فرية على الأمويين يسمعون مؤرخ فيرونها فيأتي من بعده فينقل تلك الرواية المفتراة^(٢) ، فلم يكن القائد مسلمة بن عبد الملك ليضع جهداً عظيماً

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٥) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(١) مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ص ٢٨-٢٩ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٩٨٩-١٩٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ص ١٨١-١٨٢ .

(٢) محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ص ١٣٨-١٣٩ .

مهد له المسلمون بسيل من الصوائف والشواتي وحشدت له الخلافة مواردها وقدراتها المادية والبشرية أفنى عدة خلفاء حياتهم الجهادية في سبيل إنجازهم لم يكن ليضع كل هذا بقرار منفرد وهو المقاتل الذي عجمت عوده الحروب ومنحته سنوات المجابهة الخبرة الغنية عن الروم ومكايدهم وأساليبهم القتالية .

وعلى العموم فقد الحق برد الشتاء ونقص الميرة الضرر بالمسلمين الصامدين أمام أسوار القسطنطينية المنيعة حتى ((أكلوا الدواب أصول الشجر والعروق والورق^(٣))) في إشارة من المصادر الى مقدار ما مسّهم من قرح وضُر^(١) ، وأنزلت بهم أمراض الشتاء الفتك فمات منهم خلق كثير^(٢) ، وقد حال الشتاء وسوء الأحوال المناخية بينهم وبين ان يمدّهم الخليفة سليمان بن عبد الملك بما احتاجوا إليه من مدد وميرة^(٣) ، أما الروم فكانوا في حال افضل من حال المسلمين تظلمهم سقوف بيوتهم وتجنهم أسوار مدينتهم العصية^(٤) ، وقد منحهم محدودية الفعاليات الحربية في هذه الأثناء فرصة التفاوض مع البلغاريين (البرجان) الذين قطنوا مناطق غرب القسطنطينية والبلقان على أمل كسبهم حليفاً يسهم في ضرب القوات الإسلامية المحاصرة من الجبهة الغربية ويخلخل الصفوف التي تعبأت بها ، أملاً في تخفيف وطأة الحصار^(٥) .

وقد ذكر ابن عساكر^(٦) وابن كثير^(٧) ان ليو كاتب ملكهم يستتصره على المسلمين فعمد ملك البلغار الى المكيدة بالمسلمين مستفيداً من عوزهم الى الميرة والمواد التموينية بأن أرسل إليهم التجار من حملة الميرة واردفهم بالعساكر - بقصد الخديعة وشن الهجوم عليهم - ((بعدة الحرب من الرجال والسلاح والعجل فيها الرجال تجر تلك العجل البراذين^(٨))) ، فتولى مهمة التصدي لهم أحد قادة مسلمة بن عبد الملك ويدعى عبيدة بن

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣١ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٦ ، ص ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(٢) اومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٤٦-١٤٧ ؛ Ostorogrosky , Opcit , P157 .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٣١ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٤) اومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ .

(٥) زاكية محمد رشدي ، ميخائيل السرياني ، ص ١٤٢ ؛ Ostorogrosky , Opcit , P157 .

(٦) تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ص ١٥٤-١٥٥ .

(٧) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩١ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ص ١٥٤-١٥٥ ، ج ٢٢ ، ص ص ٤٤٢-٤٤٣ .

قيس العقيلي وابنه شراحيل ، فاستحر القتل بين الطرفين حتى كتب النصر في النهاية للمسلمين بعد ان قدموا أعداداً كبيرة من الشهداء^(٩) .

ومما ساعد على إلحاق المزيد من الأذى بجيش المسلمين ان الروم - بحلول الربيع سنة ٩٨هـ / ٧١٨م - استخدموا النار الإغريقية (Greek Fire) استخداماً ماهراً ضد سفن المسلمين وقواتهم البرية بعد ان كانوا بموقف المهاجم في بداية معركة الحصار ، فقد قدم الى مسلمة أسطول يحمل الأقوات من ثغر الإسكندرية يتألف من أربعمئة سفينة تحرسها سفن حربية فدخل البسفور وعسكر في ((كالوس ارجوس)) ثم جاء على أثره أسطول آخر من أفريقية يضارعه في الحجم ورسا في شاطئ ((بتتيا))^(١) ، وقد حاول مسلمة بن عبد الملك ان يستثمر تفوق المسلمين البحري ويشن هجوماً على الروم يعيد الأمور الى نصابها باستعادة المبادرة مرة ثانية ، ولما اقترب الأسطول الإسلامي من المرفأ الرومي كانت سفن ليو بانتظاره فغمرتهم بمقذوفاتها النارية - الى جانب ما كانت تلقيه الأسلحة الدفاعية من على أسوار القسطنطينية - بالشكل الذي الحق الدمار والإرباك بين سفن المسلمين بفعل المقاومة الرومية البرية - البحرية العنيفة وتيارات البسفور القوية لذا انسحبت ناجياً القليل منها^(٢) ، وكانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم في جعبة مسلمة استعمله لاستعادة المبادرة من الروم ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح^(٣) .

وفي ضوء هذا الحال قدّر مسلمة بن عبد الملك انه فقد ركناً أساسياً من قوته بضعف قواته البحرية وعجزها عن أداء واجبها المنوط بها في إطباق الحصار على القسطنطينية بحراً وشن الهجوم على المدينة كلما وابت الفرصة وفي توفير الدعم والإسناد للقوات البرية العربية المرابطة براً عند أسوار العاصمة البيزنطية ، لذلك عول على تشديد الحصار البري ولم يعتزم الانسحاب حتى أخذت تتمزق سراياه التي كان يجردها طلباً للأقوات ولضرب العدو في أسباب قوته واستنفذ ما لديه من مؤن ودواب^(٤) .

^(٩) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٣٨ ، ص ص ١٥٤-١٥٥ ؛ ج ٢ ، ص ص ٤٤٢-٤٤٣ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ص ٤٦٠٢ ، ٤٦١٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٩١ .

^(١) محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٩ .

^(٢) محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٩ ؛ محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ص ١٤٥-١٤٦ .

^(٣) محمود شيت خطاب ، مسلمة بن عبد الملك ، ص ١٤٦ .

^(٤) محمد عبد الله عنان ، حصار العرب للقسطنطينية ، ص ٣٧٩ .

إزاء كل تلك الظروف القاهرة ومنها صمود الروم ونجاحهم في الدفاع عن مدينتهم الحصينة لم يكن أمام مسلمة من خيار الا الانسحاب ، على الرغم من مكابرتة وإصراره على عدم التخلي عن هدفه الأسمى ، لاسيما بعد وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك في صفر سنة ٩٩هـ / ٧١٨م، الذي اقسم ان يبقى رابطاً في دابق حتى يفتح جنده القسطنطينية^(٥) وتولي عمر بن عبد العزيز الخلافة من بعده فكان له حرصه الشديد على سلامة الجند على مختلف الجبهات ولأنه كان متابعاً لما يحدث للمقاتلة على جبهة القسطنطينية^(٦) ، لذا وجه إليهم بالطعام والأكسية والخيول العتاق مع قوة قدرها أربعة آلاف مقاتل بقيادة عمرو بن قيس الكندي كانت مهمتها على ما يبدو الى جانب حماية وإيصال هذه المساعدات ستر وتأمين انسحاب المسلمين من حول القسطنطينية ، وحث من له قريب هناك ان يبعث إليه بما يحتاج وكتب إليهم يأمرهم بترتيب أوضاعهم والانسحاب صوب قواعدهم في الشام^(١) ، ولم يكن هذا الموقف من الخليفة عمر بن عبد العزيز ناجماً عن عدم رغبته في مواصلة الفتوح ومجاهدة الروم^(٢) ، بل هو قرار صائب وحصيف مبنى على استقراء متأن لما بلغه وضع المسلمين العسكري جرّاء الحصار وسوء الأحوال .

والجدير بالذكر ان المصادر التاريخية الإسلامية لم تشر الى مصير الأسطول الإسلامي الذي كان له دور مشهود في معركة الحصار ، لا من قريب ولا من بعيد ، بل إن بعض الدراسات التاريخية الحديثة إشارات الى ان هذا الأسطول قد دمر بصورة شبه نهائية في آخر معركة له عند أسوار القسطنطينية وبفعل النار اليونانية والتيارات البحرية لم يعد منه الا خمس سفن الى القواعد البحرية الإسلامية في الشام اعتماداً على رواية

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٤٦ ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ابي عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ) ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، نسخها وصححها ،

احمد عبيد ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٩٥٤م ، ص ص ١٣٢ ، ١٢١

(١) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٢ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٤٣٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٥٣ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤٦ ، ص ٣١٩-٣٢٠ ، عماد الدين خليل ، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ط ٢ ، الدار القومية للطباعة ، (بيروت ١٩٧١م) ، ص ص ٨٧-٩٠ .

(٢) ولهاوزن ، يوليوس ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة : يوسف العش ، مطبعة الجامعة السورية ،

(دمشق ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) ، ص ٢١٨ .

المؤرخ البيزنطي ثيوفانتس^(٣)، ولا ترقى هذه الرواية الى أي مستوى من الصحة ، إنما هي رواية استهدفت تعظيم وتمجيد الانتصار البيزنطي غير المتوقع على المسلمين وإظهار ليو الايسوري بمظهر القائد المنقذ للعالم البيزنطي و المسيحي عموماً من سيادة العرب المسلمين ، فلا يعقل ان يكون أسطول كبير العدد قوي التسليح كالأسطول الإسلامي ومهما كانت قوة السفن البيزنطية والظروف المناخية القاسية ان ينجو منه خمس سفن لاغير وهو الذي قهر البحرية البيزنطية وافقدها هيمنتها في البحر المتوسط .

ولم تشر المصادر البيزنطية ولا الإسلامية الى قيام الروم بتعقب القوات العربية الإسلامية المنسحبة من حصار القسطنطينية ، وفي هذا إشارة صريحة الى حالة الإعياء والإنهاك التي وصلت إليها القوات الرومية الى الحد الذي جعلها تكتفي بانسحاب المسلمين وابتعاد خطرهم المطبق على العاصمة البيزنطية .

على الرغم من ان العرب المسلمين لم ينجحوا في فتح القسطنطينية كنتيجة آنية لاتباع هذا الأسلوب من أساليب المجابهة الحربية ، فأنهم قد حققوا عدداً من النتائج على المدى البعيد ، ذلك أنهم أصبحوا هم أصحاب المبادأة وانتقلوا انتقالاً كبيراً" من حالي الدفاع والاستتار بالتحصينات الدفاعية والتصدي للهجمات البيزنطية الى مرحلة الدفاع السيّار والفعّال أي الى مرحلة الحرب التعرضية ، وابلغوا الروم بذلك ان عاصمتهم التي كانت قوية وعصية بدفاعاتها البرية والبحرية الطبيعية والمستحدثة لم تعد بعيدة المنال عن العرب المسلمين وان لهم القدرة على معاودة مهاجمتها كلما اقتضت ضرورات المجابهة الحربية وتهيأت الأسباب ، وبهذا الأسلوب نقل العرب المسلمون ميدان الحرب الفعلية الى قلب بلاد الروم حتى جعلوهم في موقف دفاعي حرج بعد ان كانوا من قبل هم أصحاب القرار في ذلك والمسلمين محض مدافعين ، أنهى العرب المسلمون بذلك أية بارقة أمل للروم في معاودة احتلال ما حرره من ارض غنية خضعت لاحتلالهم رداً من الزمن ، وابلغوا الروم وسواهم من الأعداء بأنهم أمة محاربة لا يثنيها عن أهدافها طول المسافات ولا صعوبات الأرض والمناخ ، باعثهم الأساسي في ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى والعزم على القضاء على مكامن الخطر الذي يحيق بدولتهم ومنه الخطر البيزنطي المتجسد بالقسطنطينية رمز صمود دولة الروم .

^(٣) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ٥١ ؛ اومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، أسد رستم ، الروم في سياستهم ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

ان اندفاع المقاتلة المسلمين بأعداد وعدة كبيرة ، وفي بيئات وتضاريس متنوعة لمسافات بعيدة في بلاد الروم يحمل مؤشرات على تطور قدرات المسلمين العسكرية في العصر الأموي الى الحد الذي مكنهم من جعل الإمبراطورية البيزنطية وهي اعتي وأقوى الكيانات السياسية في العالم آنذاك بموقف المدافع الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام ضرباتهم الموفقة .

أساليب المجابهة الفكرية

من القراءة المتأنية للشذرات التاريخية المتفرقة في طيات المصادر يبدو ان المجابهة بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين قد تعددت أساليبها ووسائلها ، لاسيما وان الحرب كانت سجلاً وطويلةً بين الطرفين ، إذ لم تقتصر على الأساليب آنفة الذكر ، بل تحدى الروم المسلمين حتى في معتقداتهم ومدرجاتهم الفكرية بإرسال البعثات والسفارات الى دار الإسلام التي تحمل خطابات ورسائل متعددة المقاصد والغايات ، قد تبدو لأول وهلة وكأنها مؤشرات على وجود علاقات سلمية طيبة وصلات ثقافية حسنة بين الخصمين بين الحين والآخر ، إلا ان القراءة المتمعنة لمتون تلك الرسائل - وكما أوردتها المصادر التاريخية المتيسرة - والتبصر في أسلوب صياغتها ولغتها الاستفزازية ، تكشف مقدار تحديات التي أضمرها أو أظهرها الروم للعرب المسلمين على الصعيد الفكري والعقائدي ، التي أوجبت عليهم الرد عليها بالمثل رداً حازماً وشفافاً انتصاراً لعقيدتهم الإسلامية وكتباً لعدوهم .

لقد تحدى الروم المسلمين فكرياً منذ العصر الراشدي وفي أكثر من مناسبة او خطاب متبادل بين الطرفين ^(١) ، وتكرر هذا الامر لأكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة في العصر الأموي ، إذ أوردت المصادر التاريخية والأدبية إشارات من هذا القبيل دالة على ذلك فقد ذكر أن ملك الروم واطنه قسطنطين الرابع كتب الى الخليفة معاوية بن أبي سفيان يستفسر عن بعض المسائل العقائدية بأسلوب استفزازي ينم عن تحد واضح للعقل الإسلامي بقصد إظهاره بمظهر العاجز أمام تساؤلاتهم التي تعكس في الوقت ذاته قناعة وأدراك تام من قبلهم بصحة الرسالة الإسلامية بوصفها خاتمة الرسالات السماوية وان مسألة ذكرها في الإنجيل حقيقة لا تخفى مهما حاولوا إنكار ذلك ، فقد سأل ملك الروم متحدياً الخليفة معاوية بقوله : ((اخبرني عما لا قبله له ، وعمن لا عشيرة له ، وعمن سار به قبره وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم وعن شيء ونصف شيء ولا شيء ، وابعث ألي في هذه القارورة ببزر كل شيء ^(٢))) ، فلما قرأ الخليفة معاوية هذا الكتاب انتدب عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما) ليحتال في أجابته فقال عبد الله : ((أما ما لا قبله له فالكعبة وأما من لا أب له فعيسى وأما من لا عشيرة له فآدم وأم من سار به قبره فيونس (نبي الله عليه السلام) وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم : فكبش إبراهيم وناقّة ثمود وحية موسى وأما شيء فالرجل له عقل يعمل

(١) ينظر : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤ ، ص ص ١٥٤ - ١٥٨ ، ج ٤٧ ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ١٩٩ ؛ المبرد ، الكامل في اللغة ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، ابن عبد ربه ، العقد

الفريد ، ج ٢ ، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

بعقله واما نصف شيء فالرجل ليس له عقل ويعمل بعقل ذوي العقول واما لا شيء فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره ، وملاً قارورة ماء وقال : هذا بزر كل شيء ^(١))) فنعت بهذه الإجابة الى الخليفة معاوية الذي أرسلها بدوره الى ملك ، فلما وردت إليه إجابة الخليفة معاوية وهي تحمل رداً "حازماً" وقول "فصلاً" فيما سأل وتحدى به المسلمون ، أبدى إعجابه وتعززت هيبة الإسلام وقيادته في نفسه .

وتكرر هذا النمط من أنماط التحدي البيزنطي الذي أستخدم الرد عليه بما يناسبه في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) وتحديداً في سنة ٨٨هـ/٨٠٦م ، فقد ذكرت المصادر أنه لما هدم الخليفة الوليد كنيسة دمشق لحاجته الى توسيع المسجد الجامع في دمشق كتب إليه ملك الروم متحدياً "إياه وآملاً" أن يعدل الوليد عما هم به ((انك قد هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فان كان حقاً فقد أخطأ أبوك وان كان باطلاً فقد خالفته ^(٢))) وفي رواية ثانية ((٠٠ وان كان أبوك مصيباً فقد أخطأت أنت ^(٣))) ، فاحتار الخليفة الوليد في إيجاد إجابة شافية يرد بها على هذا الكتاب ، فكتب الى الأمصار مستجداً بأهل العقل والدهاء من المسلمين ، أملاً في أن يحضى بإجابة تغنيه ، فأنبأ لهذا الامر الفرزدق همام بن غالب (ت ١١٠ هـ) الشاعر المعروف فقال : ((أنا أبو فراس اصلح الله الأمير قد رأيت رأياً فأن يك حقاً فخذ وان يك خطأ فدعه وهو قول الله عز وجل)) (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهما شاهدين . ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ^(٤)))

قال: فكتب به الخليفة الوليد إلى ملك الروم فلم يجبه على ما كتب فأنشأ الفرزدق يقول :

فرقت بين النصارى في كنائسهم	والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم معاً في مصلاهم وواجههم	شتى اذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه	أهل الصليب مع القراء لم تنم
فهمت تحويلها عنهم كما فهمما	إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم

(١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ١٩٩ ؛ المبرد ، الكامل في اللغة ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، ابن عبد ربه ،

العقد الفريد ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ١٩٩ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ١٩٩ طبعة دار احياء التراث العربي ، (بيروت - م)

(٤) سورة الأنبياء آية ٧٨ .

أولادها واجتزاز الصوف بالعلم
عن مسجد فيه يتلى طيب الكلم
خير بنين ولا خير من الحكم^(١)

داود والمك المهدى إذ حكما
فهمك الله تحويلاً لبيعهم
والله ما من أب في الناس نعلمه

فكانت هذه الاجابة صفة قوية لملك الروم الذي لم تشر المصادر الى اية ردة فعل
كانت قد صدرت عنه أزاء ذلك .

أساليب المجابهة الاقتصادية

أتسمت علاقات العرب المسلمين مع الروم البيزنطيين بسمة العداء المستحكم والمتواصل في العصرين الراشدي والأموي على حد سواء ، ولكن مع هذا فقد وردت في المصادر التاريخية العديد من الإشارات الدالة في مضمونها على وجود نوع من الصلات الاقتصادية (التجارية) بين الطرفين ، هذه الصلات التي قد نشطت بين الحين والآخر عند عقد الهدنة بينهما أو حين تفتت المناوشات الحربية ، وقد أكد ذلك هاملتون كيب Gibb إذ رأى أن حالة الحرب الرسمية لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات التجارية والمجاملات السياسية ، إذ إن العلاقات التجارية جعلت تبادل المجاملات بين الدولتين أمراً ممكناً ، حتى حين كانت الدولتان في حالة حرب^(٢) ، فمنذ العصر الراشدي كان هناك نوع من العلاقات التجارية ليس على الصعيد الرسمي ، بل على مستوى الأفراد ، كما افادتنا بذلك المعطيات التاريخية^(٣) ، فقد روي عن سعيد بن المسيب (ت ٩٢هـ) أن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا يتجرون في بحر الشام الى بلاد الروم ومنهم طلحة بن عبيدالله

(١) الفرزدق ، همام بن غالب (ت ١١٠ هـ) ، ديوان الفرزدق ، دار صادر - بيروت ، (بيروت ١٩٦٠ م) ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) هاملتون كيب ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة : د. إحسان عباس وآخرون ، دار العلم للملايين ، (بيروت ١٩٦٤ م) ، ص ٧٤ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ؛ يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣ هـ) ، الخراج ، دار الحديث ، (بيروت ١٩٩٠ م) ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ، ٤٣١ .

وسعيد بن زيد (رضي الله عنهما)^(١) وفي الوقت نفسه كان تجار الروم يقدون إلى دار الإسلام وهذا ما أكدته رواية أخرى نقلها أبو يوسف (ت ١٨٢ هـ) مفادها ((ان أهل منبج - قوم من أهل الحرب - وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ((دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا)) (أي تأخذ منا العشر) قال : فشاور عمر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك ، فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب^(٢) ، ومن هذه الرواية يظهر ان الدولة العربية الإسلامية ومنذ وقت مبكر أدركت القيمة الاقتصادية للتجارة كمورد حيوي مهم .

ويبدو أن الأمر قد استمر على ما هو عليه في العصر الأموي ، ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان كان التجار المسلمون يترددون بتجارتهن الى بلاد الروم ويقصدون القسطنطينية نفسها وقد لاقت بضائعهم رواجاً وإقبالاً لدى الرسميين في الدولة البيزنطية^(٣) ، وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك زعم الرواة والخباريون ان الخليفة الوليد أرسل الى ملك الروم جستنيان الثاني حين أراد بناء وتوسيع مسجد المدينة المنورة سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م يعلمه بما عزم عليه ويطلب منه أن يعينه في أمر البناء ، فبعث إليه بكميات من الذهب والفضة لهذا الغرض ، وعلى الرغم من نفي هذه الرواية وسواها من قبل الدكتور صلاح الدين المنجد^(٤) ببحث تاريخي علمي رصين قائم على جمع الروايات المتعلقة بهذه الحادثة من مختلف المصادر ومقارنتها من حيث السند والمتن مع بعضها واستقراءها حتى خلص الى انها محض روايات مفتعلة ليس الا ، على الرغم من هذا كله فأقل تقدير تحمل دلالات أخرى على ممارسة العرب المسلمين لهذا النوع من الصلات الاقتصادية مع الروم

(١) ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٥ ، ص ٥٧ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص . العشر مبلغ من المال كان يفرض على تجارة أهل دار الحرب إذا بلغت قيمتها نصاباً محدداً ويقوا في دار الإسلام في وقت محدد أيضاً وهي أشبه بالتعريف الكمركية في الوقت الحاضر كنوع من سياسة التعامل بالمثل إزاء تجار دار الحرب : طه خضر عبيد ، ضرائب التجارة في الدولة العربية الإسلامية ٢ - ٤ هـ / ٨ - ١٠ م ، مجلة التربية والعلم ، العدد ٢٧ ، لسنة ٢٠٠٠ م ، ص ص ١٤٠ - ١٤٢ .

(٣) ينظر : المبرد ، الكامل في اللغة ، ج ٢ ، ص ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٦ ، ص ص

١٨٥ - ١٨٧ ، ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٢٤ ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤) د . صلاح الدين المنجد ، بين الوليد بن عبد الملك وجوستنيان الثاني ، مجلة العلوم ، السنة الثانية العدد الخامس

، أيار ١٩٥٧ م ، ص ص ٢٥ - ٢٦ . الجدير بالذكر ان هذه الرواية اعتمدت خطأ من قبل بعض الباحثين

المحدثين على أساس انها حقيقة تاريخية مسلم بها دون الرجوع الى هذا البحث او الاستفادة من أسلوب كتابته في

مقارنة الروايات ودراساتها من حيث المتن والسند في اقل تقدير . ينظر : شيماء سالم عبد الصاحب ، التجارة

الخارجية في العصر الأموي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ٢٠٠١ م ، ص ص ٦٧ - ٦٨ .

البيزنطيين ، تدفع الطرفين الى ذلك - على الرغم من حالة العداء المستحكم والمتواصل بينهما - الحاجة الى بضائع وصادرات خصمه ، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا ان مصر - على سبيل المثال - كانت قبل تحريرها من سيطرة الروم إهراء الإمبراطورية البيزنطية الذي يزودها بالحبوب والغلل ^(١)، وتزودها فضلاً عن ذلك بما تنتجه من (القراطيس) لاستعماله في الأمور الكتابية ، والتي استمرت معتمدة عليها فيما تحتاج اليه من القراطيس حتى ايام الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولا أدل على صحة ذلك من الحادثة التاريخية الشهيرة التي كانت السبب المباشر في تعريب السكة وما اردفها من تعريب الدواوين •

وإذا ما علمنا ان الحرب بين ندين قويين قد تتعدى أحياناً الى أسلوب آخر وهو فرض المقاطعات الاقتصادية أي توجيه الضربات المركزة والفعالة الى ركائز قوة الخصم المادية والمعنوية ومنها القدرة الاقتصادية لأجل أضعافه وتحديد قدرته على المطاولة اكثر والتأثير المباشر على كيفية صنع القرار السياسي والحربي لديه وماهية هذا القرار ، أدركنا من كل هذا الأبعاد السياسية والعقائدية وراء عملية تعريب السكة في العصر الأموي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان التي تلازمت مع موقف التحدي السياسي والعقائدي البيزنطي الصريح والمتواصل الموجه ضد المسلمين •

فإذا ما تجاوزنا الأسباب الاقتصادية والمالية والعمرانية ، لندخل فيما له من علاقة مباشرة بالمجابهة مع البيزنطيين وهو حادثة القراطيس تلك الحادثة التي نبهت الخليفة عبد الملك بن مروان على ضرورة تقوية الفرصة المحتملة على البيزنطيين والقائمة على احتمالية فرض مقاطعة اقتصادية على المسلمين بمنع ورود (الدنانير البيزنطية) وما قد يشكله هذا الامر من خطر كبير على مستقبل الصراع الحربي والسياسي معهم ، وذلك لبقاء المسلمين الى سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م يعتمدون الدنانير الرومية الذهبية في معاملاتهم الاقتصادية اليومية ، وعليه فإن احتمالية تنفيذ مثل هذه المقاطعة من قبل الروم لأجل ضرب المسلمين في واحدة من اهم أسباب قوتهم ، وهو امر وارد هو الذي نبه الخليفة عبد الملك الى استكمال الاستقلال الاقتصادي الناجز الذي يعزز الاستقلال السياسي عن الإمبراطورية البيزنطية ، وبالتالي يفوت فرصة توجيه ضربة الى الاقتصاد الإسلامي من قبلهم ، فقد ذكر

(١) علي إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني ، ط٤ ، مكتبة النهضة

المصرية ، (القاهرة ١٩٥٤ م) ، ص ٢٨ ؛ إبراهيم احمد العدوي ، مصر الإسلامية مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة ١٩٧٦ م) ، ص ٥ •

البلاذري^(١) إن القراطيس كانت تصدر إلى بلاد الروم من مصر ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير الذهبية وكانت الأقباط من أهل مصر تذكر السيد المسيح (عليه السلام) في رؤوس الطوامير وتنسبه الى الربوبية وتجعل الصليب في أعلاها ، فعمد الخليفة عبد الملك بن مروان الى حذف مثل هذه الشارات واستبدلها بآية التوحيد ((قل هو الله أحد ^(٢))) ، وعبرة البسمة بدلاً عن شارة الصليب ، وربما يكون الخليفة عبد الملك قد أدرك أهمية القراطيس بوصفها وسيلة إعلامية واسعة الانتشار يمكن الاستفادة منها في حمل رسالة التوحيد الإسلامية بأوجز عبارات الى ابعد ما يمكن ونشرها أوسع انتشار في قلب الدولة البيزنطية (دارالحرب) بوصفها نوع من المجابهة الفكرية - في الوقت نفسه - والدعاية الموجهة غيضاً للعدو في عقر داره . يؤكد هذا رواية نقلها ابن العديم ^(٣) أشارت الى ان الخليفة عبد الملك كان يكتب على رؤوس الطوامير ((لن يستتكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ^(٤))) ، فلما أبلغ ملك الروم بمضمون هذه الآية ودلالاتها التوحيدية ثار غيضاً ، لمساسها بجوهر عقائدهم القائمة على تأليه السيد المسيح (عليه السلام) ، ولاشك في ان هذا الأسلوب من الصراع الفكري قد اقض مضجعه ؛ لذا كتب الى الخليفة عبد الملك : ((إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه فأنت تركتموه وألا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهون ، فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره ان يدع سنة حسنة سنها ^(٥))) .

وفي الوقت ذاته أدرك حجم الخطر الذي يشكله بقاء الارتباط المصيري بالاقتصاد البيزنطي ، ذلك الارتباط الذي لاشك في أنه يتأثر سلماً أو إيجاباً بالقرار السياسي للملك البيزنطي ، فما بالك إذا كانت الحرب لم تزل مستمرة على أشدها بين الطرفين وبصورة شتى ، على الرغم من عقد الهدن بين الحين والآخر ، فأذا كان ملك الروم قد هدد هذه المرة بالإساءة الى نبي المسلمين (صلى الله عليه وسلم) فإنه قد لا يتوانى عن قطع ورود الدنانير الذهبية إليهم في وقت قد يكونوا هم بأمس الحاجة إليها لإدامة الجهاد في سبيل الله تعالى .

(١) فتوح البلدان ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) سورة الإخلاص آية ١ .

(٣) بغية الطلب ، ج ٧ ، ص ٣١٩٤ .

(٤) سورة النساء آية ١٧٢ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ؛ ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ص ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن عساكر ،

تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٧ ، ص ١٩٥ .

إزاء هذا وبمشورة أهل الحلم والرأي قرر التخلص من ربة السيطرة الاقتصادية البيزنطية واتمام الاستقلال السياسي للدولة العربية الإسلامية بالاستقلال الاقتصادي ولاشك بعد أن أمتلكت الدولة العربية الإسلامية ما يكفيها من الذهب ، لذا عمد الخليفة عبد الملك الى سك دنانير عربية إسلامية خالصة بنقوش وشارات واوزان خاصة بهم بعد ان اشار عليه بذلك خالد بن يزيد بن معاوية ^(١) (ت ٨٥ هـ) ، وقيل ^(٢) محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الباقر ^(٣) ، وأصر على المضي في كتابة العبارات آنفة الذكر ذات التأثير المعنوي والنفسي على العدو بقوله : ((أفرغ روعك يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما يكرهون في الطوامير ^(٤))) وفي رواية ابن العديم ((١٠٠ أجعل عندك داراً للضرب واضرب فيها وامنع القراطيس فإنه سيحتاج اليها فيأخذها على ما تشاء ^(٥))) ، فنالت هذه المشورة قبول واستحسان الخليفة عبد الملك الذي قام بهذا الانجاز التاريخي الكبير . وهكذا بدأ الخليفة عبد الملك تعريب الدنانير الرومية سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وأتم تعريب الدراهم الساسانية سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م .

وسيراً على السياسة ذاتها وبهدف تحرير كافة مؤسسات الدولة العربية الإسلامية من أي شكل من أشكال التبعية والخضوع للقرار السياسي البيزنطي وتقويتا لأية فرصة من شأن الروم الإفادة منها في توجيه ضربات مباشرة ومؤثرة ضد العرب المسلمين ، خطا الخليفة عبد الملك خطوة تاريخية اخرى ، وذلك بتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) بعد ان كانت تكتب باللغات المحلية للأممصار الإسلامية ، إذ كانت تكتب بالرومية (اليونانية) في

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ابو هاشم الأموي كان يوصف بالعلم وقول الشعر وكان من تابعي أهل الشام وكان يعنى بكتب العرب والعجم وعلومهم . ينظر : بد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ، ص ١١٩ (٢) البيهقي ، ابراهيم بن محمد البيهقي ، المحاسن والمساوي ، وقف على طبعه فردرك شوالي ، مطبعة غليوم درو غولين ، (ليبسك ١٣١٨ هـ) ، ص ص ٤٩٨ - ٥٠٢ .

(٣) محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنهم اجمعين) كان عالماً سيداً كبيراً وانما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع ، توفي في شهر ربيع الآخر سنة ١١٣ هـ بالحميمة ونقل الى المدينة ودفن بالبقيع . ينظر : ابن خلكان ، ابي العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٨ م) ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٥) بغية الطلب ، ج ٧ ، ص ٣١٩٤ .

الشام وبالقبطية بمصر وبالفارسية (الفهلوية) في العراق^(١) ، فأُسند هذا الأمر إلى خيرة رجال الإدارة من العرب ذوي الكفاءة العالية وسخر لهم الأموال اللازمة لإنجاز هذا العمل التاريخي الكبير كما حصل ذلك في بلاد الشام حيث أوكل الخليفة عبد الملك مهمة تعريب دواوينها إلى سليمان بن سعد الخشني بعد ان ان يتولاها واحد من أهل الذمة يدعى سرجون ابن منصور ، وخصص له خراج الأردن لمدة سنة البالغ (١٨٠) ألف دينار معونة لسليمان في عمله فلم تنقضى سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م حتى اتم تعريب دواوين الشام بعد ان صرف سرجون بن منصور عن الديوان^(٢) . واستكمالاً لهذا الفعل التاريخي الجريء فقد تم تعريب دواوين العراق أيضاً من قبل واليه الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان^(٣) ، ولأن هذا الفعل عملاً صعباً لا بد انه يستغرق وقتاً طويلاً ولأنه ضرورة لاغنى عنها ، لذا تم استكمالها في خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٧ هـ / ٨٠٦ م ، إذ أمر عامله على مصر عبد الله بن عبد الملك بتعريب دواوينها التي كانت تكتب بالقبطية فنسخت الى العربية وصرف عبد الله اشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص^(٤) .

(١) الجهشيارى ، محمد بن عبدوس الجهشيارى (ت ٣٣١ هـ) ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة عبد الحميد حنفي ، (القاهرة ١٩٣٨ م) ، ص ٢٣ ؛ الماوردي ، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر ، (بيروت د ٠ ت) ، الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٦ هـ) ، ادب الكتاب ، تعليق محمد بهجة الاثري ، دار الباز للطباعة والنشر ، (القاهرة ١٣٤١ هـ) ، ص ١٩٢ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ١٩٢ - ١٩٣ ؛ الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٩٤ ؛ الصولي ، ادب الكتاب ، ص ١٩٢ .

(٤) الكندي ، كتاب الولاة ، ص ٥٩ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

الفصل السابع

أساليب المجابهة السياسية والفكرية والاقتصادية

أساليب المجابهة السياسية

لم تقتصر المجابهة مع الروم البيزنطيين على القتال ومباشرة الفعاليات العسكرية، بل تنوعت وتعددت الأساليب والوسائل من حين لآخر، تبعا لظروف ومستجدات الحرب معهم، كشأن أية حرب طويلة الأجل بين خصمين قويين، فأذا ما نبا الحسام أو كبا الجواد لعارض ما يوما من الأيام، كان أهل الحل والعقد من الخلفاء ومن يشاطرهم الرأي والمشورة في الدولة العربية الإسلامية يعمدون الى اتباع ما أمكن اتباعه من الأساليب المكافئة لأساليب عدوهم التي من شأنها ان تعكس قوة المسلمين ومقدار توثبهم، وإضفاء الهيبة على الدولة العربية الإسلامية في أعين أعدائها، لاسيما الروم البيزنطيين كنوع من المجابهة السياسية المتجسدة بالاستخدام الذكي للحرب النفسية الموجهة والمقصودة، كما يفهم هذا من شتات الإشارات التاريخية الموثقة في ثنايا المصادر، التي تعكس ذلك بوضوح.

ففي هذا الشأن - على سبيل المثال - أجمعت المصادر التاريخية على نقل رواية مهمة من تلك الروايات يمكن تحليل محتواها على انه ضرب من ((دعاية الميدان^(١))) التي تعد اهم أشكال ((الحرب النفسية التكتيكية^(٢))) المعروفة في العصر الحديث، الي لجأ المسلمون الى اتباعها في حربهم مع الروم، لأن من شأنها إضفاء القوة والمنعة عليهم في نفوس أعدائهم الروم، فقد روي ان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما دخل الشام سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م رأى الوالي معاوية ابن ابي سفيان يروح ويغدو في موكب بهي على غير عادة المسلمين آنذاك، فلما عتب عليه الخليفة واستنكر فعله هذا، أجاب معاوية ((يا أمير المؤمنين انا بأرض عدونا قريب منها وله علينا عيون ذاكية فأردت أن يروا للإسلام عزاً^(٣))) وفي رواية ثانية ((لأننا في بلاد لا يمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة

(١) عن هذه المفاهيم ينظر: أ.د حميدة سميسم، الحرب النفسية، (بغداد ٢٠٠٠ م)، ص ص ٧٠ - ٧٣

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٧٠ - ٧٣.

(٣) البلاذري، انساب، ج ٤، ص ١، ص ١٢٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٣١، مسكويه، تجارب الامم، ج ٢، ص ص ٣٢ - ٣٣.

السلطان^(١))) ، مما كان لذلك أثره البين في نفس الخليفة عمر (رضي الله عنه) الذي رد على واليه معاوية بالقول : ((ان هذا لكيد لبيب أو خدعة أريب^(٢))) .

ولما كانت الرسل تختلف بين الطرفين لأغراض شتى في العصرين الراشدي والأموي على حد سواء^(٣) ، فإن حبس الرسل وتأخير قفولهم الى ديارهم من قبل القادة المسلمين لعدة أيام عن قصد ، لكيما يروا مقدار قوة المسلمين المادية والمعنوية وطبيعة تعاملهم فيما بينهم ومع قياداتهم ، ولأجل أن ينقل هؤلاء الرسل إلى قيادتهم صورة حية عن ذلك من شأنها أن تحدث نتائج عكسية على قرارات العدو السياسية والعسكرية وعلى مجريات الحرب عموماً لصالح المسلمين ، كان هذا هو الآخر من أساليب الحرب النفسية ((دعاية الميدان)) التي اتبعها العرب المسلمون مع الروم ، كما حصل ذلك مع القائد عمرو بن العاص أثناء جهاده لتحرير مصر من هيمنتهم ، إذ حبس بقصد الحيلة رسل المقوقس - حاكم مصر - لعدة أيام حتى أثار مخاوف الأخير عليهم ، فلما عادوا اليه استفسر منهم عن حال المسلمين ومقدار قوتهم ، فأجابوه إجابة شافية ووافية - حققت مقصد القائد عمرو بن العاص - كان لها ابعث الأثر في قبوله الاستسلام وعقد الصلح مع المسلمين^(٤) .

وفي العصر الأموي كما هو نهجهم من قبل لم يدع العرب المسلمون حيلة أو مكيده سياسية ذات انعكاسات سلبية على نفسية العدو وروحه المعنوية وقدرته على المطاولة ، الا واستخدموها في الحرب مع الروم البيزنطيين ، حتى في مجال البناء والعمارة التي قد تبدو للقارئ غير المتمعن بعيدة كل البعد عن مجريات الحرب ، لكنها في الواقع تجسيد فعلي لمقدار التقدم الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي بلغته الدولة العربية الإسلامية في ظل الخلافة الأموية ، فقد روي ان الخليفة عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م) ولما عُرف عنه من زهد

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص ٣٦٥ .

(٢) البلاذري ، انساب ، ج٤ ق ١ ، ص ١٢٥ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج٥ ، ص ٣٣١ ، مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص ٣٦٥ .

(٣) ينظر : سعيد بن منصور ، السنن ، ج٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٣ ، ص ٧٠ - ٧١ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، ج٥ ، ص ٢٤١٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٧ .

وتكشف رأى أن ينزع ما وضعه أسلافه الخلفاء من زينة وفسيفساء ورخام وسلاسل مذهبه في المسجد الجامع بدمشق ويضع أثمانها في بيت مال المسلمين لينتفعوا بها في شؤون حياتهم الأخرى ، وبينما هو في جدل محتدم مع الشاميين الذين اعترضوا على هذا الامر ، نما إليه ان وفداً من الروم اقبلوا لزيارة الشام وقد طلبوا الأذن بزيارة المسجد الجامع في دمشق ، فأذن لهم ، فمروا وتجولوا في أروقة المسجد واطلعوا على عظمة البناء الإسلامي ، حتى قيل أن رئيس الوفد خر مغشياً عليه منبهراً بما رأى وبما بلغه العرب من عزة وقوة ومنعة ، فلما أفاق سأله أصحابه عما أصابه ما غشيه فقال :

((٠٠) أنا معشر أهل رومية كنا نتحدث ان بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة سيبلغونها فلذلك أصابني ما أصابني ^(١))) ، وفي الحال أبلغ الخليفة عمر بهذه الحادثة ، فعدل عما عزم عليه وقال : ((أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار ، فترك ما هم به ^(٢))) . بعد ان أدرك الأبعاد السياسية والإعلامية لأقامة مثل هذه العمائر على نفسية العدو وموقفه من العرب المسلمين ، والتي كانت بحد ذاتها إخباراً له بمقدار ما بلغوه من شان وعلى مختلف الأصعدة الى الحد الذي جعل لهم القدرة على مقارعتهم بكل الوسائل والأساليب المتيسرة لديهم ^(٣) .

وعوداً على خلافة معاوية بن ابي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) المعروف بدهائه ، فلا بد من الإشارة الى انه قد أشجى عدوه في هذا الضرب من ضروب المجابهة السياسية والحرب النفسية الى الحد الذي اقض مضاجعه وانشب الذعر بين صفوفه ، فمن بين الروايات التاريخية التي تنقل عنه في هذا السياق وتشهد له بذلك ، رواية تؤكد انه برع في اتباع اسلوب آخر من اساليب ((الحرب النفسية التكتيكية)) المتبعة في الوقت الحاضر ، الا وهو ((إرهاب العدو)) عملاً بقول الله تعالى : ((واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم))

(١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، (لیدن ١٣٠٢ هـ) ، ص ١٠٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٧ ، ص ص ٣٠٦٩ - ٣٠٧٠ ، عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٨ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٧ ، ص ص ٣٠٦٩ - ٣٠٧٠ ، عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) يبدو ان هذه السياسة قد عمل بها الخليفة معاوية من قبل كما يفهم من رواية بهذا الشأن اوردها البلاذري . ينظر: البلاذري ، انساب ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٢٥ .

وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تتفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وانتم لاتظلمون^(١))) ، وذلك بتوجيه الحرب ليس فقط ضد الجند الرومي ومن يمددهم بالعون من سكان المدن الرومية في ميدان القتال ، بل نحو قيادات البيزنطيين ورؤسهم المدبرة من الأمراء والبطارقة في قلب إمبراطوريتهم ، لاسيما من كانوا يؤذون المسلمين النافذين الى قلب بلاد الروم مثل التجار او الرسل او الأسرى ، وذلك بتصفيتهم جسدياً او من خلال التأثير في مدركاتهم السياسية والعسكرية ودفعهم الى اتخاذ قرارات خاطئة من شأنها ان تسبب لهم الهلاك وتحد من اخطارهم الموجهة باستمرار ضد المسلمين ، فقد روي أن الخليفة معاوية كان إذا نمي إليه ان بطريقاً من بطارقة الروم كاد للإسلام كيداً ، احتال له فأهدى إليه الهدايا وكتبه الى الحد الذي يغري به ملك الروم فيقتله بتهمة الخيانة ((فكانت رسله (أي معاوية) تأتيه فتخبره بأن هناك بطريقاً يؤذي الرسل ويطعن عليهم ويسيء عشرتهم فقال معاوية : أي ما في عمل الإسلام احب إليه ؟ فقيل له : الخفاف الحمر ودهن اللبان ، فألطفه بهما حتى عرفت رسله باعتياده ثم كتب كتاباً إليه كأنه جواب كتابه منه يعلمه فيه انه وثق بما وعده به من نصره وخذلان ملك الروم ، وأمر الرسول بأن يتعرض لأن يُظهرَ على الكتاب . فلما ذهبت رسله في أوقاتها ثم رجعت إليه قال : ما حدث هناك ؟ قالوا : فلان البطريق رأيناه مقتولاً مصلوباً . فقال (أي معاوية) : وأنا أبو عبد الرحمن^(٢)) .

فضلا عن نجاح الخليفة معاوية في تصفية بعض القيادات الرومية من خلال بث الفرقة وعدم الثقة فيما بينهم وجعلها تقتل نفسها بنفسها - إن صح التعبير - ، فقد نجح مرة أخرى في بث الذعر والهلع بين ظهرائهم ، وذلك بإبلاغهم بالفعل قبل القول أن أي شبر من أرضهم أو أي عالج منهم ليس ببعيد المنال ولا بمنأى أو منجى من كيد المسلمين، تؤكد ذلك رواية تاريخية نقلتها المصادر مفادها أن رجلاً من قریش أسر فحمل الى القسطنطينية ، فكلمه ملك الروم ، فأجابه القرشي أجابة لم ترق له ، فقام إليه بطريق من البطارقة فوكزه ، فاستغاث القرشي الخليفة معاوية الذي بلغته غائته إياه عن طريق عيونه وجواسيسه ، فأحتال في فداء هذا

(١) سورة الانفال آية ٦٠ .

(٢) المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : د عبد الحميد

هنداوي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٩٩٩ م) ، ج ٢ ، ص ص ١٣٨ - ١٣٩ .

الرجل^(١) ، فلما وصل إليه استفسر منه الخليفة عما حصل وعن صفة ذلك البطريق ، فأستنفر الخليفة أحد قادة البحر في الشام ، الذي احتال بدوره بهيئة تاجر يتردد سرا" الى بلد الروم ، حتى تمكن من إلقاء القبض على ذلك البطريق و أحضره بين يدي الخليفة معاوية الذي استدعى ذلك القرشي فأقتص لنفسه منه ، و أمر الخليفة معاوية بإعادة ذلك البطريق ((فلما وصل الى ملكه ووصف لهما صنع به معاوية قال: هذا ملك كبير الحيلة ، فعظم معاوية في أعينهم وفي نفوسهم فوق ما كان ^(٢))) .

وكما هو معلوم فقد دأب الروم البيزنطيون على الإفادة من حالات الصراع والأزمات السياسية التي تتعرض لها الدولة العربية الإسلامية أحيانا ، لأجل الانقضاض عليها وتوجيه الضربات القوية إليها ، تعبيراً عن تحديهم المتواصل للمسلمين ومناصبتهم إياهم العداء ، فما كان من قادة السياسة والحرب المسلمين إلا أن عمدوا إلى اتباع الأساليب السلمية السياسية لدفع غوائلهم بالإقناع والمهادنة مقيضة بالمال والهدايا ، في الوقت الذي يتعذر فيه تجريد السلاح لردعهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية انه خلال ظروف الخلاف ما بين معاوية بن أبي سفيان والخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) تحرك ملك الروم ((في جموع كثيرة وخلق عظيم^(٣))) لمهاجمة دار الإسلام بعد أن ألب المردة والجراجمة^(٤) في جبال لبنان

(١) لمزيد من الشواهد التاريخية على اهتمام الخلفاء الأمويين بشؤون الأسرى المسلمين في القسطنطينية ، ينظر : مثلاً مراسلات الخليفة عمر بن عبد العزيز إليهم في : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ ، سعيد بن منصور ، السنن ، ج ٢ ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، البيهقي ، ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، شعب الأيمان ، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م) ، ج ٤ ، ص ٣٧ .

(٢) ينظر : النويري ، نهاية الأرب ، ج ٦ ، ص ص ١٨٥ - ١٨٧ ؛ ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، يصدره فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا ، (ألمانيا الاتحادية ١٩٨٩ م) ، ج ٢٤ ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٣) البيهقي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٤) الجراجمة في الأصل قوم أعاجم من جوار مرعش المعروفة قديماً بـ(جرمانيقية) ثم انتقلوا إلى شمالي الشام واتخذوا مدينة الجرجومة عاصمة لهم ، ولذلك عرفوا بالجرامقة نسبة إلى جرمانيقية ، وبالجراجمة نسبة الى الجرجومة . ينظر : عمر بن عبد السلام تدمري ، الجراجمة والأنباط والمردة في عصر الأمويين ، مجلة الفكر الإسلامي ، العدد ١٠ ، السنة السادسة ، أيلول ١٩٧٧م ، ص ٤٥ ؛ انستاس الكرمللي ، المردة او الجراجمة ، مجلة المشرق ، السنة السادسة ١٩٠٣م ، ص ص ٣٠١-٣٠٣ .

وهيجهم ضد المسلمين - حسب رواية المؤرخ البيزنطي ثيوفانتس^(١) - مستغلاً ما صار إليه حال المسلمين من فرقة حينذاك ، حتى أقلق بفعله هذا الوالي معاوية الذي استشار عمرو بن العاص في كيفية مواجهة مثل هذا الخطب ، فأشار عليه الأخير باسترضاء ملك الروم ومهادنته بالمال والهدايا^(٢) حتى تستتب الأمور ويستأنف بعد ذلك الجهاد ضدهم مرة أخرى ، وبالفعل وجه إليه الوالي معاوية فصالحه على مبلغ من المال قدره اليعقوبي^(٣) في رواية غلب عليها طابع المبالغة بمائة ألف دينار في حين جعله ثيوفانتس^(٤) ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة من الأسرى وخمسون فرسا عتيقا ، وهو ما احسبه اقرب إلى الصواب ، وكان الوالي والخليفة - فيما بعد - معاوية بفعله هذا قد غلب العقل والحكمة والتروي على منطق القوة والحرب والعجلة ، فافتدى سلامة المسلمين بالمال والألطف ، لما رأى أن لاسبيل له ولجندة لخوض غمار حرب قد تكون غير مأمونة العواقب على المسلمين ، لاسيما وأنه كان عليه مجابهة أكثر من خصم منتقض داخل الدولة العربية الإسلامية ، فضلا عن أعداء الإسلام الخارجين وقد أشار البلاذري^(٥) من جانبه إلى أن الخليفة معاوية لزم الحلم والصبر حيال موقف البيزنطيين الذين غدروا برهائن المسلمين الذين ارتهنوهم وقال ((وفاء بغدر خير من غدر بغدر^(٦))) رافضا قتل رهائنهم الذين عنده ومستفتحا عليهم بهذا الفعل ، حتى امتلك أسباب القوة الكافية وتوفرت الظروف الملائمة له لاستئناف الجهاد ضد الروم ((فلما استقام الأمر لمعاوية أغزى أمراء الشام على الصوائف فسبوا في بلاد الشام سنة بعد سنة... وطلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه^(٧))).

وهكذا كان الخليفة معاوية قدوة وأسوة للخليفة عبد الملك بن مروان الذي اعمل هو الآخر الحكمة والسياسة مكان العجلة والمجازفة بالمسلمين ، لما لم يتسنَّ له مقارنة

(١) ينظر : إحسان عباس ، العرب والمردة في تاريخ قسطنطين المولود في الأرجوان ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة الأولى ، العدد الثالث ، كنون الثاني ١٩٧٩م ، ص ٦ وما بعدها .

(٢) البلاذري ، انساب ، ج ١ ق ٤ ، ص ٤٧ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٣٣-٣٣٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٤) ينظر : إحسان عباس ، العرب والمردة ، ص ٦ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٥٩-١٦٠ . ينظر أيضا : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٦٢ ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(٧) ذكر اليعقوبي أن عقد الصلح تم سنة ٤٢هـ . ينظر : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

الروم البيزنطيين بالسلاح ، حين استغلوا مجدداً الصراع السياسي الذي شهدته السنوات من خلافته (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥ م) ، فقد حدث أن توفي الإمبراطور البيزنطي قسطنطين وتولي العرش ابنه جستين الثاني سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م الذي كان صغير السن فدفعه طيشه في سنة ٦٩هـ / ٦٨٩م أن يستجيش قواته لقتال العرب المسلمين ، واتصل بالجرجمة والمردة مجدداً فاخذ يستثيرهم ويحرضهم على حرب العرب المسلمين والإفادة مما يعصف بهم من ظروف سياسية غير مستقرة ، ثم أرسل الكتب إلى الخليفة عبد الملك مهدداً إياه ، فلما جاءه جواب الخليفة عبد الملك بما لا تهوى نفسه عمد إلى إخراج الخيل إلى جبل اللكام بقيادة (لاوي بن فلنط) - كما يسميه المسعودي^(١) - حتى وصلت لبنان ، وانضوى إليها جماعة من الجراجمة والأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين^(٢) ، ومن جهة أخرى حرك ملك الروم أسطولاً بحرياً بقيادة بطريق آخر يدعى (فلقط) قاصداً ساحل الشام ، فأرسى عند وجه الحجر^(٣) جنوبي طرابلس ، ونزل الجيش إلى الساحل ثم علا جبل لبنان ، وانبت قاداته إلى أقصى الجبل حتى اتصلوا بخيل الروم عند إنطاكية وغيرها من الجبل الأسود ، فاعظم المسلمون ذلك حتى انهم اصبحوا لا يستطيعون التجول في الجبال وغيرها من تلك النواحي إلا بالسلاح ، ثم استفحل أمرهم فغلبوا على جبال لبنان وسنير^(٤) وجبل الثلج وجبال جولان ، وأقاموا المسالحي وقطعوا السبل ، ووصل الأمر بهم انهم كانوا ينادون الخليفة عبد الملك من جبل ((دير مرّان)) في الليل^(٥) ، وفي هذه الأثناء وصلت بعض السفن البيزنطية إلى قيسارية فلسطين فشعثوها وهدموا مسجدها وخرّبوا مدينة عسقلان واخرجوا أهلها منها^(٦) .

ويبدو أن الأحداث قد تشابكت والمصائب قد أنثالت على الخليفة عبد الملك في هذه الأثناء ، إذ صادف انه كان خارج العاصمة دمشق ، وقد ترك عليها عبد الرحمن

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ص ١٠٥-١٠٦ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٠ .

(٣) وجه الحجر : عقبة قرب جبيل على ساحل بحر الشام . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٤٧ .

(٤) سنير: جبل بين حمص وبعليك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير. ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٥ ،

ص ٨٣

(٥) بضم الميم وتشديد الراء بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران . المصدر نفسه ، ج ٤ ،

ص ٣٦١ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٠ ، ص ١٤٤-١٤٥ ، ج ٣٤ ، ص ص ٤٠٢-٤٠٤ ؛ ابن العديم ،

بغية الطلب ، ج ١ ، ص ص ٢٣٢-٢٣٣ ، ج ٩ ، ص ص ٤١٨٧-٤١٩٠ .

ابن أم الحكم ، فبعث إليه يخبره بخروج الروم ووصولهم إلى المصيصة يريدون الشام ، واتاه مسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين - وقد كان آل الزبير ينازعونه على الخلافة - ثم جاءه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه ، وان خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغير ذلك من الأخبار الخطيرة التي بلغت في تلك الليلة ، إلا أنه إزاء ذلك كله اظهر من الصبر والتجدد والكياسة ما ينم عما تمتع به هذا الخليفة من حصافة وحنكة سياسية أثارت إعجاب بعض المؤرخين كالمسعودي الذي قال إن الخليفة عبد الملك لم ير ((في ليلة قبلها اشد ضحكاً ولا احسن وجهاً ولا ابسط لساناً ولا اثبت جناناً منه تلك الليلة تجلداً وسياسة للملوك وترك إظهار الفشل^(١))) ، وكانت السنوات الأولى من خلافته قد شهدت بعض الاضطرابات والفتن ومن ذلك استيلاء مصعب بن الزبير على العراق وسيطرة أخيه عبد الله على الحجاز ، وتمرد عمرو بن سعيد بن العاص بدمشق^(٢) ، فاقبل الخليفة عبد الملك مغداً في سيره حتى دخل دمشق ورأى أن يسالم البيزنطيين في ذلك الوقت ، حتى يتفرغ للقضاء على خصومه الأقوياء في الداخل على أن يعود لمجابهة البيزنطيين في الوقت المناسب .

وأمام هذا الواقع الخطير ، اظهر الخليفة عبد الملك حنكة ودهاء قل نظيرهما حيث تعامل مع الإمبراطور البيزنطي بروية وحكمة متأسيا بسلفه الخليفة معاوية في ذلك ، فكتب إليه كتاباً فاتحه بإبرام الصلح ووجه إليه حميد بن حريث بن بحدل الكلبي وكريب بن ابرهة بن الصباح الحميري بكتاب الصلح ومعهما الهدايا والألطاف كما فعل سلفه معاوية من قبل^(٣) ، فكان جوابه بالإيجاب على أن تكون مدة الصلح عشر سنين حسب رواية المنبجي^(٤) ، وتحقق بذلك ظن الخليفة عبد الملك بضعف بصيرة عدوه ، ففاتحه بخذل الروم الذين في جبل لبنان ومن معهم ليقوم بسحبهم ، على أن يتقاسم الاثنان خراج قبرص وأرمينية فيما بينهما بالتساوي ويدفع لملك الروم كل يوم

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

(٢) عبد الأمير عبد حسين دكسن ، الخلافة الأموية ٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٤-٧٠٥ م دراسة سياسية ، ط ١ ، دار

النهضة العربية ، (بيروت ١٩٧٣ م) ، ص ٣٣-٣٤ ، ١٩٩٩-٢١٧ .

(٣) البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٤) المنتخب ، ص ٧٨ .

ألف دينار وفرنساً عتيقاً حسب رواية ثيوفانتس^(١) وضماناً لذلك، قدم ملك الروم رهائن من أبناء الروم ، فأخذهم الخليفة عبد الملك وصيرهم في بعلبك ، كما فعل مثل ذلك الخليفة معاوية من قبل^(٢) ، ومن جهة أخرى واستكمالاً لخطته السياسية الذكية هذه وادع أيضاً قائد الروم والجراجمة الذين في جبل لبنان ((لاوي بن فلنط)) إذ بذل له في كل جمعة ألف دينار على أن لا يفسد أصحابه في البلاد ويكفوا عن المسلمين بأسهم^(٣) ، وقد رجحت بعض الدراسات الحديثة أن يكون هذا الصلح قد جرى في المدة ٦٥-٦٦هـ/ ٦٨٤-٦٨٥ م لما رافقها من اضطراب سياسي وعدم الاستقرار^(٤).

وفي الوقت نفسه فقد أوصى الخليفة عبد الملك عامله على طرابلس سحيم بن المهاجر أن يدبر مكيدة لقائد الروم والجراجمة ((لاوي بن فلنط)) يمنع بهما من الإفساد ، وابلغه أيضاً بتدبير أمر القائد (فلنط) ، فلبث سحيم هذا يتحين الفرصة للانقضاض على قائد الروم ، وراح يتسقط أخباره ، وبث عيونيه بين الروم من أصحابه في إحدى النواحي ، فاعمل سحيم الحيلة وتهيأ بهيئة الروم ، وتزياً بزيهم وحمل سلاحهم وجعل شعره كشعرهم وتقلد بالصليب ، وتشبه ببطريق من بطارقتهم ، ثم قام ببث إشاعة في أماكن تواجد الروم ومن معهم بواسطة أعوانه فحواها انه قادم من قبل الإمبراطور إلى جبل اللكام فغلب على ما هنالك في جماعته ، وانتخب سحيم عشرين رجلاً من ثقافة جنده وكماتهم لمرافقته ، وجهاز جيشاً من موالي عبد الملك وبني أمية ، وخرج معهم من طرابلس ليلاً ، فأمر الجيش أن يمسك السبل على الروم ، وتوجه بجنوده حتى أمسى على مقربة من القرية التي فيها بطريق الروم ((فلنط)) فأكمن العشرين جندياً عندها في مكان خفي ، وسار بمفرده فدخل على البطريق وأصحابه وهم في كنيسة وقد جلسوا إلى الطعام ، وقبل أن يجلس إليهم قصد مذبح الكنيسة ، فصنع ما يصنعه النصارى من التثليث ، ثم جلس إلى البطريق الذي راح يسأله عن مهمته وسبب قدومه ، فاخبره انه أحد بطارقة الضواحي ، وذكر بطريقاً يشبهه وظهر ممالاته ،

(١) ينظر : عبد الأمير عبد حسين دكسن ، الخلافة الأموية ، ص ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ كذلك المنبجي ، ص ٨٧ ، إحسان عباس ، العرب والمردة ، ص ٦ وما بعدها .

(٢) البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ص ١٥٩-١٦٠ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ١٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٤) عبد الأمير عبد حسين دكسن ، الخلافة الأموية ، ص ٢٠١ .

وتقرب إليهم بزم عبد الملك وشتمه^(١) ووعد أنه يساعده عليه وأن يبذل له ما هو خير من الصلح الذي بينه وبين عبد الملك وراح يخوفه من غارة قد يشنها عليه ((سحيم)) في وقت قريب وقال : ((أنى إنما جئت لما بلغني من جهاز سحيم وما اجتمع به من الخروج إليك لاختبرك به وأكفيك أمره إن أتاك^(٢))) فوثق به البطريق وأنس إليه وقدم له الطعام ، ولكن سحيماً مضى في خطته فلفت نظره وأصحابه إلى أنهم لم يأتوا إلى هنا من أجل الطعام والشراب وإنما لقتال العرب ، ثم طلب من البطريق أن ينتدب عشرة من أصحابه الأشداء ليقوم معهم بحراسته ليلاً خوفاً من غارة مفاجئة يقوم بها عامل طرابلس في ليلته هذه ، فانتدب له ما أراد وخرج بهم سحيم إلى أقصى القرية وأقامهم على طريق أظهر لهم أنه يتخوف منها ، وجعل الحراسة بالتناوب فيما بينهم ، فلما جاء دوره وتأكد من نومهم جميعاً استل سيفه وقتلهم ، ثم دخل الكنيسة فقتل البطريق ((فلقط)) وقضى على من معه ، وخرج بعد ذلك إلى أصحابه فأتى بهم فوضعوا سيوفهم في من بقي من الروم والجراجمة وغيرهم ، وأمر فنودي أن من أتاه من العبيد الذين انحازوا إلى الروم فهو حر ، ويثبت في الديوان ، فانفض إليه خلق كثير منهم فكانوا ممن قاتل معه ، ونزل البلاء بالروم وقتل منهم يومئذ بشر كثير ، وفر قسم منهم عبر الجبال حتى أتوا سفنهم عند وجه الحجر فركبوها وأبحروا هاربين إلى بلادهم وأمر أن ينادى بالأمان فيما بقي من الجراجمة والأنباط والمردة ، ففرقوا في قرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم الجرجومة ، وأتى الأنباط إلى قراهم ، ووفى بوعده للعبيد ومن ضوى إليه فحررهم وثبتهم في الديوان ، ولم يخرج بعد ذلك في البحر إلى ساحل الشام في عهد عبد الملك ابن مروان^(٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ . أحداث سنة ٦٩ هـ .

(٢) ينظر : ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢ ، ص ٤٤-١٤٥ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١٨٧-٤١٨٩ . ينظر أيضاً : البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩-٣٠٠ ، فتوح البلدان ، ص ١٦٠-١٦١ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، عمر عبد السلام تدمري ، الجراجمة ، ص ٤٦-٤٩ .

(٣) ينظر : فليبي حتي ، تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ٥٢-٥٣ ؛ تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ؛ إحسان عباس ، العرب والمردة ، ص ٦ وما بعدها .

وفي تعليق للمؤرخ البيزنطي ثيوفانتس^(١) على الاتفاق الذي حصل بين الخليفة عبد الملك بن مروان وملك الروم بشأن إبعاد الجراجمة والمردة الذين قدر عددهم باثني عشر ألفاً ومن معهم من الروم ، ألقى باللائمة على ملك الروم ورأى انه قد شل قوة الروم ، وان باستردادهم أصاب بلاد الروم وما يزال - إلى وقته - يصيبها أضرار بالغة على يد العرب المسلمين وذكر أن ملك الروم ذهب في السنة نفسها إلى أرمينية واسكن فيها مردة لبنان وبذلك حطم سوره النحاسي الذي يحمي حدود مملكته .

(١) ينظر : فيليب حتي ، تاريخ سوريه ، ج ٢ ، ص ص ٥٢ - ٥٣ ؛ تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، إحسان عباس ، العرب والمردة ، ص ص ٦ وما بعدها .